

الموجز في تاريخ الحضارات البشرية

تأليف

باسم حسين سرحان





الـمـوجـز في

تاريخ الحضارات البشرية



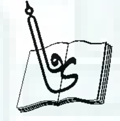
الــمــوجــزفــي

تاريخ الحضارات البشرية

تأليف

باسم محمد سرحان

الطبعة الأولى — ٢٠٠٩ م

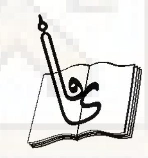


دار يافا العلمية للنشر والتوزيع

٩٣٠
سرحان، باسم محمد
الموجز في تاريخ الحضارات البشرية / باسم محمد سرحان._
عمان : المؤلف ،٢٠٠٩.
(   ) ص
ر.إ : (٤٣١٦/ ١٠/ ٢٠٠٩)
الواصفات : / الحضارات القديمة // التاريخ القديم/

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

2010



داريـــــافـــا العلمية للنشر والتوزيع

الأردن – عمان – تلفاكس ٤٧٧٨٧٧٠ ٦ ٠٠٩٦٢

ص.ب ٥٢٠٦٥١ عمان ١١١٥٢ الأردن

E-mail: dar_yafa @yahoo.com

الإهداء

وإلى زوجتي التي شاركتني الدرب حلوه ومره حفظها الله

وإلى أبنائي وفلذات كبدي ذكورا وإناثا هداهم ورعاهم الله

وإلى طلاب العلم وعاشقي المعرفة خالصة لوجه الله

باسم سرحان





الباب الأول :

مظاهر الحضارة، معناها، ونشأتها



الفصل الأول :

أسباب وعوامل تكون ونشوء الحضارة

إنعكست آثار المفاهيم المختلفة لكلمتي (Culture و Civilization) في التفكير العالمي بين المشتغلين بالدراسات الحضارية قد انعكس أثرها على الدراسات التي تتناول هذا الموضوع في اللغة العربية،لذا بات من المستحسن تلمس مصطلحات ثابتة لترجمة هذه الأفكار حتى تستقر في الاستعمال العلمي.فكلمة Culture ترجع في أصلها إلى الفعل اللاتيني Colere والذي يعني فعل الزراعة، أو التمجيد والتعظيم.ومن الاستعمالات القديمةللكلمة،في اللاتينية،استعمالها في الدرس والتحصيل العلمي.أما كلمة (Civilization) فقد انحدرت من كلمة Civisاللاتينية،والتي تدل على المواطن المدني،في صورة سلوكية معينة،وهي ما تتميز به طبقة علية القوم في التقاليد الرومانية.وقد بدأت هذه الكلمة تظهر في العصور الحديثة منذ عصر النهضة مع ظهور المحاولات الأولى للدراسات الإجتماعية على يد المغامرين والرحالة

والتجار والهواة،ثم تناولها فلاسفة القرن الثامن عشر وعلماء القرن التاسع عشر بالدرس والتحليل والتقويم.

لقــد كــان العلــماء الألمان،خاصــة في العهــد الرومــاني مثــل راتنــاو (Ratnau)،وكيــسرلنج(kesserling)،وتومــاس مــان (Tomas man)،والفرد ويـبر (Alfred Weber)، هـم الـذين نزعـوا بـين المعنيـين الأجنبيين واطلقوا على كل واحد منهما اسما،ورسموا له حـدا،فهم يـذهبون إلى أن (culture)،الحضارة هي صورة التعبير عن الروح العميقة للمجتمـع.وأن مظاهر التقدم التكنولوجي والآلي هي المدنية(Civilization).

أما المدرسة الأنجلوسكسونية فلم تكـد تفـرق بـين المعنيـين،على أن هنـاك بعضا من علمائها مثل ماكيفر(Makiver) صاحب كتاب المجتمع يفصل بـين الحضارة والمدنية في عبارات واضحة قائلا:"إن الحضارة هي ما نحن،أما المدنية فهي ما نستعمل.والحضارة تتمثل في الفنون والآداب والديانات والأخلاقيات بينما تتمثل المدنية في السياسة والاقتصاد والتكنولوجيا ".ويـسير في هـذا الاتجاه

مـن المدرسـة نفـسها أودوم (H.W.Odum) فيعـرف المدنيـة بأنهـا نمـو متخـصص للمجتمـع،يتميز عـن الحـضارات القديمـة أو عـن مجموعـات الحـضارات.ومعنـى هـذا أن كـل مدنيـة هـي حـضارة وليـست كـل حـضارة مدنية.ويرى أودم أن للمدنية خصائص وسمات هي:

أولا : أن المدنية ظاهرة تنشأ في المـدن التـي تتميـز بالتخـصص في العمـل والتجمع والإنشاءات المادية.

ثانيا : الفنون الصناعية والتي يصوغ بها العلم والآلية والتنظيم الإجتماعـي نسيج الحياة الحديثة وخصائصها.

ثالثا : اتخاذ الحياة العقلية،في معناها الثقافي والعلمي والانساني مقاييس عليا للقيمة والمكانة.

رابعا : الميل إلى التجمع وإلى الحكم.

خامسا: الحكم المطلق نتيجة التجمع،والحكم المؤيد بالفنون الصناعية.

أما عند الفرنسين فان كلمة مدنية (Civilization) أكثر دورانا في كتبهم ولا يكاد ينعقد بحث للفصل بين الكلمتين الحضارة والمدنية.

أما عند العرب فكلمة الحضارة والثقافة هي ترجمة لكلمة (Culture) والبعض يفصل بين المعنيين (ويصر أن الحضارة هي ترجمة لكلمة(Civilization).

أما الثقافة فهي في اللغة مصدر الفعل الثلاثي ثقف،فالثقافة بكسر الثاء تعني الحذق والفطنة والنشاط،والصفات من الفعل ثقف هي : ثقف وثقف وثقيف،وثقف الرمح تثقيفا ساواه وعدله،والصفة من الفعل مثقف وهي ما نستعمله نحن.

أما المدنية فهي في العربية مصدر صناعي من المدينة،ومدن المدائن مصرها،والنسبة للانسان مدني وللطائر والحيوان مديني،والمدنية تستعمل ترجمة لكلمة civilization التي تدل على مرتبة من مراتب الحضارة،أو على صورة من صورها،فهي تعني مظاهر التقدم التكنلوجي والآلي والتي تتميز بأنها ذات

طبيعة عقلية عامة لا تحدد بصفة محلية.وبمعنى آخر نستطيع أن نقول إن المدنيـة هي تلك الظواهر القائمة على أسس موضوعية مـن المعرفـة اليقينية،فالحـضارة تعتبر إلى حد كبير ظاهرة نسبية،أما المدنية فهي ظاهرة مطلقة.





الفصل الثاني:

بعض مظاهر الحضارة

عزيزي الدارس، تحتاج الحضارة إلى زمن كي تأتي أكلها ويجربها الإنسان ويعرف فوائدها. والعقل عنصر أساس في صنع الحضارة،وهو أمر جعله الله في الإنسان وليس في أي مخلوق آخر. فالحضارة ظاهرة إنسانية عامة، والانسان هوالمخلوق الوحيد الذي يرتقي ويعمل على تحسين أحوال نفسه بفضل ما وهبه الله من عقل يمكنه من التفكير واختزان المعلومات والربط بينهما والافادة منها. وبذلك فإن كل أجناس البشر متحضرة،والفرق بينها في المستويات. وهذا ناتج عن الظروف المواتية لقيام الحضارة وتطورها.

واستطاع الإنسان بفضل ذهنه أن يحقق إكتشافاته الأولى التي أدخلته ميدان الحضارة. وغالبا ما كانت هذه الاكتشافات تتم عن طريق المصادفة وبعد أن يتنبه إليها الإنسان يقوم بها قصدا ويكررها بعد ذلك وتصبح جزءا من حياته. فعلى سبيل المثال افترض أن الإنسان اكتشف الزراعة مصادفة؛وذلك أنه سقطت

بعض الحبوب على الأرض وغاصت فيها،وبعد أيام بدأ النبات في الظهور ثم نما وأصبح نباتا كاملا،ثم أخرج حبوبا من نفس النوع،ولا شك أن مثل هذا قد حدث آلاف المرات حتى تنبه إليه الإنسان،فأخذ يكرر هذا العمل وانتقل بهذا من طور جمع الغذاء إلى طور الزراعة.ومثل هذا يقال عن أمور كثيرة مشابهة.

ونرى من هنا أن إنسان الحقب المتهالكة في القدم كان هو الإنسان الحيوان،أو بالأحرى الإنسان الشبيه بالبشر،أما الإنسان المنتصب القوام،ولا سيما الإنسان العاقل،المدرك،فلم يظهر الا بعد ذلك بوقت طويل:فالانسان الذي استعمل الأدوات وتحسسها اكتشف بعض مصنوعاته دون العثور على بقاياه أو أن بعض هذه البقايا كان نادر الوجود مبعثرا.كما يبدوأن ما وجده علماء الآثار من بقايا الإنسان الصيني في (تشوكوتيان) على بعد ١٠٠كم إلى الجنوب من مدينة بكين،وكذا الإنسان القرد الذي اكتشفت بقاياه في بلدة تربنيل على مقربة من جاوه هو ما يجعل العلماء قادرين على تتبع بعض معالم التطور الذي بلغ معه الإنسان منزلة الإنسان العاقل في هذين المكانين. أما الحديث عن مكتشفات في أماكن أخرى كأوروبا مثلا ففيها فجوات محيرة تماما.ولعل هذا ما

يجعلنا نميل إلى القول بأن جنسا ادميا جديدا أو بشرية جديدة طلعت أصولها من أقاصي اسيا لم تلبث أن انقضت على "البشرية القديمة" ومحقتها.

اصطلح المؤرخون على تسمية الإنسان الأول بانسان العصر الحجري القديم،الذي عاش في العراء كلما سمح له الجو بذلك،واختبأ في الكهوف ومغاور الأرض أحيانا أخرى.اعتمد في معيشته على الصيد والقنص،وعالج استعمال حجر الصوان واتخذ منه سلاحا بعد صقله،ودبب منه الرأس،وحدد الأطراف كما اتخذ له أدوات من عظام الحيوان وقرونه،وعرف النقش والحفر والرسم،كما توصل إلى إفراغ بعض الأدوات في قوالب وأشكال معينة.

ولقد أتخذ الانسان آنذاك سلاحا ليدفع عنه ترصد الاعداء ،وأدوات تعينه على العيش .كما اتخذ لاحقا من الأصداف والاساور زينة له وحلية،ومن بعضها تعاويذ ورقى ،كما توصل إلى صنع بعض دمى بشرية الصورة انثية الشكل ليرمز فيها إلى الخصب والانسال.كما شارك في احتفالات ومناسك دينية ،وكان السحر والفكرة الدينية يصطبغان كلاهما بمسحة من الفن البدائي .كما اهتم

الانسان منذ العصر الحجري القديم بموتاه،وتأمين دفنهم وأدى بهم السحر إلى عبادتهم.

وفي مطلع العصر الحجري الحديث ،صار الانسان راعيا وتمكن من تـدجين بعض الحيوانات ،وأقبل على الارض يحرثها ويستنبتها ،وأخذ في بنـاء الأكـواخ والمنازل.وخاط ملابسه من صـوف الحيوانـات ومـن بعـض الأليـاف النباتيـة مستبدلا بها جلود الحيوانات التي كان يعول عليها في لباسه من قبل .ثـم تعلـم كيف يستخدم خامات المعـادن كالنحـاس والـذهب والقـصدير ،وخلـط بـين بعضها لاصطناع البرونز، وبعد ذلك بفترة زمنيـة عـرف (الحـصان) والعجلـة والحديد، وسخرهما في لخدمته وذلك في فترة العصر الحجري المعدني.

ومن أهم الاكتشافات من بداية الحضارة وأقدمها كلها التي طلعـت علينـا بها مدنيات الشرق الأوسط ،ولا سيما مدينة مصر وبلاد ما بـين النهـرين[٥] .أمـا الحصان فقد وصل إلينا من مناطق أبعد .أما الحديد فأن كان صنعه التقني يعود أصلا إلى الشرق، إلا أن ندرته في مناطق البحر المتوسط تجعل من العـسير جـدا

تطور هذه الصناعة هناك.والحصان والحضارة كلاهما سجلا معا تطورا جديدا في دفتر الحضارة .وتجدر الاشارة إلى غزوات جائت من الشمال :من التركستان، والقوقاس،والبلقاء أخضعت الهند وايران وآسيا الصغرى واليونان .وقد أخذ الشرق الأوسط بوطأة هذه الغزوات منذ عام ١٤٠٠ حتى أواخر الألف الثانية قبل الميلاد فزعزعت أركان الحضارات التي كانت مزدهرة منذ عام بعيد .أما في الغرب الاوروبي فقد وصلت إليه صناعة النحاس والبرونز من الجنوب والجنوب الشرقي،وعرف معهما ان ينشيء له حضارات مستقلة قامت على هذه الصنائع.ولم يكن أثر حضارات الشرق الكبرى قد بلغ الغرب باستثناء بعض المهارات التقنية؛فمن الشرق دخلت الغزوات والحضارات أوروبا مارة بوسط القارة،وذلك إبتداء من الألف الأولى قبل الميلاد .

ومن اهم هذه الغزوات وأكثرها نجاحا تلك التي حدثت في اواخر الدور الحجري الوسيط وأوائل العصر الحجري الحديث،علما بأن هناك غزوات اخرى انطلقت فيما بعد متبعة طرقا أخرى ،فبلغت مشارف البحر المتوسط والمحيط الأطلسي معا.ولا شك أنها وجدت نفسها وجها لوجه مع حضارات

اكثر تطورا ،وأقوى على المقاومة،إلا ان تزعزع أركان الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث للميلاد ،وانهيارها في القرن الخامس الميلادي يشيران إلى أن لـيس ثمة صعوبة لا يمكن التغلب عليها.

ومن هنا نرى أن عوامل تكون حضارة من الحضارات يتطلب توافر أربعـة عناصر هي:

- موارد إقتصادية يتحقق بها المزيد على ما هو ضروري للحياة.
- نظم سياسية من أي نوع كانت ،يطمئن الناس فيهـا عـلى الأنفـس والأموال.
- تقاليد خلقية يرعاها الجميع ليطرد سلوك النـاس وينـتظم، متخـذا طريقه إلى هدف يسعى الجميع إلى تحقيقه.
- متابعة للعلوم والفنون.

هذا فإن الحضارات تشترك بظواهر معا ،لكونها منبثقة عن طبـائع إنـسانية

واحدة،وتتجلى هذه الظواهر في آثار الانسان العقلية والمادية؛كاللغة والكتابة،والدين،والعلوم والآداب والفنون ،والنظم التي يقيمها الانسان لحماية الأفراد والجماعات .وتبدو هذه الظواهر واضحة في مخلفات الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة،ممثلة في المؤلفات واللوحات والعادات والتقاليد ،والمباني والمؤسسات،ومن ثم الاشخاص ودورهم في البناء الحضاري.

إن التاريخ البشري هو تاريخ الحضارات وأنه من المستحيل أن تفكر في أي شكل أخر من تطور البشرية .دون الوقوف على حضارات أمتدت عبر الأجيال إبتداءا من حضارات السومريين والمصريين القدماء والإغريق والرومان وإنتهاء بالحضارتين المسيحية والاسلامية مرورا ببروز حضارات متعاقبة صينية وهندوسية،وعبر التاريخ زودت الحضارات بأوسع نظام لهوية الشعوب وكنتيجة لذلك فإن اسباب إنبثاق وصعود وتفاعلات وإنجازات وضعف وسقوط الحضارات كان موضوع دراسات استكشافية مستفيضة من قبل مؤرخين وعلماء اجتماع وانتروبولوجيين بارزين(



الفصل الثالث :

مراحل تطور الحضارة

إن مقياس تطور الحضارة يعتمد على مدى ذلك التحسن الذي يحاوله الإنسان على ظروف حياته على وجه الأرض معنويا وماديا. ويرى المفكر نيكولاي دانيلفسكي أن الحضارات الانسانية تمر بثلاث مراحل هي:

المرحلة القديمة (مرحلة المادة السلالية " الشعوبية ")

وقد تستمر هذه المرحلة مدة طويلة تصل في بعض الاحيان إلى آلاف السنين وتكون الشعوب خلال هذه المرحلة في حالة ركود تام لا تقدم للبشرية شيئا.

المرحلة المتوسطة :

وهي مرحلة تخرج فيها الشعوب من حالة الركود ،تبني فيها قوتها الذاتية في المجالات الثقافية والسياسية وتستجمع جميع قواها لكي تستعد للمرحلة التالية التي يبدأ فيها الإنتاج والعطاء.

مرحلة الحضارة :

وهي مرحلة يكتمل فيها نضج الشعوب فتصل إلى ذروة الإنتـاج والعطـاء على الصعيدين الفردي والجماعي .غـير أن دانيلفـسكي يـرى أن هـذه المرحلـة قصيرة نسبيا لا تتجاوز الأربعة قرون او السته .

ويرى شبنجلر في كتابة (انهيار الغرب)أن الحضارات تمر في أربعـة مراحـل هي :

المرحلة الإبتدائية :

وهي مرحلة شبيهه بالمرحلة التي تحدث عنها دانيلفسكي فالشعوب تكـون فيها خاملة راكدة غير منتجة لأي من المظاهر الحضارية ،فهي مرحلة (لا تـاريخ لها)عنده.

مرحلة الثقافة المبكرة :

وهي مرحلة يسود فيها نظام الإقطاع ،حيث المجتمع الزراعي ،الذي يحـتم

نشوء صراعات بين الأرقاء وملاك الارض فيبدأ النظام بالانهيار حيث تحل محله المدن والدول الارستقراطية.

ومع ذلك الانفصال ساد كل من الشرق المسيحي والغرب المسيحي في طريقة وتحول إلى حضارة قائمة بذاتها .

٣- مرحلة الثقافة المتأخرة:

وفيها تزدهر المدن وتنشأ الطبقة البرجوازية التي تتسلم مقاليد الأمور وتبدأ في كنفها مرحلة الإنتاج والعطاء في شتى المجالات وخاصة الفكر والفن والموسيقى.وفي هذه المرحلة يتحول الإقتصاد من اقتصاد إقطاعي زراعي إلى اقتصاد رأسمالي صناعي ويفقد الريف أهميته لصالح المدينة.

٤- مرحلة الحضارة:

وتبدأ هذه المرحلة - بعد قيام حروب عدة تنتهي بقيام (الدولة الكبرى) التي تمد سيطرتها على العالم المتحضر،ويتولى الحكم فيها شخص واحد.ولدى

ظهور هذه الدولة تنتهي الحروب بينما كان يطلق عليها دول،وتتخذ الحروب شكل صراع داخلي ومنافسات شخصية فقط،وبهذا يطلق شبنجلر على هذه الفترة اسم(سلام روماني).

أما الفيلسوف والمؤلف الانجليزي(آرنولد توينبي) فيرى أن نشوء الحضارة لا يعزى إلى تفوق جنس بشري معين أو إلى ظروف جغرافية ملائمة،بل يعزى إلى مشاركة أجناس مختلفة ضمن ظروف قاسية جدا،بحيث تشكل هذه الظروف تحديا لمجتمع ما،فيحاول هذا المجتمع ان يواجه هذا التحدي ويرد عليه من أجل البقاء أو المحافظة على مستوى وجوده.فإذا ما واجه التحدي بنجاح وتغلب عليه ازدادت قوته الداخلية وقدرته الخلاقة إلى درجة كبيرة بحيث يؤدي ذلك إلى مولد ما يطلق علية عادة اسم(الحضارة).ويستهدف توينبي بأمثلة على هذا بالحضارتين المصرية والسومرية،فيعزو نشأة كل منها إلى تغيرالمناخ الذي حول الارض العشبية في جنوب اسيا وشمال افريقيا إلى صحراء مجذبة يتعذر على سكانها الاستمرار في حالة الصيد.اما من بقي هناك من الناس وتكيف مع الجفاف فقد عرفوا بالبدو،أما أولئك الذين واجهوا ذلك التحدي

برحيلهم إلى وادي النيل وبلاد الرافدين حيث كـافحوا عوائـق البيئـة الطبيعيـة وتغلبوا عليها وسخروا لاغراضهم فقد نجحوا في تكوين الحـضارتين المـصرية والسومرية.كما استشهد توينبي كذلك بمثال اخر للتـدليل عـلى صـحة نظريتـه موجود في الحضارة الصينية التي لم تنشأ أصلا في وادي يانغ تشي الخـصيب بـل نشأت في وادي النهر الأصفر بمستنقعاته وفيضاناته.

ومن الامثلة على الحضارات التي تم حصر مداها الزمني والجغرافي والتـي قامت ونجحت واستمرت حضارة الفراعنة في وادي النيل وحضارة الحثيين في اسيا الصغرى ومنها ما اتسع مجاله وطال مداه في التقدم والقوة حتى مـد رواقـه على بقاع واسعة وابتلع حضارات صغيرة كثيرة وتحول بذلك إلى دولة واسعة أو دولـة عالميـة،ثم اخـذت في الـضعف والتـدهور كـما في الحـضارة المـصرية والسومرية،والاغريقية والرومانية.



الفصل الرابع :

مظاهر اسباب زوال الحضارة وتدهورها

تخضع الحضارات في تطورها لقانون واحد ثابت،فالحضارة تنقسم إلى أدوار هي كالفصول الاربعة بالنسبة للسنة:فهي تبدأ بربيع،وتعلو وتصل إلى القمة في وقت هو صيفها،ثم تبدأ في الإنحلال ويكون لها عصر اضمحلال يناظر الخريف بالنسبة إلى السنة،ثم يأتي الشتاء بمعنى إن الحضارة يفنى كل ما فيها فتموت.

فبرأي شبنجلر أنه ولدى بلوغ الحضارة شكلها النهائي يختفي روح الخلق والابتكار وينصرف الناس إلى الاهتمامات المادية حيث يكون هذا بداية انحلال وانهيار الحضارة.أما ارنولد توينبي فيشير إلى أن لب التدهور هو الفشل المطرد في الرد على التحدي الخارجي.فاذا ما ضعفت القوة الخلاقة والتي تتمثل عادة في الأقلية الموجهة التي تقود المجتمع فإن هذه الأقلية تفقد جاذبيتها وسحرها على الجماهير ومن ثم فإما أن تتحول إلى سلطة تعسفية أو إلى سلطة ضعيفة

مقلدة غير مبتكرة.وعلى كلا الحالتين فإن الجماهير تتخلى عن تلك الأقلية وتأخذ موقفا معاديا لها.وهكذا تحدث ثغرة في الوضـع الـسياسي وتـصدع في الوحـدة الإجتماعية،وهذا هو بداية الانهيار الحضاري الذي يقترن بالعقم الذهني وعدم القدرة على الخلق والابتكار والذي يؤدي إلى انحلال الحـضارة بعـد ازدهارهـا فإما أن تفني تماما – كما ذكر دانيلفسكي وشبنجلر – وإما أن تتوقف حتى تعاود دمدمتها الحضارية من جديد كما ذكر توينبي.

وفي احيان كثيرة كانت الامكانات لنمو الحضارة محدودة،فلم يتسع المجـال إلى للنمو المطرد،فوقف عند مستوى معين،وفي كل نـواحي الأرض نجـد بقايـا حضارات قامت وسارت شوطا ثم توقفت.واذا توقف سير الحضارة فلا بد أن تتقهقر وقد تتلاشى.ومن الحضارات التي وصلت إلى مستوى معين ثم توقفت وتدهورت:الحضارة القعـصبية في الـشمال الافريقـي في اقلـيم الجريـد جنـوبي تونس،فهذه حضارة وصلت إلى مستوى الزراعة المنظمة وبناء البيـوت وصـنع الفخار ومـا إلى ذلـك،ثم تـدهورت وتوقفـت وضـاعت.وتـسمى مثـل هـذه الحضارات بالحضارات المجهضة ولا نعرف على وجه التحديد سبب اجهـاض

هذه الحضارات.فالحطام الذي تخلف عنها لا يعين على الوصول إلى هذه الأسباب

وكان رأي آرنولد توينبي في أن كل دولة عالمية تتحول إلى حضارة عالمية لأن الكيان السياسي لدولة واسعة لا بد أن يتفكك وتبقى الحضارة التي تنشأ داخل حدودها وتجاوز تلك الحدود.وهنا يبدأ تدهور الحضارة كما في الحضارة الغربية اليوم؛فالغرب المسيحي قد قطع دور الدولة العالمية ودخل في دور الحضارة العالمية وذلك ايذانا بضعفه وتدهوره ثم زواله.

إن هذا التدهور – عندما تصل الحضارة إلى حضارة عالمية يأخذ زمنا طويلا يمتد قرونا لأن أهل الحضارة تضعف قواهم ويفقدون القوة على المحافظة إلى ما وصلوا إليه،ولكنهم يحاولون مرة بعد اخرى إعادة الماضي دون جدوى،وشيئا فشيئا تجهد حضارتهم أو جماعاتهم وتتحول إلى حضارة متحجرة ثم تنتشر حضارة عالمية أخرى تمد سلطانها على بلاد الحضارة الراكدة أو المتحجرة وتفيد من تراثها ولا يبقى من الأولى إلا ما يبقى من الحيوان الميت وهي الأحفورة

ولهذا تسمى هذه الحضارات حفريـات.هـذا،وليس مـن الـضروري أن يكـون ضعف الحضارات نتيجة لفساد الناس أو لهبوط هممهم،غـير أن القـوة الدافعـة للأمة تتراخى وتضعف. ويـشير ابـن خلـدون ت(٨٠٨ هــ) إلى أن الأمـة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء.وفي هذا يقـول:"والـسبب في ذلـك – والله أعلـم – مـا يحـصل في النفـوس مـن التكاسـل إذا ملـك أمرهـا عليها...فإذا ذهب الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحـوال وكانـت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهـا تنـاقص عمرانهـا وتلاشـت مكاسـبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم

وعندما تنحل وحدة الحضارة فانها تسرع في خطى التفكك ايـذانا بـالأفول والزوال،حيث يهاجمها الأعداء بالجملة وعلى الغالب يكون هؤلاء الأعداء أقـل منها حضارة ولكنهم أقوى عسكريا،فتقوم على أرضـها حـضارة جديـدة هـي مزيج من حضارة الغزاة الجدد مع بقايا الحـضارة المنـدثرة تمامـا كـما حـدث في حضارة الرومان عندما انحلت وذهب أمرها،ثم قامت عـلى اساسـها حـضارة الغرب الاوروبي.كما فعل الرومان بالنسبة للحضارة اليونانية قبلهم.

إن الحضارات عندما تـزول لا تـزول في الحقيقـة،وإنما تتحلـل مثـل أوراق الشجر وتهضمها الارض لكي تبني بها نباتا جديدا،فإذا بدا لنـا أن حـضارة قـد بادت فلتذكر أن الحضارات لا تفنى وإنما تموت وتتحلل ويظل الأمر على ذلـك حتى يرث الله الأرض ومن عليهـا وهـو خـير الـوارثين لا تفنـى، وإنـما تمـوت وتتحلل ويرثها غيرها من الأمم.





الفصل الخامس:

دراسة ما بين وحدة الحضارة وتعددها

إن من المسلم به ان تكون من حضارات متعددة لا حضارة واحدة،إذ من الواضح أن تحرك البشر في طريق التحضر قد تم في وجهات كثيرة وفي ان واحد،وهذا يعني أن هناك أكثر من مهد لحضارة البشر فمسيرة الحضارة ابتدأت وفي وادي النيل،وبلاد الرافدين،وحول اليانغ – تشي،وحوض نهر السند وغيرها من أوقات متقاربة وسيرة متنوعة،فمنها ما زاد في سرعة تقدمة،ومنها ما توقف مؤقتا،ومنها ما توقف نهائيا،ومنها ما تراجع القهقرى.

ويبدو أن الجماعات البشرية متباعدة المنازل توصلت إلى الاكتشافات الحضارية الأولى في أوقات متقاربة،دون أن يكون بينها اتصال يؤدي إلى النقل والاقتباس،وبمرور الزمن وتكاثر البشر وتقدمهم في طريق الحضارة اتصلت الحضارات ببعض واخذ بعضها عن بعض فازداد التقدم الحضاري واتسع

مجاله ومداه().

وليس ثمة ما يدعو إلى رفض رئاسة هذه التعددية وقيادتها. ان النظرة نحـو تطور الوحدة الحضارية والمستوحاة جذورها وبخاصة مـن الغـرب في مدلولـه الواسع،لم يتبين إلا من عهد قريب.إلا انه من الضروري عـدم الأخـذ بالنظريـة الضيقة التي تقول بتاريخ واحـد للحـضارة؛فمن المـسلم بـه اليـوم بـين علـماء الأجناس البشرية والمؤرخين والعلماء الإجتماعيين أن كل جماعة بشرية تقوم على شيء من النظام،لها مدنيتها الخاصة؛حتى أن للأقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها؛ففي ماضي البشرية وتاريخها السحيق،حضارات عديدة لكل منهـا مجموعـة من الافكار،والنظم السياسية،ومستوى من العيش المادي والتقني،وطاقات على الانتاج وقدرة على تأمين العلائق الإجتماعية على اخـتلاف مظاهرهـا:الدينيـة، والفكرية والفنية.

ومن هنا نرى أن جل الحضارات ودونما استثناء قد عولت على مـصنوعات ومحاصيل جاءتها من الخارج.**ومن الأمثلة كل ذلك ما استعمله الانـسان للزينـة**

والحلي، مثل اصداف مقاطعة التورين – في العصر الحجري القديم – والكهرمان المستورد بعد ذلك بكثير من شواطئ بحر البلطيق،والحديد الذي اتخذت منه أدوات الصياغة وفي مصر وبلاد ما بين النهرين.وصناعة البرونز التي اقتضت كميات وافرة من القصدير جرى شحنها إلى بلدان الشرق الأدنى واقطاره.فالتبادل التجاري كان إذا سببا في اقامة الاتصالات المباشرة.والمهم في هذا كله أن هذه الاتصالات والمبادلات التجارية تمت دون أن تمس بشكل محسوس أصالة كل هذه الحضارات، ولعل التاجر والبحار الذي نقل تلك السلع كان لا يعير انتباها لنقل المهارات الفنية والتقنية والتعاطي بالأمور الفكرية والروحية.

ومن هنا نرى ان الناس الذين عاشوا في ظل الامبراطوريات القديمة قد راودهم الشعور بأن حضارة ما مشتركة تتحقق تساعد الجميع على العيش معا بسلام،ولعل المحاولة القصيرة الأمد والتي تمت على يدي الفاتح المقدوني والتي لم يقم من يمارسها من جديد سوى الامبراطوريةالرومانية في القرن الثاني للميلاد كانتا أمثلة على ذلك.

إن التاريخ القديم يعـج بالامبراطوريـات،كما يعـج بأخبارهـا ومـصائرها وارتفاعها وهبوطها إلى ذلك مما يدخل في صميم التطورات السياسية.وكل هذه الامبراطوريـــات التـــي طلعـــت عـــبر التـــاريخ:مـــن مصرية،وآشورية،وفارسية،ومقدونية وأخيرا الرومانية كان يبـز اللاحـق منهـا السابق،ويدخل في روع المستقريء أن نقطة الانطلاق كانت منـه،وأن الانـدفاع كان في كل مرة يقترب أكثر فأكثرمن الهـدف المـشترك الـذي وضـعه الفـاتحون نصب أعينهم،ألا وهو الامبراطورية الشاملة وكان بهذا الجهد الموصول لتحقيق هذاالهدف السامي تعبير عن نزعة جاش بها قلب الانسان الا وهو تحقيق وحدة شاملة ليست جغرافية فحسب بل بشرية أيضا

ومن الملاحظ هنا أن المنتصر دوما يشعربان حضارته هـي التـي أدت بـه إلى النصر المبين وأنها خير الحضارات وأمثلها،ويرى فيهـا سر تفوقـه وتعاليـه،فهو دائم الحرص عليها يصونها من كل عبث وانفعال ويحتفظ لنفسه بالمنافع الجزيلة التي أمنتها له،غير أنه لم يحاول يوما أن يصطنع المغلوب على أمره أو أن يتمثله أو يتقرب منه، وعلى الرغم من ذلك فلا يخلو الأمر من مساكنة الغالب للمغلـوب

وتعايشهما معا زمنا طويلا من تفاعلهما معا وانفعالهما بمؤثرات وعوامل مشتركة؛فالبرغم من تمسك المصريين مثلا وتشبثهم بعناء بتقاليدهم الموروثة إلا أنه كانت تظهر عليهم معالم هذا التفاعل المتبادل.إلا أن الحصول على نتائج ملموسة جزاء هذاالتفاعل يتطلب وقتا طويلا الأمر الذي لم يتوفر لكثير من هذه الامبراطوريات التي كانت تتهاوى وتنهار سريعا.

لقد فكر الاسكندر المقدوني بهذا مما جعلة متفردا بين كبار الفاتحين ومن المفيد ملاحظة أن هذه الفكرة لم تخطر على باله في بدء حملته على الفرس بل نشأت عنده إبان الفتح والحملة العسكرية ومن هنا نرى إخلاصه في أن الفكرة تبدت له كوسيلة من وسائل التغلب على المقاومة العنيدة التي لقيها عند خصمه.إلا أن حنق رفاقه وتململهم من صعوبة المطلب،وموته فجأة،حد من التجربة وانتقص من إمكانيات تنفيذها بالزخم المرتجي والمدى المرغوب،وقد قام بين خلفائه،من عاود الفكرة ورأوا فيها وسيلة مثلى لترسيخ ما أقاموه من سلطان سياسي وعسكري فعملوا على تدعيمه في نطاق الوحدة الروحية.

ومثال آخر نراه في روما التي أطلت علينا بامراطورية تمتد أطرافها من الشرق إلى الغرب وكانت من أقوى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم وأطولها مدى.وقد أوشكت أن تحقق من ضمنها وحدة الحضارة.غير أن روما لم تسع إلى ذلك،بل فرضتها عليها عوامل عديدة ودوافع متنوعة:ادارية وسياسية وعسكرية واقتصادية،حتى ودينية فالمسؤولون في الامبراطورية الرومانية لم يعتنقوا الفكرة،ولم يماشوها إلى متأخرين جدا بعد أن اتضح لهم فشل فكرة الامبراطورية.الا أن انهيار دولتهم حطم هذا الأمل.

إن هذا كله قد أسهم في نماء التراث البشري المشترك،وهكذا بداالعالم القديم،وكأن قوة خفية تحركه وتدفعه من حيث لا يدري نحو وحدة تتجدد دهرا بعد دهر.فالحضارات تتعاقب وتتهاوى بعد أن تحاول كل منها ان ترفع درجة أعلى من سابقتها،صخرة الوحدة التي آل إليها أمرها فترةمن الدهر،ولكن لا تلبث ان تهوي الصخرة إلى الأرض محطمة كل شيء في انهيارها المدمر.كانت الأمم تتصارع في ميادين الحرب والسياسة وما إلى ذلك تتصارع في ميادين الثقافة والحضارة كذلك؛صراعات مستمرة وعنيفةذلك أن ثمرات

الحضارات والثقافات تميل بطبعها إلى الانتشار؛لأن النـاس إذا وجـدوا مبتكـرا جديدا سواء في ميدان الماديات أم في ميدان المعنويات مالوا إلى الحصول عليه ثم تقليده ومحاكاته،وبـذلك يـدور صراع في أذهـان النـاس ومجالـسهم يفـوز فيـه الأحسن أو الاقرب إلى العقول والقلوب.ومن الأمثلة حضاريا ماديا عـن ورق البردي المصري الذي ظل قرونا طويلـة مظهـرا مـن مظـاهر التفـوق المـصري الحضاري في الدنيا حتى الكاغد من الصين،فأخذ الـبردى المـصري يختفـي مـن الأسواق،وحل محله الورق الذهبي الذي جـود العـرب صناعته،وصـارالورق ينتشر في الدنيا كلها كمظهر لغزو حضاري لامة العرب في العصور الوسطى⁽

ومن الأمثلة عن الغزو الثقافي الفكري كما حدث عند قيـام دولـة الإسـلام وخروج العرب من جزيرتهم لنشره في نواحي الأرض،فقد قامـت الـدعوة لـه على أساس القران،والقرآن مكتوب بلسان عربي مبين،فانتشر الاسلام فانتشرت اللغة الغربية معه حتى أن هذه اللغة – وقرب نهاية العصر الأموي - كادت أن تقضي تماما على كل اللغات التي كان الناس يتكلمونها⁽.ومـع الاسـلام واللغـة العربية أخذت الشعوب التي اسـتعربت تقاليـد العـرب وأخلاقهـم وعـاداتهم

وأمثالهم وأساليب تفكيرهم، فأصبحوا مسلمين وعربا في ان واحد.

ولم يقم العرب بوضع أي سياسة لنشر العربية،بل كان القـرآن الكـريم هـو دافع الناس الأكبر إلى تعلمها،ثم تكلفت اللغة العربية ببقيـة التحويـل اللغـوي بفضل ما امتازت به من فضائل داخلة في صلبها وتركيبها، أي ان الغزو الثقـافي كان في الحقيقة عملية انتشار ثقافي دينـي متمثـل في الاسـلام والقرآن،ولغـوي وفكري متمثل في انتشار اللغة العربية وكتابتها وآدابها شعرا ونثرا.

ومنذ بدايات الاستعمار تحول الانتشار الثقافي إلى عملية فرض فكري متفرع عن الغزو السياسي وملازم له.فانتشرت لغات الدول المـستعمرة بـين شـعوب الدول المستعمرة ومع الغزو اللغوي صارت عملية الغزو الفكري فاتخذت هذه الشعوب آراء الدول المستعمرة وآدابها إلى جانب لغتهم،وأصبح من يريد التعلم من أهل هذه البلاد ملزما بدراسة لغة الغالبين اذ لا لغة تصلح للكتابة أو التعبير عن الأفكار غير لغتهم

ومن هنا نرى أن اللغات هي أكبر وسائل الانتشار أو أكـبر وسـائل التفـرد

الثقافي.وكلما كانت اللغة أصلح للتقبل كان مجال انتشار الثقافة خاصتها أوفر شعوب الأرض علما وثقافة وتقنية،غير أنهم لم يوفقوا في توسيع مجال غزوهم الثقافي بسبب صعوبة تعلم لغتهم.ولذلك فإن الأمن الحضاري الالماني كان محدودا،وكذلك كان الأثر الروسي والياباني.بعكس ما صاحب اللغة العربية والفرنسية والانجليزية من نشر واسع في ثقافات هذه الشعوب.

وبعد، فإن الصراع الثقافي الحضاري مستمر،وهو في عصرنا صراع اقتصادي صناعي في الغالب، ولكن الاقتصاد والتجارة والصناعة مظاهر حضارية ومن ثم فإن صراعا صراع ثقافي في النهاية، ويكفي ان نشير إلى ما أحدثه التطور التقني في عصرنا هذا من تفوق للغرب وحضارته ولغاته.ومع أن السياسة تستطيع أن تحصل على نتائج باهرة في ميدان الصراع الحضاري فإن العبرة ستكون في النهاية بصلاحية العنصر الحضاري الوافد وقبول الناس له.فان الناس لا يتحضرون بالقوة ولا يأخذون مظاهر الحضارة بالقهر، بل يكون ذلك بنسبة ما يلقى الأمر من قبول في نفوسهم وبما ينتظرون من فوائد من ورائه.



الفصل السادس:

جذر الحضارات وتسلسلها

في حضارات الشرق القديم،الحضارة اليونانية والرومانية حضارات العصور الوسطى،الحضارة العربية الاسلامية عصر النهضة الاوربية الحديثة.

إن كل حضارة من الحضارات الكبرى والصغرى طبقات يلي بعضها بعضها،فكل منها يخفي تحته حضارة سابقة له،ثم أخرى وهكذا حتى بداية قصة الحضارة في مكان ما.ومن العسير ان نصل إلى هذه البداية،ذلك أن البدايات صراع طويل يسبق استقرار جماعة ما في مكان ما واتخاذها اياه وطنا.

لذا فإننا نرى أن الحضارة العالمية،أشبه ما تكون بأسرة لها آباء،وللآباء أجداد وكذلك لهم أبناء وحفدة،وكأن كل حضارة أسرة حضارات يترابط بعضها مع بعض بروابط البيئة الجغرافية والتراث الفكري والروحي والمادي الذي تتلقاه كل منها من سابقتها.ومن الجدير ذكره أن الحضارات التي تتوالى

إلى جماعة واحدة تأخذ كل منها في النهاية طابع هذه الجماعة الحضاري.

فالقول بأن البشر لم يعرفوا غير حضارة واحـدة بـدأت منـذ فجـر التـاريخ واتصلت إلى يومنا هذا،وأن كل شعب حمل مشعلها في فترة من الزمن قول غـير سليم؛ذلك لأن الحضارات مشأت في نواح عديـدة مـن هـذه الأرض في أزمنـة متقاربـة أو متباعـدة دون أن تكـون هنـاك صـلات أو تـأثيرات متبادلـة بينهـا بالضرورة

لقد نشأت أقدم الحضارات ونمت فيما يطلق عليه بلاد الشرق القـديم.وأن أهله هو أول من وضع أسس المدنية الانسانية.أن فضل المدنيات القديم لم يقف عند تقدم أهله في مضمار العلوم فحسب،بل كانوا النبع الذي استقى منه غيرهم من الأمم القديمة وكانت هذه المنطقة كذلك مهد الديانات السماوية الثلاثة.

وفيها عاش الأنبياء:موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام حيث بشروا بـين أقوامهم بالحق،ولا تزال كتبهم السماوية وأقوالهم وأفعالهم خير ما يحرص عليـه مئات الملايين في جميع بقاع الارض.

ولمعرفة قيمة ما قدمه الشرق يكفي أن تتطلع على تاريخ أي دين وفلسفة،أو علم او فن لترى أن أصول أكثرها يرجع إلى تلك المنطقة بالذات.وتضم حضارة الشرق القديم:الحضارات الناشئة على ضفاف النيل،وكذلك التي نشأت فيما بين النهرين،وحضارة الفينيقين والحضارات التي نشأت في الشرق الأقصى وبخاصة في الهند.إن أهم حضارتين في العالم هما حضارة ما بين النهرين،وحضارة مصر،وأن جميع ما ظهر من حضارات وبخاصة في اوروبا وغربي آسيا وشمال أفريقيا استمدت من واحد منها أومن كليهما.

إن الحضارة الغربية الاوروبية الغربية هي الصورة الأخيرة لنبات حضاري طويل العمق بعيد الجذور ولد ونشأ في حوض البحر الأبيض المتوسط بادئا بالحضارة المصرية القديمة ثم انتقل إلى اليونان حيث نشأت الحضارة الهيلينية(الاغريقية)،وعلى أساسها قامت الحضارة الرومانية التي عممت هذه الحضارة ووسعت نطاقها حتى شملت ايطاليا وحوض البحر الابيض الشمالي وامتدت إلى حوض نهرالراين وحوض نهر البو وبريطانيا،وفي هذه المرحلة اصبحت حضارة عالمية قامت في ظل دولة عالمية هي الدولة الرومانية،وتلك

هي المرحلة الاخيرة في تطـور حـضارة البحـر الابـيض المتوسـط،حيث بـدأت عنـدما وصـلت إلى هـذا الحـد بالتفكـك والانهيار،ولعـل هـذا مـا جعل(شبنجلر)يقول ان الحضارة الغربية وصلت إلى أوجها ولم يعد لها منـاص من الانحدار.

لقد تمكن الجرمان من اختراق حدود الدولة الرومانية مـن الـشمال.وهنـاك وجدوا فيها مرتزقة أتت بهم الدولة من الشرق(وكانوا يحملون معهـم ديانـاتهم الشرقية واخذوا ينشرونها – ولقيت هذه الديانات مع المسيحية بـشتى مـذاهبها قبولا من أهل الحدود ومن جـاورهم مـن الجيرمـان).فلقـد أتـت بهـم الدولـة وجعلتهم عبيدا يعمرون الأرض على أثر خرابها نتيجة غزو هانيبال والحـروب مع الجيرمان.

اختلط الجرمان مع هؤلاء المرتزقة ومع أهل الحدود الشمالية وكونـوا جميعـا ما يسمى بطبقة البرولتياري الكادحة(الداخلية).وعلى الحـدود الـشمالية حيـث الجيرمان.وكذا مع الحدود الشرقية حيث الصاقلية.كان يتوغل المبشرون حيـث

شكلوا معهم البرولتياريا الخارجية.وتلك(البرولتياريا)لقيتا تأيدا من الكنيسة.فتشكلت من ذلك كله القوة الجديدة التي ستسود بلاد الدولة الرمانية وترث حضارتها لتبني عليها حضارة جديدة رومانية جرمانية مسيحية شكلت ما يسمى بحضارة العصور الوسطى

واذن فالحضارة الغربية الراهنة هي الصورة الأخيرة،التي وصل إليها تطور حضاري بعيد؛ فتحت حضارة العصور الغرب الراهنة نجد حضارة العصور الوسطى،وتحت هذه نجد الرومانية،وتحتها الحضارة الاغريقية،وتحتها حضارة مصر القديمة:طبقات بعضها فوق بعض.

وإلى جانب تكون هذه الحضارة من طبقات،نجد ان لها فروعا امتدت اليها وراوفد اغتذت منها. ولكل فرع روافد حضارته الخاصة به داخل النطاق الغربي العام،وتتجلى هذه الفروع والروافد في الدول العديدة التي قامت في نطاق كل منها شخصيتها وطرازها المتميز.فالفروق جسيمة بين حضارة الفرنجة في فرنسا وحضارة الانجلوسكسون في انجلترا،وحضارة التيوتون في

المانيا مثلا،ولكنها تدخل كلها تحت نطاق الحضارة الغربية.

وينطبق هنا كلامنا عن الحضارة الغربية على الحضارة الشرقية التي تتمثل في الصقالبة،وهم الروس،ومن ينتمي إلى الشجرة الصقلبية من أجناس شرق اوروبا من اليوغسلاف،والبلغار والصرب ومن إليهم واجناس غرب آسيا وهم الكرج(أهل جمهورية جورجيا السوفيتية)والأرمن وأهل القوقاز،فهذه الحضارة كانت في الاصل شقيقة للحضارة الغربية الكاثولكية(فكلتاهما بنت المسيحية والحضارة اليونانية والرومانية)ثم اتسعت الهوة بينهما وسارت كل منهما في طريق ديني لغوي ثقافي.

لقد كانت نقط الخلاف بينهما في اول الامر دينية أو مذهبية،بدأت باختلاف الرأي حول طبيعة السيد المسيح،وظهر الخلاف بشكل واضح وحاسم في اتجاه الكنيسة الشرقية والأرثوذكسية إلى التخلي عن تقديس الصور والتماثيل الدينية على اعتبار انها زموز للعقيدة،في حين كانت الكنيسة الكاثوليكية ترى أن ذلك أساسا من أسس العقيدة.وقد حدث ذلك في القرن التاسع الميلادي ثم استمر

الانشقاق المذهبي بينهما حتى اصبحت كل كنيسة منهما مذهبا قائما بذاته،وتم الإنفصال الكامل بين الكنيستين في عام ١٠٥٤م،ومع ذلك الانفصال ساد كل من الشرق المسيحي والغرب المسيحي في طريقة وتحول إلى حضارة قائمة بذاتها.

لقد نشأ عن هذا الانفصال إن تحول الشرق المسيحي إلى عالم مسيحي حضاري له شخصيته وطريقته في الحياة ونظمه في الحكم وهو ما نراه في روسياوفي بلاد شرق اوروبا.وهذه الحضارة المسيحية الشرقية قامت على أساس من حضارات أخرى قامت في المنطقة من قبلها،كالحضارة الاغريقية،وقبلها حضارة الحثيين،وهذه الحضارات هي التي اعطتها طابعا خاصا مختلفا عن شقيقتها الغربية مع أن كلتيهما مسيحية.

أما الحديث عن حضارة الهند،فتلك حضارة يبدو انها لم تكن أصلية،أي أنها في أصولها البعيدة لم تنشأ على ضفاف أنهار الهند يبدو أنها لم تكن أصلية،أي أنها في اصولها البعيدة لم تنشأ على ضفاف أنهار الهند الشمالية،بل قامت على اساس من عناصر من الحضارة السومرية نقلت إلى هناك،ونمت في البيئة الهندية،ثم

تأصلت هناك وازدهرت المرة تلو الأخرى، وصارت من حضارات التاريخ الكبرى.

لقد قامت حضارة الجوبتا(ازدهرت في الفترة ما بين ٣٧٥- ٤٧٥ق.م)على عبادة هندية اصيلة تدور حول آلهة اسطورية وتدعو إلى مبادئ أخلاقية قريبة من تلك المبادئ التي كانت تدعو إليها الديانة البوذية.فحلت بذلك محلها.

فلقد كانت البوذية في الأصل ديانة هندية،لأن بوذا نشأ في شمال الهند (٥٦٣-٤٨٣ق.م.)غير أن هذه الديانة انتشرت في كل وسط آسيا وشرقها ،وأخذت مذاهب شتى في كل ناحية وصلت إليها .فقد كانت البوذية في أول أمرها ثورة على الكهان الذين اتجهوا إلى السيطرة على عقول الناس ،فذهب بوذا إلى الدعو إلى الفضائل والتخلي عن الدنيا والوصول إلى الكماليات ،ثم إلى عالم السعادة الروحية والنفسية عن طريق السلوك الحسن وتصفية القلوب، تصاحب ذلك عبادات وطقوس يقوم بها ناس مختارون من اتباع بوذا ثم من خلفائهم، وما لبثت البوذية نفسها إلى أن وقعت تحت سيطرة الكهان وما

ابتدعوه من عبادات تقام في معابدهم ،فقامت دعوة جوبتا للقضاء على ذلك كله وأقامت ديانتها التي عرفت باسم الهندوسية وتحولت إلى رابطة اجتماعية وحضارة وقوة سياسية أي أن الجماعة،أو الحضارة الهندوسية،قامت على أنقاض الجماعة أو الحضارة البوذية الهندية.

وهذه الحضارة الهندوسية – أو حضارة الجوبتا– قضت عليها بدورها قبائل الهون التي اجتاحت الهند ووسط اسيا كما اجتاحت أوروبا . وقد كان عنف غارة الهون على الهند بالغ الشدة حتى زعزعت كيان المجتمع فيها وعمتها الفوضى أواخر القرن الخامس الميلادي،وظلت هذه الفوضى تضرب أطنابها على الهند حتى أوائل القرن الثامن الميلادي.وفي ذلك الحين دعا "شانكارا" إلى مذهبه الديني الفلسفي الذي قامت عليه الديانة الهندية التي لا تزال سائدة إلى اليوم .وقد عاش "شانكارا" وعمل وبلغ أوج نشاطه أوائل القرن الثامن الميلادي

ولذلك نجد أن الحضارة الهندية قامت على حضارات أقدم فأقدم،تتوالى

الواحدة منها فوق الأخرى .ومن الملاحظ أنها (حضارات الهند) المتوالية أخذت في النهاية طابع حضارة الفيدا الأولى وهي اول ما عرف في الهند من حضارات ،وهي القاعدة التحتية التي قامت عليها الحضارة البوذية والجوينية والهندية بعد ذلك.

ويبدو ان اتساع شبه الجزيرة الهندية ،وتباين البيئات الطبيعية والجغرافية قد فرض أسسا مشتركة على جميع حضارات الهند .فكلها لم تكن حضارة عمل بقدر ما كانت حضارات تأمل وسكون ؛وقد كان هذاالتفكير التأملي يتناقض مع نفسه، فالتفكير التأملي في الهند يتجه إلى الزهد في الدنيا ويهون من شأنها ،لكن هذا التفكير ذاته يكاد يخلو من العنصر الإنساني ؛فهو لا ينكر قيام فوارق شاسعة بين الطبقات ؛فهناك ناس متميزون على غيرهم يتمتعون بخيرات البلاد ،وهم متبطلون يخدمهم الناس كأنهم فوق مستوى البشر،وتلى هذه الطبقة العالية طبقة أخرى من الناس كل منها اقل مقاما من التي فوقها حتى نصل إلى المنبوذين وهم في مرتبة أدنى من مراتب البشر، وهذه الطبقات متحاجزة متحاجزا بالغا ؛فالبرهمي مثلا لا يجوز له أن يصاحب من هم في طبقة دون

طبقته،فضلا عن المصاهرة أو الاشتراك في العمل ، ويبلغ الامر أن المنبوذ إذا مر ظله على ملابس البرهمي كان على البرهمي ان يغير ثيابه وينزل ما يشاء من العقوبة بالمنبوذ،ومع هذا فالبقرة المقدسة لا تؤذى أو تهان أو أن تذاذ عن موضع

أما بالنسبة للحضارات الصينية ،فالتمهيد لهذه الحضارات كان طويلا جدا، فعمر الحضارة الصينية يرجع ألى ألفي سنة، ولكن الصين لم تتوحد في دولة واحدة يحكمها ملك واحد إلا في عصر أسرة شانج أدين (١٧٨٦-١٢٢٣ق.م.) أي في نفس الوقت تقريبا ،التي قامت فية الدولة المصرية الوسطى التي بدأت بالأسرة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٦ق.م.) وهنا، نجد كما هو حال الهند ،أن الواعد الحضارية والمادية والمعنوية التي ستقوم عليها كل حضارات الصين قد استقرت على نحو ما في هذا التاريخ ،فنجد الصينيين في هذا العصر – ورغم اختلاف أصولهم– ينظرون على أنفسهم على أنهم هم الشعب الوحيد الجدير بالاحترام والتقدير على وجه الارض.وكل من عداهم همج لا قيمة لهم ولا ينبغي أن يطأوا أرض الصين إلا بإذن وحراسة، وإلى أمد

وجيز وغرض محدد. والامبراطور هو رأس كل شيء في الدولة: رئيس المقاتلين ورئيس الكنهة يعاونه في الحكم حكام ونبلاء وحكام اقليميون هـم في الحقيقـة سادة عسكريون ونبلاء اقطـاعيون في ولايـاتهم،ولهم عـلى النـاس حـق الحيـاة والموت، فكأنهم سادة الحرب الذين ظلوا يسودون الصين في ظل الاباطرة إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى. ووظيفة الدولة الرئيسية هي جمع الـضرائب ،وكـل سيد حرب حر في التصرف فيمن يحكمهم شريطة أن يقدم القدر المتفق عليه من المال للامبراطور في العاصمة تشنج تشاو في مقاطعة هونان.

كانت الديانة في عصر (ال شانج) في مدينة (ين وثنية) تقوم على عبادة آلهـة تسمى"تي"وآلهة أخرى اقل منها اهمية .وكـان النـاس يعبـدون أجـدادهم عـلى اعتبار أنهم وسطاء بينهم وبين الآلهة .وكانت الاسرة الصينية متماسكة يحكمهـا الأب، والعمـل الـرئيس للنـاس هـو الزراعـة والتقـويم القمـري ،والـصناعة الرئيسية هي الفخار والخزف .واشتهر الصينيون بالمهارة في التجارة والمهـارة في صناعة الأدوات الدقيقة.وكان الصينيون محافظين جدا معتـزلين بانفـسهم عـن غيرهم من الشعوب، وكانوا على الجملة قوما على خلق كـريم وأمانـة وسـجايا

طيبة ،فيما عدا استبداد سادة الحرب والنبلاء بالناس .وفي ذلك الوقت كان الصيني يتزوج من كثيرات ،غير ان واحدة منهن كانت تعتبر السيدة الأولى ،والباقي في مراتب المحظيات والخادمات، وأولاد الزوجة الأولى لهم الرياسة على من عداهم من الأخوة ولهم معظم الميراث.

هذه هي الخصائص التي عرف بها أهل الصين في مراحل تاريخهم حتى قيام الحركة الشيوعية والانقلاب الفكري والسياسي والاجتماعي الذي يرمي إلى إزالة الصين القديمة وإقامة صين أخرى.والصين من البلاد القليلة في التاريخ التي لم تتعرض لغزو فكري او ديني .أو بشري شامل يغير الأوضاع فيها في أي ناحية من نواحيها أو فيها كلها،حتى غزوة المغول الكبرى أيام جنكيز خان لم تخرج عن هذه القاعدة ،لقد أحدثت تغيرا شاملا في كل نظم الحكم في الصين،ولكنها لم تغير أي شيء في التنظيم الاجتماعي أو التفكير الديني أو نظرة الصينيين إلى الحياة .وبعد قرنين من تلك الغزوة وسقوط دولة " قوبلاي خان"عاد كل شيء في الصين إلى ما كان عليه الحال.

إن الدولة التي ثبتت تلك الخصائص التي عرفت بها الصين واشتهر بها الصينيون كانت أسرة شي التي حكمت إبتداء من عام ٢٢١ق.م. فمنشىء هذه الاسرة هو الذي وحد الصين في دولة واحدة بعد أن كانت مجموعة من ست دول يرأسها كلها ملك واحد،فقد وحد الصين بالفعل وسمى نفسه (شيه-هوانج-تي) أي اول الاباطرة، واتخذ عاصمته في (باي-شنج) أي العاصمة الشمالية،وهي التي تكتب بكين ويسموها المسلمون خان بالق.

ومن اسم هذه الاسرة (شين)اشتق الاسم الذي يطلق على الصين ،واباطرتها هم الذين أكملوا إنشاء سور الصين وثبتوا قواعد المجتمع والادارة التي عرفت منها الصين من ذلك الحين ،وفي أيامها ازدهرت واكتملت الفنون والصناعات التي عرفت بها الصين على مر العصور ،مثل الخزف الصيني وصناعة الزجاج الطبيعي الذي يمكن نحته في صورشتى،وازدهر كذلك الرسم الصيني المشهور،وفن النحت والبرونز والزجاج والعاج والخشب .وهم أول من عرف تربية دود القز واستخراج الحرير ونسجه،والطباعة بواسطة لوحات يحفر بها ما يراد طباعته معكوسا ثم يستعمل للطبع،وصناعة الورق

وهو الكاغد،وقد عرف الصينيون منه النوع الذي يصنع في شكل عجيني ثم يبسط باردا على الواح ليجف ويصير ورقا .كما عرف الصينيون فن نسج البسط والسجاد،وصنعوا السفن الكبيرة ذات الصواري وأشرعة الحصر وما إلى ذلك من الصناعات التي اشتهر بها أهل الصين منذ ذلك الحين .

وأعقبت حضارة عصر "شين" حضارات أخرى مثل عصر أسرة هان(٢٠٢ق.م-٢٢١م.)،وسوى وتانج(٦١٨-٩٠٦م) وفي عهد الاخيرة عرف المسلمون الصين ودخلها الاسلام،وكان بين ملوكها وبين خلفاء بني العباس سفارات وعلاقات.وسونج(٩٦٠-١٢٧٠م)ويوان(١٢٨٠-١٣٦٨م)وهي الاسرة التي ازدهر في عهدها الاسلام في الصين.وفي زمن هذه الاسرة زار الصين ووصفها ماركو بولو وأبوه.وكذلك زارها إبن بطوطة .ثم دولة مينج(١٣٦٨-١٦٤٤)م وهي التي اضطهد ملوكها الاسلام وأزالوه من على السواحل الشرقية،ولكنه بقي في الجنوب وغربي البلاد،ثم دولة شينج أو المانشو(١٦٤٤-١٩١٣م)وهي آخر الاسر التقليدية التي حكمت الصين وفي زمن هذه الاسرة دخلت الصين في صراع مع الحضارة الغربية ،وكانت

التحولات بعيدةالمدى التي اعقبت ذلك في عصرنا.

ومن هنا نرى تميز حضارة الصين على غيرها بانها حضارة صينية خالـصة لم تتلق من المؤثرات الاجنبية إلا القليل ،ذلك لان الصين لم تخضع لسلطان اجنبي يحدث تغيرا أساسـيا في تكوينهـا الحـضاري إلا مـرتين :الاولى عنـدما حكمهـا المغول ،والثانية في العصر الحديث.أما الأولى (الغزو المغولي) فقد تركت آثـارا عميقة في التكوين الحضاري غير أن هذه الآثار تلاشت مع مرور الزمن .واما في العصر الحديث فقد كان الغزو الغربي عميقا وعنيفا،فزعزع الأسـس التقليديـة التي قام عليها بناء المجتمع الصيني التقليدي،ثم انتهى بهدمه كله عندما انتقلت الـصين إلى النظـام الـشيوعي جملـة عـلى يـد ماوتـسي تونـغ وأصـحابه خـلال الخمسينيات.

نكمل حديثنا هنا عن الحضارة الاسلامية والتي قامت على أسـاس رسـالة الاسلام السماوية واستمدت اسس تعاليمها مـن القـرآن الكـريم ومـن أقـوال الرسول (عليه السلام)وأعماله، وكات حصيلة تاريخ المسلمين على أرضهم.فقد

تــأثرت بروافــد عــدة كالثقافــة العربيــة والهنديةوالفارســية واليونانيــة وغيرها.وكانت بهذا كيانا إنسانيا عاما وشخصية معنوية فيها جانب التراث إلى جانب الحياة القائمة لخير البشرية جمعاء.

وعليه فإن هذه الحضارة تختلف عن الحضارات التـي اسـلفنا القـول عنهـا ؛ذلك لأن أساسها ليس عنـصرا بـشريا ينالـه الـضعف والـبلى،ولكن أساسـها العقيدة التي لا تزال تتجدد وتتعاقب عـلى حمـل رايتهـا الأجيال،واداتهـا اللغـة العربيـة لغـة القـرآن، وبفـضله عاشـت وقـدر لهـا أن تنجـو مـن الأفـول والضياع.فبفضل الاسلام والعربية ظلت حضارة الاسلام حية؛لأن العقيـدة لا تبلى ما دام هناك من يؤمنون بها،وما دامت العقيدة حية في عالم الاسـلام فاللغـة العربية حية،أي أن عنصري الحضارة الاسلامية الاساسيين باقيان لا ينال مـنهما شيء.

وفي خاتمة هذا الباب نستطيع القول بأن الحضارات قد نشأت في بقاع شـتى من الارض،وكان لكل حضارة عوامل ساعدت في تكوينها،وكـان لكـل منهـا

عوامل أدت إلى أفولها وأنهيارها.ومما لا شك فيه أن الحروب كانت عاملا متميزا لها أثرها الواضح في تدمير الحضارة،لكنها لم تكن السبب الوحيد في أنهيار الحضارات.

فلو نظرنا وبترو كاف لكامل أحداث التاريخ(بما فيها نشوء الحضارات)لوجدنا أنها جميعا – باستثناء تلك التي تحدث دون مشاركة إنسانية – تتم نتيجة فلسفة وعقيدة معينة،منفعلة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بموقف صايغها.وبما أنه كتب لجل الحضارات التي تكونت على مر سنين التاريخ بالانهيار،فهذا يعني فشل التجربة الفلسفية التي صنعت هذه الظواهر.فلو عدنا لاستعراض أقدم المجتمعات لوجدنا أنها لم تبتعد عن وعي منهج فلسفي لإحداثها؛فنحن نجد عن الانبياء، والشعراء، والعرافين ورجال السياسة نزعة لإيجاد تعليل لاتحاد المجتمعات وتطورها،ومن خلال المنهج الذي يعللون به حدوث هذه الأحداث يسلكون لبناء المستقبل والتخطيط المجتمعي العملي له وبذلك تكون ذات قيمة واضحة في حركة الحضارة التي تتكون

إننا حين نتناول قصة اندحار أي شعب من الشعوب،سواء أفي الحرب،أم نتيجة لعوامل الطبيعة نجد أن ذلك الإندحار كان سببه النظريات التي بنيت عليها خطوطه في الأصل؛ فليست نبوءات عاموس وهزقيال في العهد القديم الا بناء على نظرية تاريخية يقينية،هي عينها التي فسرت الحروب وحركات التاريخ السابقة لها،كما فسرت خراب سدوم وعمورة،وتنبأت بخراب صور وبابل نتيجة لقضية الهية على المدن المسرفة في الترف والرفاه.وما نظرية اليهود في التاريخ وشعب(يهوه)المختار إلا الدافع الذي جعلهم يقضون بوحشية ضارية على كل الأحياء في البلاد التي احتلوها.وكذا وحشيتهم التي نشاهدها اليوم.

كما أن الفكرة النازية التي انبثقت عنها الحرب العالمية الثانية،والفظائع التي ارتكبتها الجيوش الألمانية في عصر العقل والمنطق الحديث لم تخرج عن كونها عقيدة تفسيرية للتاريخ توازي بعنجهيتها النظرة اليهودية.

وكذلك الحال عند الاغريق،فصناعة المستقبل لديهم كان يتم وفق فكرة عقائدية تصل إلى قداسة المنطق اليقيني من خلال المفاهيم الغيبية التي يدخل

فيها الحظ والرؤى والأحلام أو الأحاسيس الساذجة فكاهنة((دلفي))كانت تستطيع الكلمة منها أن تغير مجرى التاريخ الإغريقي.وكذا تغير وجه القداح في جزيرة العرب كان يبدل بسهولة اتجاه غزوة من الغزوات.ورؤيا الملك الآشوري نبوخذ نصر كان بامكانها أن تقضي على كل حملة الأفكار العلمية التي وصل إليها العالم البابلي،ولو لم يكن النبي دانيال موجودا لما أنقذ حكماء بابل وعلمائها من القتل،لفشلهم في كشف الرؤيا وتفسيرها للملك كما يريد.

كان حلم الفرعون المصري الذي بعث أكثر أزمة اقتصادية في العالم القديم ليس إلا حلم إنسان متخوم،لو لم يفسره له يوسف(عليه السلام)لما تولى بموجب تفسيره له السيادة على مخازن غلاله والتحكم باقتصاد مصر لفترة من الزمن في ذلك التاريخ.

كان العالم المسيحي هكذا برمته قبل نهاية الألف الأول من التاريخ الميلادي.وكذا حدث عند نهاية الألفية الثانية الميلادية.كان الكل يعمل بانتظار القيامة وانبعاث الاموات.وكانت حروب الفتح الإسلامية،وكذا الحروب

الصليبية جميعها لا تخرج عن مخططات نظرة صنع التاريخ،بعد عقيدة سابقة تفسيرية له.عقيدة هي من الوثوقية بحيث تدفع للتضحية بالنفس في سبيلها.وتحمل مئات الألوف لترك أوروبا مشيا على الأقدام لحماية الأرض المقدسة.

ونجد أن روما في أوج ازدهارها، ورغم جبروتها وعظمتها،كانت تخضع قوتها للإستخارة بأمعاء شاة،تقرر بعدها مصيرها،كما أنها كانت تسود فيها عقيدة تجعل بقاءها مرتبطا برضى تمثال من حجر،وأقرب طرقها للإنتصار على العدو كانت تدمير معبد مدينته،أو سرقة آلهته،أو دعوته بإسمه بإلحاح كي يجيب دعوتها ومثل هذه العقائد تبدو لنا أسطورية،غير أنها كانت تتحول إلى شحنة ايمانية جبارة في نفس جنود روما فتضمن لهم النصر،وتذل عند أقدامهم الأعداء.

لذا فإننا نجد أن كل الإنجازات الحضارية التي تمت لدى شعب من الشعوب كانت وفق معتقداتهم.ومن هذا المنطلق لا بد من وجود فلسفة

أخلاقية للحضارة كي تستمر مسيرتها.وإذا أجاز لنا أن نبحث عن قـانون عـام للحضارة فهذا القانون هو بعد قانون الولادة والموت الذي يشمل جميع النـاس على السواء ويوحد بين كل اختلافاتهم،هو قـانون التجمـع الانـساني الطبيعـي والباعث إلى هذه الشرعية بالتجمع عند الفرد،والرابطـة العاطفيـة التـي تجمـع المجتمع وتشده إلى بعضه كمجتمع.هذه الرابطة قد تختلف تشكلاتها بين كل أمة وأخرى،وبين كل عصر وآخر، ولكنها لا تختلف في كل أمة وأخـرى،وبين كـل عصر وآخر،ولكنها لا تختلف في جوهرها، كما لا تختلف في إنجازاتها الاخلاقية والـــسلوكية،إلا عنـــد اخـــتلاف اشـــتدادها،وفيها يـــدخل كـــل نـــزوع انساني،إنشائي،سلبي أو ايجابي،وحركات التاريخ جميعها تأتي عنها كتعبـير مـن تعابير وجه يكون مؤتمنا واثقا حينا وقلقا مضطربا حينا آخر.

إن المجتمع لا يكون إلا عنـدما تلتقـي أحاسـيس أفـراده في هدفيـة مـا.أي عندما تتلاقى النوازع الطبيعيـة وتنـسجم معـا متطلعـة إلى مثـال أعـلى يجـذبها نحوه،ويجسد لها استمرارها في متطلباته.وليس هناك من فارق بين نوعيـة هـذه الهدفية ووقيمتها التاريخية والأنسانية والتاريخية ما دامت تؤدي وظيفتها في لأم

المجتمع ومراقبة أخلاقياته.كما لا فرق بين أن يكون المجتمع بدويا أو ريفيا، زراعيا أو مدنيا معاصرا.ومع هذه النظرة يكون التحدي في المجتمع،أو الإستجابة للتحدي،أو النقمة الثورية على الإقتصاد،أو أية فكرة تعم المجتمع لتدفع به ككل للعمل،كالحس القومي أو الديني أو العنصري،يكون ذلك مظهرا تشكلت به الهدفية،وتحكمت بالمجتمع عن طريقه.

وهكذا تكون نقطة البدء في دراسة المجتمع هي الفكرة العامة التي تجمعه وتوحد أمانيه ودوافعه،وهي التي توجد له اليقين الذي يهب الفكرة شرعيتها ويكون رغبة التضحية في سبيلها،بطريق حملة الإئتمان اليها والثقة بمنهجها،وجزيئات طقوسها.فالتاريخ بأكملة وفق المنهج الدراسي هذا يكون وحده إذا تناولناه من ناحية تطور اليقين في نظر الإنسان للعالم حوله.وتجزيء التاريخ إلى حضارات ومجتمعات،إنما هو تجزئية إلى ذاتيات أمم وتطلعات انسانية وفق التطور الذي يسير مصطحبا معه الأخلاق والسلوك وانماط العلاقات في داخل المجتمع وبين المجتمع والمجتمعات الأخرى المعاصرة له أو السابقة عليه.

والحركـة الإجتماعيـة العامـة إنـما تعتـبر هكـذا طاقـة غفـلا أخـذت هـذا الشكل،أو ذاك بعد تجمعها بدافع أو بآخر قد يختلف بين أمة وآخرى

إن قيام فلسفة حقيقية للحضارة من شأنه المساعدة في بقائها،وتجنيبهـا دور الأفـول والانهيـار.إن الكتابـة في تـاريخ الحـضارة فقـط لا يـساعد عـلى هـذه الفكرة.بل إن التفكـير الجـدي في معنـى الحـضارة ووصـف مـضمون حياتنـا الروحية واستقصائه،وامتحان قيمة الحضارة من ناحية نبـل أفكارهـا وقـدرتها على إيجاد تقدم حقيقي هي الأمور المطلوبة.

إن حضارة الغرب – الآن – في دور الإنهيار،لأنها كغيرها بنيـت عـلى شـفا جرف هاو،وسيجرفها أي إنهيار جديـد.ولعـل انـصراف الفلـسفة عـن القيـام بواجبها كان السبب لما وصلت اليه فقد كانت الفلسفة هي التي تقـود الأفكـار وترشدها خلال القرن الثامن عشر،وكانت هذه الفلسفة تتضمن داخلها تفلسفا أوليا عن الإنسان والمجتمع والجنس والانسانية والحضارة،أنتج بطريقة طبيعيـة تماما نوعا ما الفلسفة الشعبية الحية تهيمن على التفكير العام وتحافظ على الحماسة

للحضارة.غير أن هذه النظرة كانت عاجزة مع مضي الزمن،إذ كانت تعـبر عـن فلسفة شعبية وليست فلسفة حضارة حقيقية.فلم تتوافق فلـسفتهم مـع التقـدم العلمي المضطرد،فانتفضت الأخيرة على الأولى ودمرت ذلـك الخيـال.وبقيـت الافكار الأخلاقية التي تقوم عليها الحضارة لا مأوى لها،ولم يكـن مـن الممكـن المزج بين المثل الأخلاقية والحقيقية العلمية والواقعية.







الباب الثاني:

حضارة الشرق القديم



الفصل الاول :

الحضارة الفرعونية :

لقد لعب وادي النيل دورا هاما في قيام الحضارة المزدهرة في مصر منذ القدم فمصر، - هبة النيل – مرت منذ الألـف الرابـع قبـل المـيلاد بمراحـل تاريخيـة متتابعة.ففي البدء تكونت في مصر دولتان إحداهما في مصر العليـا،والأخرى في مصر السفلى،وفي حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م.تمكن مصر ملك العليا – الملك مينا – مـن توحيـد الـدولتين في مملكـة واحـدة.ومنـذ ذلـك الوقـت وحتـى احـتلال الاسكندر المكدوني لمصر عام ٣٣٢ ق.م.حكمت مـصر ثلاثـون أسرة مـصرية على مدى عدة عصور قسمها المؤرخون إلى:

عصر الدولة القديمة ويمتد من ٣٢٠٠ ق.م إلى ٢٣٠٠ق.م.

وتميز هذا العصر بتوحيد مصر واختيار مدنية ممفيس الواقعة عند تفرع نهـر النيل عاصمة لها.وببناء الأهرامات،وتبلور سلطة فرعون ملكـا وكاهنـا أعظـم

والها.وبانتشار الأمن والسلامة،والنشاط الزراعي.

عصر الدولةالوسطى ويمتد من ٣٢٠٠ ق.م إلى ١٥٧٠ ق.م

وفي هذا العـصر ضـعفت سـلطة الفراعنـة وزادت سـلطة أمـراء الإقطـاع واختل الأمن والاستقرار،ولم يعد الفراعنة يـدفنون في أهرامـات بـل أصـبحوا يدفنون في مقابر منحوتة في الـصخور.وفي حـوالي عـام ١٧٥٠ ق.م.تعرضـت مصر لغزو الهكسوس الذين حكموها وأقاموا فيهـا حـوالي ١٥٠ عامـا، حـين تمكن الأمير المصري أحمس من طردهم حوالي عام ١٦٠٠ ق.م.

عصر الإمبراطورية أو الدولة الحديثة ويمتد من ١٥٨٠ ق.م-١٠٨٥ ق.م.

وتميز هذا العصر بظهور الامبراطورية المصرية التي توسعت في اسيا وشرق أفريقيا فضمت بـلاد الـشام،وأعالي الفرات،وأجـزاء مـن الـسودان،وسواحل البحر الأحمر،وشواطئ ليبيـا،كما تميـز باتـساع تجارة مـصر الخارجيـة،وازدياد ثروتها،وبناء اقدم اسطول حربي.كما ظهرت في هذا العصر ديانة التوحيد على يد

اخناتون، وكان من ابرز فراعنة هذا العصر حشبسوت وتحتمس الثالث ورمسيس الثاني.

العصر المتأخر ويمتد من ١٠٩٠ ق.م-٣٣٢ ق.م.

وتميز هذا العصر بضعف سلطة الفراعنة وازدياد نفوذ الكهنة،وكثرة الاضطرابات الداخلية،والهجمات الخارجية،كغزوات الليبين والآشوريين والفرس،وسقوط مصر بيد الاسكندر المكدوني ٣٣٢ ق.م.وخضوعها لخلفائه البطالسة من بعده،وأخيرا سقطت مصر بيد الرومان عام ٣٠ ق.م.فحكموها وخلفائهم البيزنطيون حتى الفتح الإسلامي عام ٦٤٠م.

ونرى هنا أن الحضارة في مصر قديمة،فمنذ عام ٤٢٤١ ق.م.شرع هناك في إصلاح التقويم،مما يدل على سبق التجارب والتفكير لعدة قرون خلت وفي عهد الأسر الأولي،أي في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد،بلغت طرق العمل الفنية شأنا كبيرا يدعو إلى الإعجاب.ولا شك أن النيل كان مصدر إلهام عند الإنسان المصري، فهو تارة يغدق على واديه النعيم، وطورا يصب عليه النقمات،مما

أوحى الحكمة إلى إنسان مصر،وجعل منه مساحا ومهندسا وفنيا عندما اقتضت الضرورة إلى إعادة مساحة أراضيه لتحديدها بعد إنحسار مياهه عنها

وللمقارنة ولمعرفة أيهما أقدم حضارة فإن الآراء تتفق على أن كلا الحضارتين قد نشأ في الألف الرابع للميلاد،واخذ كل منهما يتقدم على انفراد،ويبدو ان سكان العراق القدماء قد وصلوا إلى ما لم يصل إليه سكان مصر في العصر الذي يسمى عصر ما قبل الأسرات.غير أنه يجب أن لا يغيب عن البال أن جميع شعوب الشرق القديم كانت على صلة ببعضها بعضا،وكانت التجارة قد عرفت طريقها بين هذه الشعوب كما اخذت الهجرات تتوالى بين بعضها بعضا،فاتصلت الحضارتان،وكانت مصر انذاك تجتاز فترة انتقال فاثمرت هذه الصلة واخذت مصر من العراق شيئا من مظاهر حضارته مثل الأختام الأسطوانية التي عثر عليها في مقابر ما قبل الأسرات وبعض مقابر الأسرة الأولى المصرية.وكذلك أخذ المصريون عنهم بناء الجدران ذات الفجوات الرأسية الطولية،كما بدأت تظهر في الفن المصري تأثيرات أخرى مثل رسم السفن العراقية التي يرتفع كل من مؤخرتها ومقدمتها ارتفاعا عموديا،ورسم

الحيوانات ذات الأجنحة،أو الحيوانات ذات الأعناق الطويلة التي تتقاطع مع بعضها بعضا أو الرسم السومري المشهور الذي يمثل محاربا بين أسدين.ولعل استمرار هذه المظاهر في العراق واختفاء بعضها من مصر يشير بوضوح إلى أن مصر أخذت هذه الأشياء عن العراق

وليس ثمة شك في أن حضارة مصر آنذاك لم تكن أقل منها عن مثليتها العراقية، بل ربما كانت تفوقها في نواح كثيرة؛بل إن في إقبال المصريين على اقتباس أساليب الفنون الأجنبية يدل بوضوح على نضوج فني بينهم جعلهم يتطلعون إلى آفاق أبعد من الآفاق المحلية؛كما يدل ايضا على المرونة التي يجب أن يتحلى بها كل شعب يبدأ فترة تقدم حقيقي في تاريخه.

أن أية ثقافة مهما كانت تتطلب نظاما اجتماعيا واسع المدى والمدة،وهذا لا يأتي إلا بالتخلص تدريجيا من تاريخ العقائد.لقد كانت مصر مقسمة إلى مقاطعات،يحكم كل منها معبود يرتفع قدره ونفوذه عندما تستولي مقاطعته على غيرها وتفرض سيادتها عليها.بالإضافة إلى ذلك كانت النيل والشمس موضع

إجلال الجميع.لقد كان هنالك نوعان من الآلهة:المعبودات المحلية:كالحيوانات والأشجار والجبال.والآلهة الكونية:كالسماء والأرض والكواكب والنيل.ويبدو أن لهذه التقسيم اهميته الإجتماعية وصبغته الطبيعية، بل ودلالته على بعض الصلات،ومثال ذلك أن مقاطعة هليوبوليس ترمز إلى الرمز بالذات.

ولقد كانت دولة مصر موحدة منذ عهد المملكة القديمة(الأسرة الثالثة إلى الأسرة الثامنة).وكان فرعون تلك الأسر رب السلطة الدينية والزمنية،والمالك الوحيد للأرض،والعاهل الذي هو مصدر حياة الناس والآلهة.ولما كان هو كذلك – مرجعا للوجود والرفاهية،كان الشعب بأسره يعمل من أجله،ويضحي في سبيله حتى بالحياة.فهنالك نفس واحدة لها قيمتها هي نفس فرعون،وله وحده روح دون سائر الكائنات الحية الأخرى وكان مصير الأموات تحت رحمته،وكذلك شوؤن الأحياء الإقتصادية تحت سيطرته.ولا مراء إن قلنا بضرورة وجود هذا الإيمان القوي الغريب لتشييد الأهرام.

إن هذا الفهم لشخصية الفرعون لم يتحمل الصدمات التي هزت المجتمع

بأسره في المدن ٢٣٦٠ق.م. إلى عام ٢١٦٠ ق.م.حيث اعتبر المجتمع انذاك من الظلم البين أن يكون الخلاص الروحي امتيازا مقصورا عن عظيم،وصار الدين منذ ذلك الوقت يسير في طريق الديمقراطية،وما إن حلت الدولة الوسطى حتى أقامت مقام الحكم المطلق حكما مؤسسا على العدالة،ووضعت السلطة العليا في خدمة الجميع.أما الشعائر الدينية،فقد أصبحت مفهومة وفي متناول كل فرد من أفراد الشعب،بعد أن كانت سرية خاصة بطبقة الكهنة.

لقد كانت الآلهة عند المصريين متعددة محلية وعامة.مثل الآلهة(رع)أي آلهة الشمس.و(أوزوريس)،و(آمون رع)الذي أصبح إله مصر الأعظم بعد إنتقال العاصمة من ممفيس إلى طيبة.وعندما اعتلى الفرعون.أمنحوتب الرابع عشر عرش مصر،أقفل معابد آمون رع وطرد كهنتها،ونادى بدين جديد سماه "أتون" ورمز إليه بقرص الشمس وسمى نفسه بأخناتون أي روح أتون.وبهذا اقترب المصريون القدماء من فكرة التوحيد.غير أنهم ما لبثوا أن ارتدوا عن ذلك بعد موت أخناتون.

اعتقد المصريون بالبعث،واعتقدوا أن أرواح الموتى تذهب إلى العالم الآخر،حيث يوزن قلب الميت،فمن كانت أعماله صالحة وحفظ التعاليم والإرشادات الدينية التي نص عليها كتاب الموتى،نجا من العذاب،ووهب له الإله أوزوريس الحياة والخلود في الأخرة. ولأنهم اعتقدوا بهذا،ولأن عودة الروح إلى الجسد الميت لإحيائه تستوجب بقاء الجسد سليما،فقد اخترع المصريون فن التحنيط؛ فكانوا يحنطون موتاهم بأن يضعوا الجسد الميت في صندوق خشبي بعد نزع أحشائه،ثم يغطونه بمادة النيترون التي تجفف الجسد وتنزع الرطوبة منه،وبعد تجفيف الجسد كانوا يضيفون إليه مواد أخرى حافظة ويلفونه بلفائف طويلة من الكتان ثم يدفنونه.

اهتم المصريون القدماء ببناء المقابر فكانوا في بادئ الأمر يدفنون موتاهم في حفر عميقة،ثم أخذوا منذ عصر الدولة القديمة يدفنونهم في أهرامات ضخمة بنيت من حجارة الجرانيت.بنى اول هرم في مصر في عهد الملك زوسر على شكل مصاطب مدرجة بعضها فوق بعض – كما هي في هرم سقارة ثم تطورت الفكرة إلى بناء الأهرامات التي تميزت بضخامتها وبدقتها الهندسية،فكان منها

هرم خوفوأو الهرم الكبير،وهرم خفرع،وغيرها.وبانتقال عاصمة مصر إلى طيبة أخذ الفراعنة يدفنون موتاهم في قبور محصنة محفورة في الصخر،كما هو الحال في مقابر وادي الملوك،ومن أشهر تلك المقابر:قبر توت عنخ أمون.

أما المعابد،فكانت جنائزية تقام فيها الصلوات على الفرعون الميت،مثل معبد الملك خفرع ومعبد الملكة حتشبسوت، أو معابد كبرى مخصصة للآلهة العظام مثل معبد الكرنك المخصص للآله أمون رع ومعبد أبي سمبل الذي تم نقله قبل أن تغمر بحيرة السد العالي المكان.

لقد كان لعقيدة الحق الإلهي،التي كانت مؤسسة لصالح المملكة المنفية(الأسرتان الثالثة والرابعة)علماء نظريون في أشخاص كهنة هليوبوليس من عبدة(رع)أي الشمس.وقد تخيلوا فرعون،لا على شكل الصقر حوريس،بل اعتبروه متحدا بالشمس اتحادا جوهريا.ومن جهة أخرى يتدخل عامل اخر من عوامل الدين المصري.وهو عبادة أوزوريس- إله الزراعة والماء الذي مثل تارة بالنيل وطورا بالقمح،وقد احترمت الأساطير في شخصه ملكا عاملا في سبيل

المدينة؛ إذ كشف النقاب عن الزراعة،ووحد البلاد،غير أنه كـان موضـع حقـد أخيه(سيت)إله الشر. وكان قد قتل أوروزيس وقطع إربا؛لكن "إيزس" زوجته نموذج الوفاء جمعت أشلاءه،وأعادت إليه الحياة،وجعلته من الخالـدين بفـضل ما تملك من قوة سحرية،وبعدها أصبح أوزريس رمزا للملوك الـذين يحـاولون الدفاع عن أنفسهم ضد الموت،وصار مثلا يحتذى من قبل الفراعنة حتى الأسرة الثامنة؛إذ كانوا موضع تقديس بعد موتهم أسوة بالملوك الأول الذين ذهبوا عـن الوجود.

وفي عهد الدولة الحديثة(الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة العشرين(١٥٨٠-١١٠٠ ق.م)صارت طيبة عاصمة العالم،وقامت دليلا على قوة الأنظمة المصرية وتشعبها حتى بلغت آسيا.غير أن هيئة كهنة آمون،وهي التي كانت تمثل رع(إله الشمس)في طيبة،حاولت الاستئثار بسلطة الملك واحلال نظـام الحكـم الإلهـي محل الحكم الفردي

لقد لاقى الفراعنة غـير الأصـليين صـعوبات جمـة في مقاومـة هـذا التيـار

المحافظ بوضوح،وحاولوا مواجهة التقاليد الدينية الخاصة بهيلوبوليس بالأنظمة التي أقامها كهنة آمون؛ومثال ذلك أن " أمونوفيس الرابع " ليعارض أشياع آمون،وهب نفسه لقرص الشمس آتون؛وفر من طيبة وأنشأ مركزا لعبادة جديدة في المنطقة التي أصبحت بعدئذ تل العمارنة،واتخذ اسم أخناتون،أي مجد أتون.وهذا حادث يشير إلى صعوبات التي لاقتها مملكة طيبة في طريق السير إلى التوحيد.

وفي بداية القرن الحادي عشر بدأ نفوذ الفراعنة يجتاز المحنة تلو المحنة،إذ أخذ أنبياء امون الأول،ومرتزقة لوبيا يتنازعون فيما بينهم للاستئثار بالسلطة دون الفراعنة. ووقعت مصر في أيدي الأشوريين في الأعوام٦٦١،٦٦٨،٦٧١ ق.م.ثم في أيدي الفرس عام ٥٢٥ ق.م.ثم في يد الاسكندر عام٣٣٢.ق.م.واخيرا في يد الرومان في عام ٣٠ ق.م.وحلت اللغة والتقاليد الإغريقية محل لغة البلاد الأصلية وتقاليدها،وسادت الوثنية فأزالت استعمال الهيروغليفية في القرن الرابع الميلادي،توطئة لإحلال الكتابة العربية محل لغة البلاد الأصلية تقاليدها،وسادت الوثنية فأزالت استعمال الهيروغليفية في القرن

الرابع الميلادي،توطئة لاحلال الكتابة العربية محل الكتابة اليونانية وقد أصبحت مصر منذ الغزو المقدوني مركزا اجتمعت فيه جميع حضارات الانسانية، والتقطت فيه كل التأثيرات من افريقية واوروبية وآسيوية



الفصل الثاني :

الديانة اليهودية وتبعيتها

لقد كانت حمية اليهود الدينية تمتاز بصبغة القلق الخاصة بها.وأنه كان هنـاك تشابه مؤكد بين دين الكنعانيين أو الفنيفيين الذي اضطر اليهود إلى تمثلـه لغـزو أرض الميعاد. "فالبعل" و "الاستارتية" المحليـة التـي كـان يقابلهـا في الديانـة اليهوديـــة "يهـــوه" ســـيد الرحـــل الآراميـــين كانـــت ذات مميـــزات ايجيـــة سومرية.((وأشيرات))رأس شمرة،إلهة البحر الفنيفية،اختلطت "بأتارجاتيس" بعد انهيار شعب الملاحين الذي كان يقدسها،وليس "أتارجاتيس" الا اسما آخر ((لعشتار)) البابلية؛و "حداد" ابنها،الذي هو بعل الصاعقة،يرجع في أصـله إلى بلاد ما بين النهرين،ثم اتضح أن "عاليين بن حداد"،وهـو روح الإنبـات،ليس إلا "موت" إله الموت،وقد أدى ذلك إلى وحدة "أودينس أشمون" الذي أطلـق

عليه اسم تموز السموري،كما أن إله الخصب(الإنبات)الذي كان يموت ويحيا كل سنة،لقد لعب نفس دور كل من "لأتيس" في الاناضول،و "اوزوريس" في مصر. أما الآلهة الكثيرون الذين كانوا ينتظرون منهم الخبر المحسوس،فقد اعتبر المتظهرون من أهل الصحراء عباداتهم وثنية وفحشا.

ومنذ أن شعر اليهود بوجودهم كجنس وشعب صار الههم الحقيقي هو ألوهيم "الله" ؛وذلك بعد أن عقد ميثاقا معهم (مع سيدنا موسى)في طور سيناء.وعلى الرغم من ان هذا الميثاق كان ذا صبغة تاريخية إلا ان إتصاله بهم كان يبدو ذا قوة مطلقة.

لذا فإن الطابع الاستثنائي الذي اصطبغ به التفكير الالهي عند الاسرائيليين من التطور الذي طرأ على أحوالهم الإجتماعية؛ذلك بأنه حين استقر الشعب التائه،فاصبح مقيما وزراعيا،تولى "يهوه" اختصاصات البعل فاصبح إله الطبيعة وإله القبيلة.

ولما قام وحي الأنبياء وتفجر بين القرن الثاني والسادس ق.م،أصبح

"ليهوه" دور أخلاقي عظيم جدا،وبعد تأسيس نظام الملكية،واتخاذ الزراعة والتجارة وسيلتين للحياة المنظمة وازدياد طبقة الفقراء واحلال نظام الملكية الفردية محل الشيوعية الفطرية،زالت جميع القيم الأخلاقية التي كانت أولاً أما من كان يتكلم من اليهود باسم "يهوه" فقد أخذ يحارب حالة الحضارة الجديدة ويعتبر مظاهرها جرائم لا تغتفر،بل نعتوها بالسياسة النفعية والزندقة الجسورة والاثراء في الأعمال وسيادة الشهوات وعبادة العجل الذهب،كما هاجموا ارتشاء الكهنة بحجة أن مثل هذه الجرائم حرية بأن يمحو "يهوه"؛لأجلها شعب إسرائيل

ومن هنا نرى بأن "يهوه" كان أكثر من إله إسرائيل،بل أكثر من إله الطبيعة؛فالله يطالب بالعدل العالمي،وهو لا يرجو قرابين،بل نقاء السرائر وخضوع القلوب.لذا نرى أن الأنبياء:عمس وهوشع وأشيعا وأرميا يطالبون بقوة لا تعرف الهوادة وأن تسود الأخلاق سيادة مطلقة في هذاالعالم،فالمعجزة اليهودية هي تفوق المثل الأعلى على الواقع،وليس هو المثل الأعلى الذي هو على الحقيقية المجردة للأشياء والتي يتأمل فيها أفلاطون،بل هو مثل أعلى مدرك

ومقصود مثل أعلى تكذبه الوقائع لكنه يحكم عليها وينتهي أحيانا بالانتصار.أن الأنبياء قد خلقوا العقيدة والإيمان؛بل هم يرون ويجعلون غيرهم يرى،يجعلون غيرهم يشعر.ويتخيلون ويجعلون غيرهم يتخيل.وهم ينقلون الأوامر الإلهية التي يوحي بها على ألسنتهم.وعليه فإن شعب اسرائييل المحطم المشتت سيجد عزاءه في المستقبل المنتظر،بل هناك ما هو أكثر من ذلك،وهوأن "يهوه" يعرف كيف ينتقم،وعندئذ يفتح عهد التجلي والبشرى بيوم الحساب.

إن العقيدة السائدة عن نهاية العالم قد أنجبت المسيحية التي تعد نوعا من الإصطلاح اليهودي،وبهذا سيعمل يسوع على جعل الأولوية للصفح والحب على الغضب حتى لو كان الغضب عادلا، ومن هنا – تغلب روح المغفرة على قوة شدة الأنبياء اليهود وصلابتهم.غير أن الكنيسة المسيحية،كما مثلتها الأجيال الأولى للمسيحيين،قد جمعت بين اله في نظر الساميين والله في نظر الايجبين فإذا كان "يهوه" أقرب شبه لله الأب،فإن الالهة الذين عذبوا وتألموا لإنقاد الأنسانية،سواء أكانوا أفروجيين ام سوريين،أم مصريين قد مهدوا لفكرة الله الابن

كان الدين اليهودي موزعا بين فكرة العزلة وفكرة الانتشار العالمي.حيث ان الفكرة الأولى سادت عند اليهود أسرى بابل عندما نفوا هناك.أما الفكرة الأخرى فقد وضعها النبي أشعيا،واليهود لم يتنازلوا عن هذه الفكرة أو تلك.إضافة إلى أنهم كان لهم تصوف مبني على العقل والمنطق،يشهد على هذا مؤلفات موسى بن ميمون،وسبنوزا.

ومن هنا نرى أن التوراة والإنجيل يعتبران من اقوى المؤثرات الحاسمة التي اثرت في أوروبا من آسيا.ولا تنس أن أثر كليهما لم يكن أقل في آسيا ذاتها،وأنهما سبقا الديانة الإسلامية ومذاهب أخرى انتشرت في ايران والهند والسند؛فالتشريع اليهودي والتلموذ كان أشد تأثيرا في القرون الوسطى بالبابلية من المذاهب السامية الأولى؛وكذلك القابلاه(كتب التصوف العبرية)التي تعد أساسا للتعاليم السرية الغربية كانت كلدانية أكثر منها يهودية

واعلنت الديانة اليهودية عن نفسها باعتبارها ديانة تنزيه فهي تقرر أن ثمة موجودا واحدا هو خالق الكون وأنه بالاضافة إلى هذا يتصف بصفات

شخصية وإن إحدى هذه الصفات الأساسية هي العناية الإلهية.

إن الديانة اليهودية، - وعلى الرغم من تقرير بعض المؤرخين - ،تأثرت بنزعة توحيد فرعونية،إلا أنها تقر بالتوحيد وبإله واحد يتحكم بالكون فضلا عن كونه خالقا له.وعلى الرغم من هذا فإن فكرة التوحيد عندهم ضيقة؛بمعنى أن هذا الإله (يهوه) – كما يسمى بالعبرية – معني بالعالم، لكنه معني بجزأ من الأنسانية أكثر بكثير من عنايته بأجزاء أخرى؛ إي أن بني إسرائيل يضعون بينهم وبين الله (يهوه) علاقة وثيقة للغاية؛فهو يقودهم في الحروب،ولا يعني بهم كشعب بصورة كلية فقط،وإنما يعنى بكل واحد منهم بحيث أنه ينتصر للشعب وللفرد على حد سواء،ويقف موقف عداء بالنسبة للآخرين كلهم،وهذا مما يجعل من إله بني إسرائيل إلها قوميا إلى حد بعيد على الرغم من ان المفكرين اليهود المحدثين يريدون أن يؤكدوا تأكيدا مطلقا على النزعة الانسانية المطلقة في اليهودية.وحتى في واقع الامر حين يؤكدون هذه النزعة فإنهم يجعلون من شعب بني إسرائيل المركز والمحور.إذن نقول إن التوحيد اليهودي محدود والههم إله شعب أكثر من كونه إله بشر.

صفة أخرى يتصف فيها التفكير الديني اليهودي وهي النزعة العملية القومية،والواقع أن الديانة اليهودية تتجه نحو الأمور العملية أو الأمور القانونية أي الأمور التي تتصل بالمعاملات والعقود والزواج والطلاق وما أشبه ذلك،وهناك تركيز قوي على الجانب العملي في اليهودية بحيث تطبع الطابع الديني بطابع حسي وعملي ومادي، وبالفعل حين يريد مؤرخو الفكر الديني أن يؤرخو للسمات الرئيسة، يقولون عادة إن اليهودية ديانة مادية فقهية،أو دنيوية.بينما المسيحية ديانة روحانية تأملية،في حين أن الإسلام دين دنيوي وأخروي في وقت واحد.



الفصل الثالث:

الحضارة الفنيقية وحضارة ما بين النهرين

إن المقصود بالنهرين:دجلة والفرات وأن ما بين النهرين اسم قديم أطلق على الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات.وعلى هذه الأرض نشأت حضارة من أقدم الحضارات وأكثرها ازدهارا،أسهم فيها إلى جانب السومريين(وهم شعب غير سامي)شعوب سامية كونت إمبراطيريات واسعة،كان لها السبق في اختراع الكتابة،والتشريع،والزراعة ونظم الري وغيرها.

إن الحديث ما بين النهرين يعني الحديث عن أكثر الحضارات والمنجزات البشرية والتي تؤكد على وجود ارتباطات عميقة دائمة مع باقي العالم القديم؛فحضارة هذه المنطقة في بلاد عيلام وبلاد سومر،وعند الساميين

والأكاديين في بابل،وفي آشور،وغيرها كانت كخط من القمم والتي كانت تسطع وتتوزع على القرب الكائن على شواطئ الابيض المتوسط،وعلى اسيا الجنوبية والشرقية القصوى،وتؤثر فيها جميعا تاثيرا عميقا،وهناك تورطت الأنظمة الأولى المتعلقة بتركيب الكون وبنظام الانسانية.

السومريون:

تخلف الآراء عن أصول هذا الشعب:-

ففي الاساطير السومرية أنهم جاؤوا من الجنوب عن طريق البحر،وفي رأي بعض الباحثين أنهم جاؤوا مهاجرين من اسيا الصغرى في موجتين،ويرى آخرون أنهم جاؤوا من جهة التركستان وجبال اورال،وهناك من يقول إنهم جاؤوا من واد السند؛بعضهم بطريق البر واخر بطريق البحر.كما يذكر البعض أنهم وفدوا من هضبة ايران،ويحاول البعض الآخر من تحديد أصلهم عن طرق مقارنة اللغة السومرية باللغات التي يمكن القول بانها تشترك معها في اصلها وأهمها اللغات المجرية والتركية والفنلندية.في حين يحاول بعض الباحثين

العراقيين إثبات أن الحضارة السومرية اصيلة في البلاد ولم تأت من اي مكان آخر

وللعلم أن من أقدم حضارات التاريخ تلك الحضارة المشتركة بين العيلاميين(الذين سبقوا السومرين)وأصلهم من سوس في الطرف الغربي من الهضبة الايرانية،وبين الحضارة التي كانت بمنطقة مرو.والتي عرفت منها بلاد ما بين النهرين وآسيا عملية تدجين الحيوانات.لقد غزا العيلاميون بلاد ما بين النهرين،وفي تلك المنطقة تكونت الحضارة السومرية التي تعتبر أساسا لعدة حضارات آسيوية؛فعلى الضفاف الجنوبية للنهرين،وفي الألف الرابع قبل الميلاد بنى السومريون مدنهم مثل:أور،واريدو،ولكش وغيرها.لقد نشأت مدينتا لاجش(تيلو)،"وأما" بالقرب من الخليج العربي حيث ازدهرتا منذ عام ٣٣٥٥ ق.م.وبعد هذا التاريخ وبالقرب من مصب نهر الفرات نشأت مدن اوروك،وارو،وايريدو،وقد اضطر ملوك لاجش أن يخضعوا لملوك(أما)،فأصبحت بلاد السومريين اكبر امبراطورية في آسيا الغربية وذلك في عهد الملك "لوجال لاجيسي" في حوالي ٢٨٩٧ ق.م

ويوجد هنا توافق غريب بين العمل المادي والمعارف الاسطورية الخاصة بالسومريين فبعد أن كانوا رعاة في الأدغال التركستانية،أو في الجبال العيلامية، نزلوا إلى الشواطئ واضطروا إلى استغلال الأرض المتيبسة حديثا رغبة في علاج مشكلتين متضارتين:الأولى مشكلة المستنقعات الرطبة الأخرى الصحراء الحارة.فحفروا الترع وتوصلوا بذلك إلى نتيجتين عكسيتين غير أنهما تكملان بعضهما بعضا:وهما تجفيف الأرض وريهاوبذلك حصلوا على الخصب.وبذلك أصبحوا شعبا زراعيا حصدوا بعملهم هذا الغلال من قمح وشعير وشوفان وغيرها من المحصلات الطبيعيةحيث انتقلت زراعة هذه المحاصيل منهم إلى سائر العالم.إضافة إلى ذلك فقد ربى السومريون المواشي،وتوصلوا إلى صناعة الخزف الذي استعملوه في المباني والكتابة.وصناعته لديهم تفسير إلى حد كبير روح ما وراء الطبيعة التي كانت تشملها الأساطير لديهم.

إن صناعة الصلصال مثلا تؤدي إلى عمل صورة إله لمصنوعاته،وإلى تعيين اسم لكل نوع ولكل عمل منه.وتحديد مصير لكل وجود،واعتبار هذا المصير قانونا ثابتا.كما نلاحظ كذلك استمرارتمثيل الالهة الغاضبة(تيامات)وهي في

قبضة(ماردوك).والملاحظة الأخرى في الديانة السومرية هي امر وجود السحر،والجسد الانساني – شأن كل شيء حي – في صلة مباشرة مع بعض الآلهة،شريطة ألا توقف هذه الصلة بعامل ما،وهنا نجد تكوينا تمهيديا صوفيا لفكرة المكان الطبيعي والعمل الخاص؛فالآلهة تقي واقية للناس؛إذ هم جميعا متحدو الذوات ومتساوون في ذلك؛وذلك إما لأن الانسان ناتج عن صور أزلية،وإما لأن الالهة نشأوا عن تسامي الملوك والأبطال.فليس على المؤمن أن يستجلب فاعلية الآلهة،بقدر ما عليه أن يحافظ على انسجامه مع هذه الكائنات العالية

وإذا تركنا التنجيم والسحر جانبا،تبين لنا ان الآداب الدينية تشمل بنوع خاص أناشيد تمجد آلهة كل شعب،فليس الآلهة محليين وشخصيين فقط،بل هم طبيعيون كما يستدل على طابعهم الذي هو إلى حد ما على شكل حيوانات،والموروث عن الطوطم في العصور الفطرية.ومن هنا نرى أن (نسرنن – جيرسو) حامي لاجاش،وهو النموذج السابق لكثير من الشعائر الغربية والرموز الشرقية التي تشمل صورا لبعض الحيوانات الضارية الشرهة،وتشير

إلى قوة العاصفة نار الحرب،كذلك فإن عبادة النور قد انتشرت إلى إيجة وسوس،وأخذها أيضا الساميون السوريون والفلسطينيون، والملاحظ ان السومريين والاسيانيين،رأوا أن في الانسانية حظا من الحيوان،على اعتبار أن الانسان له هوية حيوانية الشكل

أما الآلهة أو المعبودات السومريين مع الملوك الذين كانوا يعتبرون أبناء لها،فكان عليهم تحقيق خصب الطبيعة كل حسب طابعه المحلي.ذلك بان يهيمنوا على الفيضان،ويديروا شؤون الانبات وينظموا الأحداث الكونية.وكان لأغلب هذه الآلهة زوجات منها(تيامات):إلهة المحيط وأم الآلهة وهي زوجة أبسو الأول إله المياه العذبة.وهناك:اشتار ابنة زنو إله السماء:وهي نموذج أول للزهرة وسيدة الحب وإلهة حربية أيضا

ومن هنا نرى،أن السومريين قدموا للحضارة الانسانية إنجازات عظيمة عديدة:فهم أول من أيتكر نظاما متطورا للري يقوم على شبكة من السدود والقنوات والمصارف،وأول من ابتكر الكتابة التي عرفت بالكتابة

المسمارية،وأول من أنشا المدارس النظامية.وشرع القوانين وأوجد المؤسسات الإجتماعية لحماية المجتمع والنظام الإجتماعي.كما ابتكر السومريون العربة ذات العجلات الأربع وبنوا السفن الشراعية لحماية تجارتهم.

وعلى الرغم من هذه الإنجازات لم يتمكن السومريون من الصمود في وجه جيرانهم الأكاديين؛فمدنهم لم تمتد فيما بينها،بل بقيت كل منها مدينة مستقلة،لها ملكهاوحكومتها وآلهتها.إن السيادة السياسية للسومريين لم تدم طويلا،فقد جاءت أسرة "كيش" السامية بقيادة "سرجون"،فغلبت تلك الامبراطورية وتأسس السلطان الأكادي البابلي.

الأكاديون ٢٣٧١ – ٢٢٣٠ ق.م

استقر الاكاديون – وهم شعب سامي نزح من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات – إلى شمال موطن السومرين – ،فبنوا عاصمتهم "أكاد" وعاشوا قرونا عديدة قبل أن يفرض ملكهم سرجون الأول سلطانة على المدن السومرية ويوحدها مع بلاده في عام ٢٣٥٠ ق.م.ويكون مع ذلك أقدم واعظم

امبراطورية في تاريخ الحضارة الانسانية.

ظهـر سرجـون حـوالي عـام ٢٣٥٠ق.م.والتحـق بخدمـة ملـك يـسمى "ادزربابا" كان حاكما لمدينة "كيش"،وكان يعمل عنده ساقيا ثم قام ضده بثورة واستولى على الملك،وأخذ يستولي على مدينة بعد اخرى حتى خضعت لـه مـدن العراق الشمالية ودمر(الجوتيين)في جبال زاغروس،ثم أخضع مدن الجنـوب إلى أن استولى على المدن السومرية كلها.ثم ذهـب مـرة اخـرى نحـو الـشمال حتـى وصل إلى الاناضول.ثم استولى بعـد ذلـك عـلى عـيلام وهـي الآن في الجنـوب الغربي من ايران،ثم اتجهت جيوشه إلى قلب آسيا الـصغرى عنـدما اسـتعان بـه تجار من بلاد ما بين النهـرين مـن اضـطهاد حـاكم تلـك البلاد،بـل إن إحـدى الأساطير المتأخرة تنسب إليه أنه استولى على جزيرة قبرص.ووصـل إلى جزيـرة كريت.

نشر سرجون الأول اللغة الأكادية السامية في الـبلاد التـي فتحهـا، وشـهد عصره انتعاشا اقتصاديا بسبب عنايته بالأمن والزراعة والري والتجارة.

وكانت مملكته أولى امبراطوريات بلاد الرافدين،ومن الجدير ذكره ان مملكة سرجون كانت أولى الامبراطوريات التي حققتها الشعوب السامية،لأن سرجون لم يكن سومريا بل كان ساميا.أما الأكادي فهي نسبة إلى مدينة أكاد التي جعل منها عاصمة ملكه وإليها تنسب اللغة الأكادية وهي إحدى اللغات السامية.

ولم تستمر امبراطورية سرجون طويلا٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م بل سرعان ما قامت بها الثورات.وانتهت عائلة سرجون،ثم حدثت نكسة أخرى وانهار صرح الحكم السامي تحت ضربات نزلت على العراق من شعب هندو – اوروبي كان يقطن في جبال زاغروس،وهم الجوتيون.فانتهت ايام الامبراطورية الأكادية – وكان ذلك في منتصف القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد.

البابليون ١٨٩٤ – ١٥٩٤ ق.م.

كان العموريون – وهم فرع الساميين الذين هاجروا من جزيرة العرب.وتوغلوا فيما بين النهرين في النصف الأول من القرن الثالث

ق.م.حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م.وقد أخضع أول ملوكهم(سموايوم)بـلاد سـومر بما فيها عيلام.وتمكن حمورابي – سادس ملوك الأسرة البابليـة – والـذي حكـم ٤٢ سنة (١٧٩٢ – ١٧٥٠ق.م).أن يجمع بين السومريين والساميين ويـدمجهم معا في شعب واحد عرف باسم البابليين[١] نسبة إلى عاصمتهم بابل.واستطاع هذا الملـك أن يخـضع لـه كـل الـدويلات الأخـرى مثـل دولـة مـاري ولارسـيا وعيلام.ووصل جنوبا إلى الخليج العربي ولكنه لم يستطع بعد ذلك ان يـصل إلى البحر الأبيض المتوسط ولم يستطع الاستيلاد على مدن الشاطيء لانها كانـت إذ ذاك تدور في فلك النفوذ المصري

كان حمورابي من أعظم شخصيات التاريخ القديم وكان يعتـبر نفـسه فـوق مستوى البشر؛إذ كان يسمي نفسه "أله الملوك"،وتعتبر فترة حكمه أزهـى فـترة في تاريخ المملكة البابلية القديمة،وقد ورث الملك عن أبيه،وحارب وانتصر على كل من ناوأه،ولم يكن ظالما عاتيا أو متجبرا على من يهزمهم،كما كان قلبه ممتلئـا بالتقوى،وكان يعزو كل شيء إلى الإله"مـردوك" الـذي كـان يـرى فيـه حاميـا شخصيا له.

إن خير مصدر لدراسة شخصية حمورابي وأعماله وحالة البلاد في عهده هـو قانونه الشهير الذي شرع في كتابته في أوائل أيام حكمه.ومـن الجـدير ذكـره أن هذا القانون قد عملت نسخ كثيرة منه كانت إحداها تلك التي نقلها أهل عيلام إلى سوسا في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد كغنيمة حرب،وعثـرت عليهـا بعثة فرنسية عام ١٩٠٢م فنقلتها إلى متحف اللوفر كغنيمة من الغنائم الأثرية.

ومن هنا نسرد بعضا من اهم نصوص قانون حمورابي الشهير:

- إذا أدلى سيد بـشهادة كاذبـة لـدعوى مـا،ولم يثبـت صـحة الكلـمات التـي نطقها،فإن كانت تلك الدعوى تتعلق بدعوى حياة فإن ذلك السيد يعدم.

- إذا أعطى قاض حكما وأصدر قرارا وحدث التصديق على رقـيم مختـوم ثـم غير حكمة بعد ذلك فعليهم أن يثبتوا أن ذلك القاضي قد غير الحكم الـذي أصدره،وعليه ان يدفع اثنتي عشرة مرة قيمةالشكوى التي رفعـت في تلـك الدعوى،وزيادة على ذلك عليهم ان يطردوه أمام الجمع مـن فـوق كرسـيه للقضاء،وعليه ان لا يجلس ثانية أبدا مع القضاء في دعوى.

- إذا قام سيد بالسرقة وقبض عليه فإنه يعدم.

- إذا اجتمع خارجون عن القانون في حانة إحدى بائعـات الخمـر،ولم تعتقـل أولائك المتآمرين،ولم تأخذهم إلى القصر فإن بائعة الخمر هذه تعدم.

- إذا أشار سيد بسوء إلى كاهنة معبد أو إلى زوجة سيد آخر،ولكنـه لم يـستطع إثبات شيء ضدها فإن هذا السيد يؤخذ إلى حضرة القضاة،ويقصون أيـضا نصف شعره.

- إذا قبض على زوجة شخص مضطجعة مـع رجـل آخـر فيجـب علـيهم أن يوثقوا الاثنين ويلقوهمـا في المـاء،وإذا رغـب الـزوج في الإبقـاء عـلى حيـاة زوجته،ففي هذه الحالة يستطيع الملك أن يبقي على أحد رعاياه.

- إذا ضرب ولد أباه فعليهم أن يقطعوا يده.

- إذا فقأ سيد عين ابن أحد السادة فعليهم أن يفقأوا عينه.

- إذا صفع أمد العامة شخصا مـن طبقتـه فعليـه أن يـدفع ١٠ شـقلات مـن

الفضة (المنيا= ٦٠ شقل).

- إذا أجرى طبيب عملية كبيرة لسيد بآلة برونزية وسبب وفاة السيد،أو فتح محجر عين سيد وسبب فقد بصره،فإنهم يقطعون يده.

- إذا كان رقيقا لسيد فعلى صاحب الرقيق أن يدفع شقلين من الفضة للطبيب.

- إذا قام طبيب بيطري بإجراء عملية كبيرة لثورأو حمار وأنقذ حياته،فإن صاحب الثور أو الحمار يعطي للبيطري سدس ثمنه من الفضة.

- إذا قام بناء بتشييد منزل لسيد ولكنه لم يقم بعمله جيدا أو كان نتيجة ذلك انهيار المنزل الذي بناه ونشأ عن ذلك وفاة صاحب المنزل فإن هذا البناء يعدم.

- إذا تسبب ذلك في وفاة ابن صاحب المنزل فإنهم يعدمون ابن ذلك البناء.

وقد سجلت هذه القوانين على لوحة اسطوانية يبلغ إرتفاعها٢.٢٥م والمصنوعة من حجر الديوريت،وتناولت هذه المواد القانونية أكثر مشاكل الناس،وفي أعلى اللوحة يرى حمورابي رافعا يده إلى مستوى فمه علامة التعبد لإله الشمس "شمش" الذي يجلس على العرش وكان حمورابي يتلقى منه هذا القانون.

ويبدو أن قانون حمورابي لم يكن جله من مستخدمات حمورابي أو عصره.بل هي مجموعة من قوانين المدن السومرية القديمة التي أصبحت لها مع الزمن قداسة خاصة.وأبرزها قوانين مدينة أور الشهيرة من السلطة المالية أمام الملك أورنامو١٢١٣ – ١٢٩٧ ق.م.والتي نشرت عام ١٩٥٢م.ولعل حمورابي جمع هذه القوانين وحذف منها ما لم يتفق مع روح العصر الذي عاش فيه وأضاف إليها تشريعات أخرى ثم بوب هذا كله وعممه.

إن عدد مواد القانون كانت ٣٠٠ على الأقل،ولكن لم يحفظ على الحجر إلا ٢٨٢؛إذ إن الملك العيلامي (شترك ناخونتي) الذي غزا بابل ونقل هذا القانون

محا الجزء الأسفل منه ليكتب عليه تسجيل إنتصاره،ولكن ذلك لم يتم

وللقانون مقدمـة طويلـة شـعرية الأسـلوب تتحـدث عـن شرعيـة حكـم حمورابي،وتأييد آلهـة الـبلاد لـه،مع رفـع الـشكر إلى هـؤلاء الألهـة وتمجيـدهم لمساعدتهم له في توطيد العدالة وهداية الحكام،ثم يذكر بعد ذلك ما قام بـه هـو نفسه من أعمال جليلة.ويختم مقدمته برجاء الآلهـة أن تفنـي وتزيـل كـل مـن لا يعمل بهذه التشريعات أو يحاول القضاء عليها.

ولو دققنا في هذه المواد نجدها مقسمة إلى اثني عشر قسما أو بابا تختلف كل منها في عدد المواد حسب أهميتها،وهذه الأقـسام يمكننـا تلخيـصها بـأن أولهـا يتعلـق بالقضاءوالـشهود،وثانيها بالـسرقة وثالثهـا بـالجيش ورابعهـا بالحقـل والبيت،وخامسها بحوانيت التجار والتعامل معهم،وسادسها يتعلق بالحانات، أما السابع فهو خاص بشؤون البيع،وثامنها بـشؤون العائلـة وعلاقـة أفرادهـا بعضهم بعـضا.ويخـتص القـسم التاسـع بـالتعويض والغرامـات عنـد نقـض التعهدات أو الاتفاقات،أما القسم العاشر فيختص بتحديـد الأسـعار وأجـور

تشييد البيوت والسفن،والحادي عشر يتعلق باجور الحيوانات والاشخاص،أما القسم الاخير فيختص بتحديد وضع الارقاء وما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات.

ولقد قسم قانون حمورابي الناس إلى ثلاث طبقات هي كالتالي:

طبقة ال(أويلم):

وهي طبقة الأحرار أو الأفاضل بين الناس أو قل طبقة السادة.

طبقة ال(مشكينوم):

وهي طبقة لا نعرف على وجه الدقة صفة أفرادها ويبدو أنهم كانوا على صلة بالمعابد وهي على اي حال طبقة ليست من الأرقاء أو من السادة،بل من عامة الشعب الأحرار.

طبقة الأرقاء:

إن اهم ما جاء به الساميون في هذا الاندماج لغتهم:وهي أغنى وأكثر مرونة

وأقوى على التعبير من المجردات من لهجة السومريين؛وقد مكنت السامية شعوب ما بين النهرين من التأثير في اسيا الغربية بقوة أشد وأوثق من أثر السلاح فخدمت أغراضهم بقدر ما دلت على إنهزام السومرية ، ومع ذلك فقد اتخذ الغزاة اللغة السومرية لغة مقدسة،فتمثلت لغتهم بعض ألفاظها وتعابيرها.بالإضافة إلى هذا فقد أسهم الساميون في تحويل الكتابة المسارية السومرية إلى الشكل البابلي والآشوري.هذا ومن الواضح ان البابليين عرفوافصل الكلمات إلى مقاطع،وتوصلوا إلى الاصوات البسيطة للحروف المتحركة المعروفة

أما المواهب الروحية السامية فقد كانت قوية بهذا الصدد،وما جاء به العموريون إلى ما بين النهرين من التراث الديني فكان قليلا غير مدرك.ولقد ادخل سادة سومر الجدد معهم عند غزو البلاد عبقريتهم السياسية،وهذا كل ما كان لازما لإحداث إنقلاب لم يؤثر في العقائد المحلية فحسب،بل كانوا على نقيض ذلك أذ وضعها ونظمها.وكان اغلب الاهة السومريين لم يتمتعوا إلا بنفوذ محلي.هذا،وقد حاول الكهنة تقسيم الالهة إلى طبقات ثلاث:مثل آنو،بيل

،اير،أو مثل سين،وشماس، أداد،غير أن مـاردوك – الـه بابـل – ضـل صـاحب النفوذ الأعلى وفوق كل الالهة.

لقد كون السومريون والساميون الأكاديون والبابليون نظرية القربان التـي قدر لها أن تشغل مكانا رئيسيا في العقائد الانـسانية،ذلك أن الغـذاء القربـاني لا يحيي الاله فحسب،بل يحيي المؤمن به أيـضا،ولما كـان القربـان يـؤدي إلى افنـاء الشيء المضحى به،فهو يهدم اللعنات ويزيل الادنـاس ويحـل محـل المـضحي،أو محل الشخص الذي تمت الأضحية الشعائرية لصالحه،فكان الكهنـة الأكـاديون يقـدمون "رأس حمـل قربانـا عـن رأس إنـسان،ورقبة حمـل عـن رقبـة إنسان"،ليحصل هـذا عـلى الـصحة.ولعـل تفـسير ذلـك أن المـؤمن يعتـبر أن العلاقات الطبيعية بين الانسان والهته قـد انفـصمت بتـدخل الـشياطين، فلـذا جاءت تلك الطقوس فمنعت عمل تلـك القـوى الـشريرة،وأعادت التقـى إلى حالته الطبيعية.

ومن غير المعتقد هنا أن البابلويوم عملوا بهذه الشرائع دون أن يراعوا سـير الوقائع المنتظمة؛ بل هم على النقيض من ذلك امتازوا بالقدرة الكونية المـستندة

على الاعتقاد الدقيق؛ومنطقهم بتخلص في الاعتراف بوجود صلات بين الحوادث والظواهر،وسحرهم لا يسير إلا على هذه الطريقة في تبرير أعماله استنادا إلى نتيجة معينة جاءت من علة معين؛انهم لم يحاولوا فهم هذه الامور بل،خضعوا لها خضوعا مجردا عنيدا،إما لعدم مقدرتهم حقيقة،واما لاعتقادهم أنها فوق مستواهم.لقد كان من جراء اعتقاد البابليين بالضرورة،مضافا إلى دقة الملاحظة،أن أصبحوا سادة في علم السحر،ومبتكري علم التنجيم والعرافة والنبوءة

لقد كان إخلاص الأطباء البابليين تمهيدا لا بد منه لعلم الحياة،وكانوا إذا ما سردوا وقائع،-حتى ولو كانت مزعومة-،قاموا بخدمة إلى المعرفة غير المتميزة كما لو وضعوا نظريات مبسطة ،فضلا عن ان فلسفتهم النفعية(البراجماتية)،مضافة إلى اعتقادهم بالقضاء والقدر،قد وضعت بطريقة موفقة مسألة العمل الأنساني دون التظاهر بالتناقض الجالب لليأس ،ودون أن يخفوا الصعوبة النظرية التي يتطلبها التوفيق بين الاختيار والجبر؛فالاقدار معينة لكن هذا لا يفرض عدم ضرورة الاعمال.

ومن هنا نرى أن البابليين لم يضعوا نظرية للأخلاق، غير أنهم أتخذوا قوانين منذ أقدم الأزمنة تدل على اخلاق مستقلة؛ففي مدينة سوس نجد أن الخصومات القانونية كان يفصل فيها في المعابد ،وأن الالهة كانوا يصدرون أوامرهم بالعقاب.وبالنظر ايضا إلى الشرعية العيلاميةالتي كانت قد اسندت السلطات القضائية إلى السلطات المدنية ومنحت دورا هاما للتصرفات الفردية . أما القوانين البابلية- كما وضعها حمورابي- فقد تخلصت أكثر من ذلك من العادات العشائرية؛إذ أسست نظاما قابلا للتطبيق على شعوب وبيئات مختلفة ومتباينة ،من تجار أو مزارعين وضعوا تحت سيطرة هيئة نظامية قوية،وجعلوا خاضعين في القضاء لأوامر الملكية.

لقد جاءت مرحلة الحضارة البابلية بقيام عهد الأخلاق الذي قام مقام مذهب المنفعة السحري،فصاروا يحاكمون من عمل الشر باعتباره مخطئا،بدلا من ادخال روح الشيطان فيه،أو معاملة صورته بما يراد به من شر،ولذلك صار أمرا يتطلب ضربا من السحر العقلي يكمل السحر المادي.وقد أصبحت المواد الطبيعية مهما استعملت في شكلهات النقي لا تكفي لدفع الخطيئة ،سواء أكانت

تلك المواد ماء أو حبا أم ملحا،بل كان يجب تدابير روحية كالقسم والصلاة،وترتب على ذلك موقف جديد في النظام الديني،فبدلا من أن يضطر المؤمن الالهة إلى تحقيق غرضه،صار يقبل إرادته مهما كانت قضيته مسلما بها.

إن تطور الافكار الاخلاقية لم يؤثر في علم الأخرة،وظل الموتى باقين دون أن يكونوا خالدين ؛فالخلود صفة خاصة بالالهة.ولعلك تسأل عن هذه المفارقة بين الخلود والبقاء وأنا اقول لك: ان البابليين اعتقدوا ان الحياة غير الدائمة في الاخرة لا تترك أصلا في الغبطة ولا مجالا للعودة إلى العالم .لذلك بقي موتاهم خالدين لكن الخلود صفة خاصة بالالهة دون سواهم.

ولقد هاجم الحثيون- وهم شعب جبلي غير سامي – مدينة بابل عام ١٥٩٥ ق.م.فدمرها تدميرا كاملا،ونهبوا كنوزها ونفائسها،ثم هاجمها الكاشيون وهم ايضا شعب غير سامي واحتلوا مدينة بابل وأقاموا فيها حتى عام ١١٧٥ ق.م.

الأشوريون٣٠٠٠ – ٦١٢ ق.م.

الأشوريون شعب سامي هاجر من الجزيرة العربية في الألف الثالث قبل الميلاد، واستقر في شمال العراق.ينتسب الاشوريون إلى عاصمتهم آشور التي كانت موطن إلههم العظيم أشور قبل أن ينقلوا عاصمتهم إلى مدينة نينوي.

نشأ الاشوريون على الحرب بسبب طبيعة بلادهم القاسية،وتعرضهم لهجمات الشعوب الأخرى فكانوا مضطرين إلى الغزو للدفاع عن أنفسهم فحصنوا مدنهم وبقوا على حالة استعداد دائم للقتال واسسو اشد القوات العسكرية بأسا فيما عرفها التاريخ القديم قبل الانظمة الرومانية واستخدموا تلك القوات ضد البابليين وكذلك من اجل السيطرة على آسيا القديمة بأسرها.حقق الأشوريون انتصارات عسكرية كبيرة بفضل ادخالهم نظام الخيالة وصنع اسلحتهم من الحديد بدلا من النحاس ،ومهارتهم في استخدام أدوات الحصار لاقتحام القلاع والحصون.وقد تمكن الملك (تغلات بلاسر) عام ١٠٠ ق.م.من إعلان نفسه"ملكا للعالم كله وملك الملوك القادر".وهو باعلانه هو

وضع ادعاء سيادة عالمية.وتجدر الاشـارة إلى ان الاشـوريين تميـزوا بوحـشيتهم إزاء أعـدائهم.ولم يـضيفوا شـيئا إلى الحـضارة البابليـة التـي تلقوهـا بقبـول واضح،وحفظوا شواهدها في حولياتهم ومكتباتهم،ونشروا نورها حتى الحدود الاغريقية والمصرية.

أما الفكر الديني لديهم فقط تأسس على مبـادئ الأخـلاق والخوف؛آشـور الذي أسقط(ماردوك)عن عرشة لم يطلق عليه اسم العاطف إلا بقصد استمالته وتخفيف ظلمه

ومن المعلوم هنا أن الآشوري اختلف عـن مثيلـه الكلـداني بطبعـه الغلـيظ وقسوته الشديدة الذي كان في تشريعات حمورابي.

ضعفت الدولة الآشورية بعد وفاة اشـور بانيبـال فثـارت الـشعوب التـي خضعت لها.

الكلدانيون ٦١٢ – ٥٣٩ ق.م.

قبل ان يتمكن الكلدانيون من الاستيلاء على بابل كـانوا يقطنـون شـواطئ الخليج العربي حيث أسسوا هناك منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد أو ربما قبـل ذلك سلالة الأمراء التي عرفت عند المؤرخين بسلالة القطر البحري أو سـلالة بابل الثانية التي كانت بالدرجة الأولى من بقايا السومريين وقد تمكن ملوك هذه السلالة من بسط سيطرتهم ونفوذهم على سواحل الخليج العربي.والكلـدانيون هم من الفصائل البدوية السامية وقد اشتق اسمهم من قبيلـة "كلـدي" وكـان أول ملوكهم (ايلسوما إيلو).ومن اشهر ملوكهم نبوخذ نصر الثاني ٦٠٥-٥٦٢ ق.م.الذي اعاد إلى بابل مجدها القديم فجدد شبكة الـري وشـق الطـرق وبنـى الكثير من القـصور والمعابـد، كـبرج بابـل الـشهير،والجنائن التـي عـدت مـن عجائب الدنيا السبع.

اتسعت الدولة الكلدانية فشملت بلاد ما بين النهـرين وفلـسطين،وسوريا وعيلام،ويذكر ان نبوخذ نصرر قام بإخماد ثـورة الاقليـة اليهوديـة في فلـسطين

وسباهم إلى بابل عام ٥٨٦ ق.م.خلف نبوخذ نصر ملوك ضعاف،لم يحافظوا على حدود الدولة،مما شجع القائد الفارسي كورش على احتلال بابل عام ٥٣٩ ق.م. منهيا بذلك حكم الكلدانيين.

الكنعانيون:

وقبل التحدث عن الكنعانيون لا بد من الإطلاع على أصلهم لقد كانوا ينحدرون من قبيلة سامية كبيرة نزحت من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب على الأرجح خلال الهجرة السامية الكبرى،وكان منها الاموريون الذين استوطنوا في داخل سوريا، وتأثرت ثقافتهم تأثيرا كبيرا ببلاد الرافدين .ومنها أولئك الكنعانيون الذين استوطنوا الشاطئ وتأثرت ثقافتهم تأثيرا واضحا وكبيرا بحضارة مصر.

ولقد حاول بعض أساتذة الساميات تفسير اسم كنعان بانه مشتق من أصل سامي "خنع،قنع،كنع"إشارة إلى الأرض الواطئة لسكانهم على الساحل .ولكن الراي المقبول من أكثر المشتغلين بهذه الدراسات هو أن أصل كلمة :كنعان غير

سامي ،ويرجحون اشتقاقه من كلمة هندو- اوربية تعني الـصبغة القرمزيـة؛إذ كانت هذه المنطقة تشتهر بهذه الصبغة عندما اتصل الحوريـون بتلـك الـبلاد في القــرن الثــامن عــشر أو الــسابع عــشر قبــل المــيلاد.وفي اللغــة البابليــة كتبــوا اسمها:"كنغي"ووردت ف ياللغة الفنيقية نفسها تحـت اسـم "كينـع".ووردت في اللغة العبرانية "كنعان".ومنذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد أصـبحت كلمـة "كنعاني" مرادفة لكلمة "فنيقي".

إن أصل "فنيقيا" مشتق على الارجح من كلمة يونانيةتعني القرمز أو اللون الارجواني ،ولذلك لشهرة هذا الساحل بصناعة الأصـباغ القرمزيـة والملابـس الأرجوانية اللون.

أقام الكنعانيون العديد من المدن (الدويلات) في الساحل والـداخل ،كـان من أهمها أوغاريث،وجبيل وصور على الـساحل ،وحمـاة، ودمـشق ،واريحـا في الداخل .ويبدو أن تفرق هذه الدويلات ،وعدم وحدتها في دولـة كبـيرة قويـة، أوقعت بلاد كنعان تحت هجوم من البر والبحر .فقد وقعت المنـاطق الداخليـة

تحت سيطرة الارامين والعبرانيين القادمين من بادية الشام .كما وقعت بعض المناطق الساحلية تحت غزو شعوب البحر مثل قبائل بلستي أو فلستي الذين ربما قدموا من منطقة بحر إيجه.الأمر الذي دعا الكنعانيين إلى الهجرة عبر البحر المتوسط ،فهاجر بعضهم إلى سواحل البحر المتوسط،وأقام مستوطنات عديدة في حوضه خاصة على سواحل بلاد المغرب(شمال افريقية)حيث سماهم الاغريق بالفونيين أو البونيين ،وكانت اهم مدينة ودولة لهم في بلاد المهجر قرطاجة التي اقامت امبراطوريةبحرية منذ القرن التاسع قبل الميلاد(٨١٤ق.م).

ومن أهم مظاهر الحضارة الفينيقية هي الحروف الهجائية وأثرهم في نشر الحضارة في مختلف أنحاء العالم.فلقد كان للفنيقيين مآثر كبيرة على التقدم الانساني،ولا شك في أن نشرهم للحروف الهجائية في أرجاء العالم القديم هو أهم ما أقاموا به فلقد كان قدماء المصريين ،وكذلك قدماء سكان بلاد الرافدين،يكتبون وثائقهم بكتابات مكونة من مئات من العلامات والمقاطع وكل علامة منها صورة لشيء في الطبيعة سواء أكان حيوانا أو نباتا أو جمادا ......الخ.ولهذا كان الالمام بها يحتاج إلى تخصص ودراسة .وقد حالت هذه

الصعوبات دون انتشار الكتابة،وبالمناسبة كان اليوم الذي اهتدى فيـه الانـسان إلى مبدأ استخدام الحروف الهجائية؛أي الذي يمثل كل منها صـوتا معينـا دون النظر إلى موقعه في الكلمة أو أصله أو معناه،إن كان لـه معنى،يومـا مـن الايـام العظيمة في تاريخ البشرية لان هذا الاختراع كان من أعظم ما عرفه الانـسان في تاريخـه الطويـل.وتجـدر الاشـارة إلى أنـه في عـام ١٩٠٥م. عثـر الاثـري البريطاني(فلندرز بتري)في منطقة (سرابه الخادم)في سيناء على كتابات غريبة على جوانب بعض مناجم الفيروز وعلى بعض النصب المقامة في المعابد .وكانت هذه الكتابات مكتوبة بحروف يشبه بعضها الكتابة المصرية القديمة ،وبعضها الاخر لا يشبهها .وقد جرت محاولات كثيرة لفك رموزها .ولكن منذ البداية أطلقـت عليها علماء الدراسات اللغوية اسم الكتابة السينائية وادركوا الصلة بينهما وبين بعض ما كان معروفا من الكتابات الفنيقية واليونانية القديمة.

ولقد كان تاريخ هذه النقوش السينائية هـو منتـصف الخـامس عـشر قبـل الميلاد أي حوالي عام ١٥٠٠-١٤٠٠ق.م.وأن الذين اسـتخدموها هـم بعـض العمال والاسرى السوريين الذين كانوا يعملون مع المـصريين في تلـك المنـاجم

،ولا يوجد أي دليل على الإطلاق بأن الفينقين بالذات هم الذين حققوا هذا الاختراع دون غيرهم من الشعوب بل الارجح هو أن هذه الخطوة قام بها شعب أو أكثر من الشعوب السامية في داخل سوريا في اوقات متقاربة ؛إذ عثر على كتابات مختلفة في مناطق متعددة؛من اهمها ما عثر عليه في اوجاريب (رأس شمرة) من كتابات بالطريقة المسمارية لكنها حروف هجائية عددها ٢٩حرفا،ويرجع تاريخها إلى عام ١٤٠٠ق.م.على وجه التقريب.

وهناك أيضا كتابات ابجدية اخرى كتبت بها نقوش (أحيرام) ملك مدينة جبيل (بيبلوس)،وكانت مكونة من ٢٢ حرفا هجائيا ويرجع تاريخها إلى حوالي عام ١٠٨٠ق.م.وكانت أنجح الطرق ويرجع انها كانت الاصل الذي اشتقت منه الكتابات السابقة الهجائية الأخرى وأهمها الفينيقية والعبرية القديمة والآرامية والسبأية(العبرية الجنوبية).وكان للفنيقين الفضل الاول في نشر هذه الطريقة في الكتابة في العالم القديم.

ومن المعروف ان الكتابات السامية بوجه عام تسقط حروف العلة ولا

تكتب إلا الحروف الصحيحة،وقد أدخل الاغريـق تحـسينا كبـيرا عـلى الكتابـة الفينيقية فاخذوا بعض الحروف السامية المعروفة باسـم الحـروف الـصحيحة ، الضعيفة وجعلوها حروفل للعلة واستخدموها ذلك منـذ القـرن التاسـع قبـل الميلاد؛أي منذ انتقال الكتابة الفينيقية اليهم كما اعترفوا هم بذلك .هذا بالنـسبة إلى الحروف الهجائية.

وبالنسبة لدورهم في نشر الحضارة لقد احب الفينيقيـون البحـر والتجـارة الخارجية،وإقامة المستعمرات البعيدة،وسرعان ما صاروا مـن أقـدر الـشعوب الملاحية التي عرفها العالم القديم ،بل ربما كانوا اقدرهم جميعا .لم يهمل الفنيقيون الزراعة بل استغلوا كل شبر يمكن زراعتـه في بلادهم،كـما أحـدثواتطورا غـير قليل في بعض الـصناعات ،وأتقنـوا صـناعة بعـض المعـادن؛اذ عرفـوا تعـدين النحاس والبرونز منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد ،وبدأوا يستخدمون الحديـد منذ الالف الاولى للميلاد،كما تعرف أيضا أنهـم كـانوا يحـصلون عـلى الـذهب والفضة والقصدير من أسفارهم البعيـدة ،وأنهـم تقـدموا تقـدما غـير قليـل في صناعة الحلي وفي صناعة ادوات الزينة وصنع القطع الفنية من العاج،كما تفوقوا

تفوقا كبيرا في صناعة الزجاج.

وبرع الفنيقيون في صناعة النسيج ،وكانوا يصنعون الاقمشة الصوفية منذ منتصف الالف الثاني قبل الميلاد ،وعرفوا المنسوجات القطنية بعد ذلك بوقت طويل،ربما في القرن السابع أو السادس قبل الميلاد ،كما يرجح بعض المشتغلين بتاريخ الصناعات أن مدينة صور كانت تعرف صناعة الحرير في القرن السادس قبل الميلاد.ومما ساعد على رواج النسيج الفنيقي اتقانهم لصبغه بالالوان الزاهية،وبخاصة اللون الارجواني.

ولم يكتفوا بحمل السلع والحلى المصرية وادوات الزينة من مصر لبيعها والكسب منه في مختلف أنحاء العالم ،بل كانوا يقلدون الكثير من الاشياء المصرية ويكتبون عليها ما يشبه اللغة الهيروغليفية،ويبيعون ذلك على انه سلع مصرية .وتجدر الاشارة إلى وجود كثير من الادوات في متاحف العالم الكبيرة من صنع الفينقيين تقليدا للصناعة المصرية.وأن مثل هذه الاشياء كانت مرتبطة تماما بنشاطهم البحري ؛واينما وصلت سفنهم للمتاجرة،وصلت الاشياء

الحقيقية أو المقلدة،وكانت سببا مباشرا في كثير من الاحيان لادخال بعض مراحل الفن المصري على فنون تلك البلاد .ويكفي القول بأن هذه الاثار الصغيرة الحجم عثر عليها في جميع بلاد البحر الابيض المتوسط وفي كثير من بلاد البلقان ،وفي جنوبي روسيا الاتحاديةوفي انجلترا،وعلى الساحل الغربي لافريقيا.

ونرى هنا أن الفنيقيين ركبوا البحر ونشروا الثقافة والتجارة في جميع أرجاء البحر المتوسط وأسسوا لهم مستعمرات تجارية على الشواطئ في شماله وجنوبه،ولم يكونوا حملة تجارة فحسب،بل كانوا حملة ثقافة وعلم ،وبخاصة ثقافة ما بين النهرين إلى جميع الأرجاء.وكانت أكبر خدمة أدوها هي نشرهم الحروف الهجائية والتي كانت سببا مباشرا لنشر العلم في اوروبا الجنوبية ،وكان لهم أثر مباشر على نهضة بلاد اليونان فيما بعد.

الفصل الرابع :

مملكة فارس وحضارة الشرق الاقصى وأهم الديانات

منذ القرن السادس قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادي انتقل تراث ما بين النهرين إلى المملكة الفارسيةالتي اثرت في حضارات الشرق والغرب على حد سواء.

ومن اهم ديانات هذه الفترة:

زرادشت والالوهية :

زرادشت مصلح اقدم الاديان الايرانية في القرن السادس ق.م.وقد اختلف في مكان ولادته.غير ان من المؤكد ظهوره في ايران.ولقد كان زرادشت من الناحية اللاهوتية(العقائدية)موحدا،غير انه من الناحية الفلسفية كان ثنويا.

تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر،وبدأ له أن الصراع قائم

بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الـشر،واعتقد ان الخـير لـيس الا كائنا إلهيا اطلق عليه اسم مازدا أو أهورا مازدا ومعناه رب الحكمة ورأى انه هو الله.ويقف أمام أهورا وأعوانه ،جماعة شريرة ترأسها جماعة شريـرة قويـة اطلـق عليها اسم أهريمان وهو الذي يعرف باسـم الـشيطان عنـد أصـحاب الاديـان السماوية.

كانت هذه الديانة من أنبل الديانات التي ظهرت في العالم .وقد دعت هـذه الديانة كل انسان وأهابت به أن يختار أحد الطريقين:إمـا أن يمـلا قلبـه بـالخير والنور وانما أن ينغمس في الشر والظلمة،وسواء اتخذ الانـسان هـذا الـسبيل ام ذاك،فانه سيلاقي جزاءه ويحاسب،بعد البعث،على ما أتاه

بوذا والنرفانا :

كانت جماعات مختلفة الأصول قـد اسـتوطنت الهنـد،وكانت أغلـب هـذه الجماعات من القبائل الاندو اوربية(الارية)،ويبدو أن هذه الجماعات هـي التـي اعطت اسمها للهند.

عرف الهنود معتقدات متعددة؛كقوى الطبيعة والديانة البراهيمية،البوذية والجانية وغيرها.اما البوذية فتنسب إلى المعلم الهندي جوتاما المولود حوالي عام٥٦٠ ق.م.وهو الذي حمل في ما بعد اسم بوذا وتعني المستنير،واصبح أعظم معلم ديني في آسيا،كرس حياته لمعرفة الحقيقة الخالدة.

اشتملت تعاليم بوذا على خمس قواعد خلقية للهداية وتأمين الحياة السليمة وهي:

- لا تقتل كائنا حيا
- لا تأخذ مما ليس لك
- لا تكذب
- لا تشرب المسكرات
- لا تقم على دنس

حارب بوذا تقسيم المجتمع إلى طبقات ،كما حارب القول بتناسخ

الأرواح،ودعا إلى حالة التفحص والتأمل للوصول إلى حالة: "النيرفانا" اي اتحاد الفرد بالله سبحانه وتعالى،والحصول على السعادة الكلية بعد الموت.

كونفوشيوس " الانسان النبيل والطاوية :

كان الصينيون قد ظهروا على شكل مجموعات في احواض الانهار،ومارسوا الزراعة بشكل بدائي بسيط ،ثم ظهرت العائلات الاقطاعية التي ملكت الاراضي الواسعة ،واستخدمت الفلاحين بزراعتها ،وبذلك سادت نظم الاقطاع في الصين فترة من الوقت.

كانت معتقدات المجتمع الصيني خليطا من الدين ،والاخلاق،والفلسفة،وقد مرت هذه المعتقدات بعبادة مظاهر الطبيعة والاسلاف ،ثم سادت بينهم السيادة الكنفوشية والطاوية البوذية وديانات اخرى.

تنسب الكنفوشية الى المعلم والفيلسوف الصيني كنفوشيوس(٥٥٧-٤٧٧ق.م).الذي نادى بمبادئ الحرية والمساواة وتعتبر اقواله المحرك الاساسي

للعقل الصيني طوال الفي سنة تقريبا.

نادى كنفوشيوس بتنظيم الاسرة (وبنظرية سيادة الشعب).ويعزى اليه القول ان السماء ترى ولكنها ترى بعيون الشعب والسماء تسمع لكنها تسمع باذان الشعب.

اما الطاوبة فهي احدى ديانات الصين ومعتنقها تسمى طاوي وتنسب الى علم معاصر لكونفوشيوس.وكان الطاويين يمارسون الفضيلة المعروفة باسم (تي)الذي يقوم مبدؤه على العزلة وعدم الاعتداد بالنفس.





الباب الثالث :

مدخل إلى الحضارة اليونانية



الفصل الأول :

الميثولوجيا وشعر الملاحم الهوميرية

إن الملاحم الهومرية هي أقدم ما وصل إلينا من ملامح الفكر اليوناني، وهي تؤلف ملحمتين كبيرتين هما الالياذة والاوديسا؛وتنسبان إلى هوميروس،غير أن الشك قديم في حقيقة هوميروس،وفي نسبة الملحمتين إليه.وقد ذهب بعض النقاد المتأخرين إلى أن الملحمتين هما لطبقتين من الشعراء،بحيث ترجع الالياذة إلى القرن التاسع،وترجع الاوديسا إلى أواخره والنصف الأول من القرن الثامن – وأن هوميوس أشهر أولائك الشعراء أو أنه أحدثهم عهدا،حفظ الملاحم وانشدها فنسبت إليه باعتباره الجامع لها .فإن اسمه يعني "المنسق". ويذهب فريق اخر من النقاد إلى أن هوميوس هو ناظم الملاحم وقد كانت تعبران عن أفكار في الطبيعة والالهة والانسان والاخلاق.

اما الطبيعة فهي عند -هوميروس – حية مريدة.وقد يكون هذا متابعة منه للتصور المعبر عنه بالبدائي،وهذا التصور مألوف عن الشعر في أيامنا هذه؛- ولا غرابة – في قول هومريوس مثلاأن "نهر زونتوس"استشاط غضبا لأن "أخيل"ملأه بالجثث،ولا غرابة كذلك في تشخيصه الليل والظلمات والموت والنوم والحب والشهوة،بل لا غرابة في تأليهه الارض وقولها أنها ولدت الجبال الشاهقة،والسماء المزدانة بالكواكب ثم تزوجت من السماء المحيطة بها من كل جانب،فولدت أقيانوس،والأنهار وأن أقيانوس المصدر الأول للأشياء،ذلك أن الأساطير القديمة في جملتها رموز تخفي وراءها مقاصد،وإذا ترجمناها إلى لغتنا المعهودة بدت واضحة مقبولة.

والآلهة في قمة الأولمب يؤلفون حكومة ملكية على رأسها زويس وكلهم في صورة بشرية،إلا أن سائلا عجيبا يجري في عروقهم فيكفل لهم الخلود ، وهم أقوى من الأبطال وأسرع حركة.يظهرون للناس أو يختفون كما يشاؤون،يسكنون قصورا في السماء ضخمة،يقضون فيها حياة ناعمة في ربيع مقيم،يأكلون ويشربون ويتزاوجون،تجرحهم السهام والرماح يتألمون

وينتحبون.وهم حادثون وجدوا في الزمان،وما يزالون خاضعين لتعاقب الأيام،وهم على مثل هذا النقص من الناحية الخلقيةلهم شهواتهم وعصبياتهم؛يتفرقون أحزابا ويتدخلون في نزاعات البشر،يؤيد بعضهم اليونان، ويناصر البعض الآخر أهل طروادة؛يتشامتون ويتضاربون ـ، يخونون ويغدرون،لا يراعون من البشر إلا من يتقرب إليهم كيفما كانت أخلاقه ، ويذهبون في رعايتهم لمختاريهم إلا حد أن يهبوهم التوفيق في الخديعة،أو المهارة في السرقة،لا يحفلون بعدل أو بظلم إلا فيما ندر.

أما الانسان ، عند هوميوس،فهو مركب من نفس وجسد والجسد مكون من ماء وتراب ينحل إليها بعد الموت،والنفس هواء لطيف متحد بالجسد متشكل بشكله،ينطلق بالموت شبحا دقيقا لا يحسه الأحياء ،فينزل إلى مملكة الموت في جوف الأرض ،وقد احتفظ بالشعور وفقد القدرة على الحركة،فهو يالم لذلك،ويقضي هناك حياة باهتة وتافهه خير منها ألف مرة الحياة على وجه الارض في ضوء النهار مهما تبلغ من البساطة والفقر ،وليس في هذا العالم الآخر ثواب ولا عقاب إلا في النادر،يوزعهما الالهة بمثل ما يوزعون في الحياة الفانية

من عدل معكوس ،فيحبون أصدقائهم وينكلـون باعـدائهم،وليس صـداقتهم عطفا على الخير أو عداوتهم نقمة على الشر

ومن هنا نرى أن الالياذة في هذا التصور في أحط دركـات التـشبيه.وأوقـح اشكال الاستهتار.نرى العاطفة الدينية ضعيفة إلى حد العـدم،والمبادئ الخلقيـة مقلوبة رأسا على عقب .

أمـا الاوديـسا فهـي أكثـر احترامـا للالهـة، لا تـصورهم منقـسمين عـلى أنفسهم،بل إنها تتحدث عن عدالة زيوس،وهي اكثـر تقـديرا للفـضيلة ،تمجـد الرجل الحكيم الشجاع الـصبور ،والزوجـة الوفيـة ، والابـن البـار ، والخـادم الامين،ومع ذلك فهي تصور الالهة يقـضون بالقـدر عـلى البـشر دون الاعتبـار لقيمة افعالهم ،والقدر يسخر من الفضيلة،ويعبث بالإرادة الصالحة .

لم يكن اليونان يجهلون الاخلاق القويمة ،أو يستهترون بالالهة.فقـد كـانوا وكانت الاسر العريقة منهم بنوع خاص ،على جانب عظيم من التمسك بالشرف .يـشيدون بتحكـيم العقـل وقمـع الـشهوة،والتجلد للمـصائب. وظـبط

اللسان،ومقت الكذب ومراعاة العدل بين الجميع لخير الجميع،واحترام الوالدين والعناية بهم في شيخوختهم والثأر لهم إذا لزم الأمر،وحسن اختيار الصديق ثم الوفاء له .وكانوا يرون تكريم الالهة واجبا تقضي به العدالة عرفانا لجميلهم،وتدفع إليه المصلحة استمدادا لعونهم،ويوحي به الخوف دفعا لغضبهم،وكانوا يحترمون القسم لوجوب احترام الالهة .

إن الشعر الهوميري لا يعد مرآه للموازن الأخلاقية والعواطف الدينية عند اليونان،ولكنه شعر كما ينشد في بلاد أمراء "أيونية"الذين كانوا على حظ وافر من الغنى والترف.فلم يكن الشاعر يتغنى بغير ما لا يروق له ،فيصور الحياة سهلة جميلة، والشهوة غلابة لا يوقفها وازع ،والقوة ممدوحة لذاتها لا يحدها حد.ولما كان اليونان قد درسوا على هذا الشعر جيلا بعد جيل ،وكان شعراؤهم قد نهلوا منه ونحو نحوه،فقد تأثروا به تأثيرا قويا في الدين والاخلاق. وسنجد الفلاسفة يعارضونه حتى نجد أشدها عند افلاطون

أما بالنسبة لهزيود الشاعر اليوناني ،الذي تكلم عن الدين والاخلاق في جد

ووقار. فقد نشأ""هزيود"في مقاطعة "يوتيبا؛فلاحا بعيدا عـن بهـرج الحـضارة ،ونظم للفلاحين ديوانا اسماه "الاعمال والايام"،ملأه حكمة وامثـالا تـسودها فكرة العدالة.وينقسم الديوان إلى أربعة أقسام رئيسية: الأول درس اخلاقـي في العمـل والحـث عليـه،يتخلل ذلـك حكـم متنوعـة ،أمـا الثـاني فنـصائح في الزراعة،يليها ارشادات في الملاحة والقـسم الثالـث:مجموعـة مـن الوصـايا في الزواج والعلاقات الإجتماعية والشعائر الدينية، أما القسم الأخير : فتقويم يدل على أيام السعد وايام النحس، ويحوي الشيء الكثير من الخرافات الشعبية.

ولنقتبس من أقواله ما يلي:

"السمك والوحش والطير يفـترس بعـضها بعـضا لأن العدالـة معدومـة بينها. أما الناس فقد منحهم زيوس العدالة وهي خير وأبقى".ويقـول كـذلك: "من يضر الغير يجلب الشر على نفسه.عين زيوس تبصر كل شيء إذا كان الـذي يريح الدعوة هو أكثر طلاحا فمن الضار ان يكـون الانـسان صـالحا،ولكني لا اعتقد أن زيوس الحكيم جدا قـد صـنع مثـل هـذا.إن سـاعة العقـاب آتيـة لا

محالة.وأن زيوس يهب القوة ويذل الأقوياء، يضع الذي يطلب الظهـور ويرفـع الذي يقعد في الخفاء".وخلاصة هـذا أن الحـق فـوق القـوة، والانـسانية فـوق الحيوانية.

وينسب لهزيود ديوان اخر بعنوان "اصـل الالهـة"،حـاول فيـه الـشاعر أن يؤلف مجموعة معقولة من الاساطير والمعارف القديمـة.افتتحـه بالـضراعة إلى آلهات الشعر أن توحي إليه ما كان وما هو كائن وما سيكون وأن تعلـن قـوانين الاشياء جميعا.ثم مضى يسلسل الاشياء والالهة :فوضـع في البـدء ثلاثـة اصـول :"كاوس،اي الهاوية أو الخلاء الذي ستحل به الموجودات؛"وجايا" اي الارض الحقيقية،و"ايـروس"اي الحـب او قـوة التوليـد والانتـاج .ثـم تنـتظم الكتلـة الارضية وينبثق النور من الظلمات،وترفع السماء فوق الجبال ويتهاوى البحر في مجراه العميق.ويدل ترتيب ظهور الاشياء على ان الشاعر راعـى مـا بيـنهما مـن علاقات عالية،وتمشى في تدرجه إلى النظـام عـلى مبـدأ أن الاصـغر يخـرج مـن الاكبر؛فاخرج الجبـال مـن الارض ،والانهـار مـن اقيـانوس ،وهكـذا الى الهـة الأولب،وهم اخر المواليد على اعتبار ان القوى الالهية سابقة على الالهة المكلفين

بتدبيرها.فهذا الديوان يعد اول محاولةو في العلم الطبيعي بالرغم من أن نصيب المخيلة فيه اكبر من نصيب العقل ،وأن الشاعر يروي ولا يفسر ،فـإن القـصص الرمزي كان سهلا مألوفا عند الأقدمين.وهذا نبغ في عهـده وبعـده بقليـل غـير واحد من الشعراء والكتاب الذين يدعوهم ارسطو باللاهوتين لمعالجتهم العلم في صورة الاسطورة والذين كانوا حلقة بين هوميروس وأوائل الفلاسفة.



الفصل الثاني :

العلاقة والتأثر بين الأفكار اليونانية والأفكار الشرقية

كان اليونان يصدرون عن علاقتهم بالالهة عن ثلاث عواطف هي :العرفان بالجميل ، والمصلحة الخاصة ، والخوف من العقاب؛فالآلهة كانوا يعتبرون بناة المدن وحماتها،فتكريمهم واجب وطني والالحاد في حقهم خيانة للوطن- أي جريمة يعاقب عليها القانون- غير أن تيارات اخرى ظهرت وقصدت إلى أن تجاوز حدود المدينة ودعوة الناس جميعا حتى الأجانب والأرقاء،إلى حياة روحية أسمى وأقوى،ذلك أن فريقا من اليونان لاحظوا الفارق بين سيرة الانسان وما يعتقده من مثل أعلى في الاخلاق،واستوقف نظرهم البارز بين شقاء الانسان وسعادة الآلهة،فبدا لهم انهم بالامكان ايجاد علاقة بالآلهة غير علاقة العبد بالسيد؛علاقة تقرب تكفل للانسان المشاركة في السعادة الآلهية.ووجدوا غير

الشرقيين غذاء لهذه النزعة.فنشأت "اسرار" أي نحل سرية تعلل مريدها بالنجاة من مصائب هذه الحياة وبالسعادة في الاخرى،فيأمنون شر المرض والغرق والخراب والحرب وما إليها،ويضمنون لأنفسهم النجاح والتوفيق،وبعد الموت النجاة من "الحمأة"واللحاق بالآلهة،فيخلصون من الكابوس الذين كان جاثما على الصدور والذي يلخص في هذه العبارة :" أن حياة الانسان ظل زائل ،ووجوده بعد الموت ظل الظل "

واشهر هذه النحل :اسرار "إلوسيس"،والاسرار الاورفية.أما نحلة"إلوسيس"فتعبد "ديمتير"التي كانت الهة الحرب عند هوميروس فصارت عندها الهة العمل .كانت الوسيس مدينة مستقلة،ثم دخلت في سيطرة أثينا في القرن السابع ،اي في الوقت الذي نشط فيه الاقبال على معبد الالهة،وما إن جاء القرن الخامس حتى كانت هذه النحلة غزت العالم،فصارت المدينة في العصر القديم مزارا يتقاطر اليه اليونان والرومان بل ويحج اليه بعض اباطرة روما.وكانت تقام فيها اعياد ضخمة تأخذ بمجامع القلوب.وتقوم العبادة على اسطورة غامضة ومفاهيم ظلت سرا مكتوما مدى الف عام ،وكان المريديون

يمثلون قصة ميثولوجية لكي يبعثوا في نفوسهم العواطف التي انفعل بها الالهة أو الالهة،ويتلون عبارات مبهمة،ويرقصون ويصيحون على صوت عبارات صاخبة،لكي يحققوا حالة الجذب أو الاتحاد بالالهة.

اما الاورفية فتعبد"ديونيسيوس"الذي كان عند هوميروس اله الاشراف،فصار عندها اله التضحية،وعبادة"ديونيسيوس"معروفة منذ عهد قديم و"الاورفية"احدى صورها.

ويقال انها ترجع لشاعر من اهل "تراقيا" اسمه "اورفيوس" ،وهو شخص يستحيل معرفة حياته وآرائه.ومنشأ نحلته لكثر ما روي عنه من الاخبار المتضاربة،واضيف اليه من الكتب المتعارضة.ولكن عرفت "الاورفية"منذ القرن السادس بشكل واضح،وبخاصة في ايطاليا الجنوبية وصقلية.وهي قائمة على اسطورة مؤداها زيوس وهب طفلة "ديونيسيوس"(ابنة من ابنة برسفون)السلطان على العالم ،فغارت منه "هيرا"زوجة زيوس،والبت عليه طائفة من الالهة الاشداء(الطيطان)،فكان"ديونيسيوس"يستحيل صورا مختلفة

ويردهم عنه،الى أن انقلب ثورا فقتلوه وقطعوه وأكلـوه.غـير أن الالهـة بـلاس "منيرفـا" اسـتطاعت ان تخطـف قلبـه،فبعث مـن هـذا القلـب "ديونيسيوس"الجديد.وصعق زيوس "الطيطان" .وخرج البـشر مـن رمـادهم .فالانسان بهذا مركب من عنصرين متعارضين:من العنصر الطيطاني وهو مبـدأ الشر،ومن دم "ديونيوسيوس" وهو مبدأ الخير،فالجسد بمثابة القبر للنفس،وهو عدوها اللدود يجري معها على خصام دائم.

إن واجب الانسان ان يتطهر من الشر وهذا امـر عـسير لا تكفـي لـه حيـاة ارضيةواحدة،بل لا بد له من سلسلة ولادات تطيل مـدة التطهـير.والتكفـير إلى الاف السنين.ورتبوا على هذه العقيدة طقوسا كانوا يقيمونها ليلا:ومنها التطهير بالاستحمام باللبن أو الماء المضاف اليه مادة تلونه بلـون اللبن،وتقدمـة القـرابين غير الدموية،وتمثيل قصة"ديونيسيوس" بما في ذلـك تقطيـع ثـور وأكـل لحمـه نيئا،وتلاوة صلاوات كالتي وردت في كتاب الموتى المعروف عند المصريين.فقد اكتشفت مقابر في ايطاليا الجنوبية وجدت فيها صفائح ذهبيـة عليهـا ارشـادات للنفس عما يجب أن تسلك بعد الموت من طرق ، وتتلو مـن صـلوات. فكانـت

هذه الصحائف دليلا قاطعا على أنهم عرفوا كتاب الموتى واخذو عنه كما أنهم أخذوا فكرة الولادات المتعاقبة عن الهنود مباشرة أو بواسطة الفرس.الأرض للبشر كالحظيرة للماشية،فلا يحق للنفس ان تهرب من هذه الحظيرة،وان واجبها ان تنتظر الاجل المحدد من الآلهة ،فالانتحار كفر، انه عدول عن الامتحان ،ومن ثم عن الثواب وسيأتي اليوم الذي تنجو فيه من "دولاب الولادات" وتستعيد طبيعتها الآلهية فتحيا حياة روحية في العالم غير المنظور.ومن مبادئهم أيضا احترام الحياة حيثما وجدت؛وفي الانسان والحيوان والنبات.

إن الاورفية تمتاز بالايمان الراسخ بالعدالة الالهية،وبالعلم الروحاني وبالطهارة الباطنية وفي حين أن باقي الاسرار كانت تعتقد أن الطقوس وحدها كفيلة بتحقيق اغراضها دون الاكتمال خلقيا،بل كانت تستبيح بعض المخازي وتدمجها في شعائرها.وتتصور العام الاخر تصورا ماديا تمتاز الاورفية بأن الهها عديم النظر بين آلهة اليونان فهم يمجدون فيه الضحية المظلومة للفوز النهائي للضعيف صاحب الحق ،وتمتاز أيضا انها كانت شيعة الطبقة الوسطى المثقفة.وفيها نبغ شعراء وكتاب اعتمدوا على التفكير الشخصي في معالجة

مشكلة نشوء العالم ،فهذبوا الاساطير القديمة وكانوا طليعة العالم الطبيعي .وقد كان للأورفية أثر فعال في الشعراء والمفكرين ، بل يمكن القول إنها هي التي وجهت الفلسفة وجهتها العقلية والروحية على أيدي (فيثاغورس)و(سقراط)و(أفلاطون)،وسنجد عندهم عقائدها وتعابيرها كأصول يحاولون ترجمتها إلى قضايا عقلية ثم البرهنة عليها .ولما اشتد اختلاط اليونان بالشرقيين شعر فلاسفتهم بالحاجة إلى الدين ، فعادوا إلى الاسرار يشرحون اقوالها ، بل يصطنعون شعراءها أو ينسجون على منوالها .

الفصل الثالث:

نشأة العلوم الطبيعية ومبدعيها

كان اليونانيون يرون أن للوجود ثلاثة وجهات هي :

هي الوجهة الطبيعية والوجهة الرياضية والوجهة الميتافيزقية.

لقد وفق اليونان في الكشف عن هذه الوجهات الثلاث فظهرت ثلاث مدارس متعاصرة فلكل منها مزاج ومذهب.ظهرت مدرسة في أيونية عالجت العلم الطبيعي:ثلاثة من رجالها نشأوا في ملطية،وهم : طاليس،أنكسيمندريس"،وأنكسيمانس،ورابع نشأ في أفسوس:هو "هيرقليطس"،ولكن الفرس أغاروا على أيونية وأخضعوها،فانتقلت الحياة العقلية إلى ايطاليا الجنوبية وصقلية فنبغ هناك "فيثاغورس" صاحب الوجهة الرياضيةوظهرت المدرسة "الايلية" القائلة بالوجود الثابت،ثم فلاسفة أخذوا من كل وجهه بطرف وحاولوا التوفيق بينها ،وهم أبنادوقليس٤٩٣-٤٣٣

ق.م.وديموقريطيس ٤٦٠-٣٧٠ ق.م.وانكاساغوراس ٥٠٠-٤٢٨ ق.م.

ويذكر لكل هؤلاء أو معظمهم كتـاب بعنـوان في الطبيعـة "أي في الجـوهر الأول الثابت تحت التغـير والتحـول "،ولـيس يعنـي هـذا أن أصـحابها كـانوا يسمونها بهذا الاسم وقد ضاع جل هذه الكتب،وظلت اخبار أولئك الفلاسـفة ناقصة

ومن أهم المبدعين في هذا المجال:

طاليس(٦٢٤-٥٤٦)ق.م.

احد الحكماء السبعة انفرد بالعناية بالعلم ،في حين كان غيره يعنى بالسياحة والأخلاق ، جال انحاء الشرق ،وتبحـر في العلوم،ومما يـذكر عنـه أنـه عمـل كمهندس حربي في خدمة قارون(آخر ملوك ليديا في آسيا الصغرى)وبرهن على ان الزوايا المرسومةفي نصف الدائرة قائمة،وكان يحسب مـن فـوق بـرج أبعـاد السفن في البحر ،وأنبأ بكسوف الشمس الكلي الذي وقع في ٢٨ مايو/ أيار عـام ٥٨٥ ق.م.ووضع تقويما للملاحين مـن أهـل وطنـه ضـمنه ارشـادات فلكيـة

وجوية منها أن الدب الأصغر أدق الكواكب دلالة على الشمال.وجاء إلى مصر فأخذ علم المساحة،وشغل بمسألة فيضان النيل ،ودل أساتذته المصريين على طريقة لقياس ارتفاع الاهرامات؛حيث يفهمهم ان ظل الشيء يساوي ارتفاعه في وقت النهار،وان النسبة تبقى محفوظة بين طول الظل وارتفاع الشيء في أي وقت.

وعن اثره في الفلسفة فقد وصف المسألة الطبيعية وصفا نظريا بعد محاولات الشعراء واللاهوتيين ،فشق للفلسفة طريقها ، فبدأت باسمه،قال " أن الماء هو المادة الأولى والجوهر الأوحد التي تتكون منه الاشياء"،وكان هذا القول مألوفا عن الأقدمين، غير أن طاليس دعم رأيه هذا بالدليل فقال:"أن النبات والحيون يتغذيان بالرطوبة.ومبدأ الرطوبة الماء فالشيء الذي تتغذى منه يتكون منه بالضرورة.وهذا ينطبق على الارض بالاجمال.فقد خرجت من الماء وصارت قرصا طافيا على وجهه،وتستمد منه العناصر الغازية التي تفتقر اليها:فالماء إذن أصل الاشياء".

وثمة قول اخر يذكره له أرسطو مفاده :"أن العالم حافل بالالهة".ويغلب أن معنى هذا العالم حافل بالنفوس ،أي أن كل فعل انما هو من النفس ،وأن النفس منبثقة في العالم أجمع،فتكون المادة حية ويكون الماء المؤلف منه الأشياءحاصلا على قوة حيوية حاضرة فيه دائما وإن لم تظهر دائما.ويشترك في هذا الرأي الأيونيون ولهذا دعوا "هيلوزويست"أي أصحاب المادة الحية.ومما يؤيد التأويل هذا عبارة منسوبة لطاليس يوردهاأرسطو بتحفظ أن مؤداها أن للحجر المغناطيس نفسا لأنه يحرك الحديد،وهذا يدل على ان مبدأ الفعل الحركة عند طاليس هي النفس،ولما كانت الحركة كلية كانت النفس كذلك.

وعلى ذلك فإن "طاليس" تمثل العلم البابلي والمصري وعمل على تقدمه،غير انه إستبقاه تجريبيا،حتى إنباؤه بالكسوف لم يكن صادرا عن أساس نظري؛من حيث أنه كان يعتقد أن الأرض قرص مسطح،وأنه على ما يذكر "هيرودوت"إنما أنبأ بكسوف تلك السنة فقط،ومن غير أن يعلم أن هذا الكسوف يرى في بقعة من الأرض معينة،فقد يكون طاليس قد أهتدى إلى هذا اتفاقا،وقد يكون قد اعتمد على جداول البابليين.

اما فلسفة طاليس فهي على العكس شيء جديد ، فبدل أن يفسر تنوع الكائنات بتشخيص القوى الطبيعية والرواية عن الآلهة ،نظر إليها على أنها أشياء معروفة محسوسة،وحول الاستقرار والبرهنة،فهذه النظرة وهذا المنهج هما الربح الذي عاد على الفلسفة.أما قوله بالماء فقد كان آخر صدى للتقليد القديم،ولم يتابعه عنه خلفائه ولكنهم فهموا أن وجهته ومنهجه أمران لهما قيمتهما الخاصة، وانهما مستقلان عن كل قول معين.

انكسيمندريس (٦١٠-٥٤٧)ق.م.

تلميذ طاليس فيما يرجح وخليفته في ملطية،يذكر عن مشاركته الشخصية في تقدم العلوم أمورا لم يثبت منها الكثير،فيقولون مثلا أنه مخترع المزولة،والارجح أنه أخذها عن البابليين حيث هي معروفة عندهم ، ويقال انه صنع كرة فلكية،ووضع خريطة ارضية استنادا إلى المعلومات التي كان يأتي بها اليونان إلى ملطية من أنحاء العالم المعروف وقتذاك،فرسم اليابسة يحيط ببحر ويحيط به بحر.

رأي انكسيمندريس أن "الماء لا يصلح أن يكون مبدأ أولا"، وذلك لأن استحالة الماء الجامد إلى ماء سائل بالحرارة تعني أن الحرارة والبرودة سابقان عليه. وكذلك ان المبدأ الأول لا يمكن أن يكون معينا،وإن لم نفهم أن أشياء متمايزة تتركب منه. فدعا المادة الأولى باللامتناهي،وقال إنها لا متناهية بمعنيين :من حيث الكيف اي لا معينة. ومن حيث الكم أي لا معدودة:وهي مزيج من الاضداد جميعا،كالحار والبارد واليابس والرطب وغيرها. كانت بالبدء مختلفة غير موجودة بالفعل من حيث هي كذلك ،ثم انفصلت بحركة المادة،ولا تزال الحركة تفصل بعضها من بعض، وتجمع بعضها من بعض، بمقادير متفاوتة حتى تألفت بهذا الاجتماع وانفصال الاجسام الطبيعية على اختلافها ، واول ما انفصل الحار والبارد،فتصاعد البخار بفعل الحار،وكان من هذا البخار الهواء ،أما الراسب فيبس بالتدريج،فكان منه البحر ثم الارض .وتكون الحار كرة نارية من الهواء كما تتكون القشرة حول الكواكب تشتعل فيهاالنار وتبدو لنا من فوهاتها: فكل ما نراه من وجوه القمر،ومن كسوف وخسوف،ناشئ إما من انسداد الفوهات انسداداكليا أو جزئيا،أو مما للاسطوانات من حركة تجعل

الفوهه حينا وتغيب حيناآخر،والأرض جسم اسطواني كذلك ، نسبة ارتفاعة إلى عرضه كنسبة ١ :٣،ونحن نشغل قسمها الاعلى وهو منفتح قليلا.وليست تقوم على شيء مما أرتأى طاليس؛إذ لا بد من سماء سفلى تجتازها الشمس والكواكب من الغرب لتعود وتظهر في الشرق،كما أنها تجتاز السماء العليا من الشرق إلى الغرب،فالأرض معلقة في وسط السماء،ثابتة في مكانها لأنها واقعة على مسافة واحدة من الأجرام السماوية ،فليس هناك ما يجعلها تتحرك من جهة إلى اخرى،ولأن النسبة المذكورة بين ارتفاعها وعرضها تكفل لها الاستقرار بذاتها.

أما الأحياء فتولدت في الرطوبة بعد التبخر ،أي في طين البحر وهو مزاج من التراب والماء والهواء،فكانت بالاصل سمكا مغطى بقشر شائك،حتى إذا ما بلغ بعضها أشده نزح إلى اليابسة وعاش عليها ونفض عنه القشر،والانسان لم يوجد أول ما وجد على ما نراه اليوم طفلا عاجزا عن توفير أسباب معاشه،وإلا لكان انقرض.ولكنه منحدر هو ايضا من حيوانات مائية مختلفة عنه بالنوع حملته في بطنها زمنا طويلا إلى نمت قواه وتم تكوينه،فاستطاع أن يقف على اليابسة

وأن يحفظ حياته بنفسه.

والتطور قانون عام : تخرج الأشياء من اللامتناهي ثـم تنحـل وتعـود إليـه ،ويتكرر الدور وهكذا دواليك.منها ما يـشرق ويغـرب في آجـال بعيـدة وهـي العوالم التي لا تحصى؛ومنها ما يتكون ويفسد في أوقات قصيرة ويعوض بعضها البعض على مر الزمان وهي الجزيئات. مثل الحـرارة تـشرب مـاء الأرض فـيرد البخارهـذا المـاء لـلأرض مطـرا..وهكـذا إلى نهايـة الـدور.فالحركـة دائمـة والموجودات متغيرة .والمادة اللامتناهية باقية غير حادثة ولا مندثرة.

"اقتباس نصي" : ويفسر "انكسيمندريس" تكوين الأشياء تكوينا آليـا،أي بمجرد اجتماع عناصر مادية وافتراقها بتـأثير الحركـة دون علـة فاعليـة متمايـزة ودون غائية.وهو في تصوره لهذا التكوين يكاد يقترب من تصور غير واحد مـن العلماء المحدثين،ويكاد يقول في مذهب التطور في عالم الحيـاة ،بـل يكـاد يقـول بقانون الجاذبيةلولا أن رأيه يرجع – على تعبير ارسطو- إلى أن الأرض المستقرة في مركز العالم تشبه رجلا يهلك جوعالأنه لا يجد سببا يحمله على الأكل من طبق

دون آخر من أطباق تحيط به على مسافة واحدة؛و"انكسيمندريس"يمد الوجود إلى غير واحد في المكان والزمان.فيقول بعوالم لا تحصى ،وبدور عام يتكرر إلى ما لا نهاية .والقول الأول وليد المخيلة تأبى أن تتمثل حدا للـمادة وخـلاء لـيس في شيء والقول الثاني قديم لعله نشأ من ملاحظة اطراد حركات الأفلاك، وتأييـد بتحول الأجسام بعضها إلى بعض وتداول الفصول وهو عـلى كـل حـال يعنـي ضرورة مطلقة وقانونا كليا يسطر على الوجود ويفسر كيف أن الوجـود لم يبـدأ ولن ينتهي، وهذه عقيـدة شـائعة بـين فلاسـفة اليونـان يـسميها الإسـلاميون بالدهرية لقولها :أن الدهر دائر لا أول له ولا آخر.غير أن انكسيمندريس مع أن انكاره على طاليس أن يكون المبدأ الاول شيئا معينا ،فقد وضـع مبـادئ عديـدة معينة هي هذه الاضدادالموجودة في اللامتناهى دون أن يبين أصلها .أليست هي المبادئ الحقيقية؟ أو ليس اللامتناهي في حالة اختلاطها وتعادلها فـلا يـصح أن نسمي مبدأ بالمعنى الذي فهمه طاليس اي ما منـه تتكـون الاشـياء ،لكنـه مبـدأ باعتباره نقطة بداية التطور العام.وهذه نظرية علمية أمـا المـسألة الفلـسفية مـا تزال قائمة

أنكسيمانس(٥٨٨-٥٢٤)ق.م.

وهو تلميذ أنكسيمندريس وقد كـان اقـل منـه توفيقـا في العلـوم واضـيق خيالا،عاد إلى رأي طـاليس بـالأرض فاعتقـد أنهـا قـرص مـسطح قـائم عـلى قاعـدة،وانكر حركـة الـشمس لـيلا مـن تحتهـا .واسـتبدل بهـا حركـة جانبيـة حولها،وعلل اختفاء الشمس من المساء إلى الصباح بأن جبال شاهقة تحجبها عن الانظار من جهة الشمال،أو بأنها ابعد عن الارض في الليل منها إلى النهار- وقد كان مثل هذا القول معروفا عند المصريين،واشتغل بالظواهر الجوية ، ولا يلوح أنه افاد من هذه الناحية.

وعاد انكسيمانس إلى طاليس في مسألة المادة الاولى :فقال انها شيء محسوس متجانس ولكن هذا الشيء هو الهواء،وأن الهواء لا متنـاه يحـيط بالعـالم ويحمـل الأرض.ولسنا ندري على وجه التحقيق السبب الذي حداه إلى ايثار الهواء ،فقد يكون الهواء ألطف من المـاء وأن مثلـه لا يفتقـر إلى القاعـدة وأنـه أسرع حركـة واوسع انتشارا،ومن ثمة اكثر تحقيقا للامتناهى .وقد يكون أن علة وحدة الحـي

النفس والنفس هواء فالهواء نفس العـالم ،وعلـة وحدتـه.ومهـما يكـن الـسبب فالمحقق أن المبدأ الاول عنده هو الهواء ،وأن الموجودات تحدث منـه بالتكـاثف والتخلل ،فإن تخلـل الهـواء ينـتج النـار ومـا يتـصل بهـا مـن الظـواهر الجويـة الناريةوالكواكب ونتائجه ينتج الرياح فالـسحاب فالمطر،وتكـاثف المـاء ينـتج التراب (الطمي في الأنهر)فالصخر.

أن أنكسيمانس يستعيض عن اللامتناهى التي هي مزيج من الأشـياء جميعـا ،بشيء واحد هو الهواء ؛وعن الحركة وما تحدثه من اجـتماع وافـتراق عارضـين لاجزاء المادة،بخاصتين ملازمتين للهـواء إذ يتكـاثف ويتخلـل بذاتـه فيحـدث الاشياء بأنواعها ،وعلى ذلك فهو يفسر العالم بعلة واحدة تعمـل عـلى نحـو آلي ،وفي هذا التفسير تقدم كبير بالمذهب الآلي وإلى الوحدة والبساطة.

إن المدرسة الملطية قد توجهت إلى العالم المحسوس تحاول معرفته بالملاحظة والاستدلال ،تكون قد وضعت العلم الطبيعي .وهي إذا اعتبرت المـادة قديمـة حية أو متحركة بذاتها،وتخيلتها تتحـول إلى صـور الوجـود المختلفـة بموجـب

ضرورة طبيعية تكون بذلك قد وضعت الاحادية المادية المعروفة في الفلسفة الحديثة والتي ترد الاشياء إلى مورد مادي واحد وتفسيرها بتطور هذا الجوهر في الشكل والكم وليس غير.

هرقليطس(٥٤٠-٤٧٥)ق.م.

ولد في (أفسوس) من أسرة عريقة في الحسب ،ولكنه زهد كل جاه وتوفر على التفكير،إلا أنه ظل ارستقراطيا بكل معنى الكلمة يعتد بنفسه،ويباعد بينه وبين الناس، يحتقر العامة ومعتقداتها الدينية ،وعباداتهاالسخيفة ومعارفها التقليدية، ويتهم كلا من هوميروس،وهزيود انهما بثا فيهما الخرافات والأضاليل ،ويستخرج من حكم العامة السياسي الشواهد على جهلها وعبثها، فشبهها تارة بالاطفال واخرى بالكلاب،وثالثة بالحمير بل إن كبرياءه تعدى العامة إلى العلماء ،فكان يزدري العلم الجزئي " الذي لا يثقف العقل "وينعي على فيثافورس واكسونوفان اشتغالهما به ،فلم يحسب ،ولم يرسب ولم يجر التجارب ،ولكنه كان يعتبر العلم الجدير به التفكير العميق في المعاني الكلية،يخلع عليها

اسلوبا فخما مبهما كثير الرمز والتشبيه حتى لقب بالغامض،وقد قال هو نفسه في اسلوبه:"انه لا يفصح عن الفكر ولا يخاطبه ،ولكنه يشير إليـه".وأن الـشذرات المائة والثلاثين التي بقيت لنا من كتابه لتدل على ذلك دلالة كافية .غير أن العلم الجزئي تركه جاهلا بالطبيعة جهلا فاضحا ،وهـبط بـه إلى صـف العامـة ،فقـد اعتقد مثلا أن غروب الشمس انطفاؤها في الماء،وأنها تتجدد كل يوم وأن قطرها قدم واحدة كما يبدو للبصر ،وغير ذلك من الاوهام .

وملخص مذهبه أن الأشياء في تغـير متـصل ،وهـو يمثـل لـه في صـورتين ،:الاولى جريان الماء فيقول : أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين ،فإن مياها جديدة تجري من حولك أبدا .والصورة الاخرى :اضرام النار ،وهـي أحـب إليـه مـن الاولى لأن النار اسرع حركة وأدل على التغير، ولأنه يرى في النـار المبـدأ الأول الذي تصدر عنه الاشياء وترجع إليه .ولولا التغير لم يكن شيء فـإن الاسـتقرار موت وعدم .والتغير صراع بين الاضداد ليحل بعضها محل بعـض "والـشقاق ابو الاشياء وملكها. فلولا المرض لما اشـتهينا الـصحة،ولولا العمـل لمـا نعمنـا بالراحة،ولولا الخطر لما كانت الشجاعة ،ولولا الشر لما كان الخـير" .فـالوجود

موت يتلاشى والموت وجود يزول .فالخير والشر والكون والفساد أمور تتلازم وتنسجم في النظام العام ،بحيث يمتنع تعيين خـصائص ثابتـة للاشـياء :"مـاء البحر أنقى وأكدر ماء،يشربه السمك ولا يستسيغه الانسان ،هـو نـافع بـالاول ضار بالثاني ،ونحن ننـزل النهـر ولا ننـزل (مـن حيـث ان مياهـه تتجـدد بـلا انقطاع)،"ونحن موجودون وغير موجودين" بحيث ان الفناء يـدب فينـا بـأي لحظة،كل شيء كذا وليس كذا،موجود وغير موجود .ويعتـبر هـرقليطس الجـد الاول للشك في الفلسفة اليونانية

الفصل الرابع :

تحليل مبدأ الديمقراطية في :أثينا وشيوع الفكر الإنتقادي

أولا : المناقشات:

لقد كانت الديمقراطية الاثينية منقوصة ،إن أقلية صغيرة من الأهلين كانت هي التي تستطيع القراءة.ويحد منها من الوجهة الطبيعية صعوبة الوصول إلى أثينا من المدن القاسية في أتكا ؛هذا إلى أن حق الانتخاب كان مقصورا على من ولد من أبوين أثنين حرين،وبلغ الحادية والعشرين من العمر ،وكان هؤلاء واسرهم دون غيرهم هم الذين يستمتعون بالحقوق المدنية او يتحملون مباشرة أعباء الدولة الحربية والمالية

ولقد كان عدد سكان أثينا في عهد بركليز ٤٣.٠٠٠ مواطنا وكانت السلطة السياسية في عصره موزعة من الناحية الشكلية توزيعا متكافئا،فكان كل مواطن يستمتع،ويصر على ان يستمتع بكل ما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون

وفي الجمعيــة الوطنيــة،ولم يكــن المــواطن في نظــر الاثينــي هــو الــذي يقــترع فحسب،بل كان هـو الـذي يـشغل بالقرعـة إذا جـاء دوره منـصب الحـاكم أو القاضي ،وبالطبع ليس في مقدور انـسان خاضـع لغـيره،أو مـضطر إلى الكـدح ليحصل على قوته،أن يجد له من الوقت أو أو يكون لديه من المقـدرة مـا يمكنـه من أداء هذه الخدمات.ومن هنا كان يبدو للاثينيين أن الذي يعمـل بيديـه غـير صالح لأن يكون مواطنا أثينيا

ونجد مفارقة عجيبة في وجهة النظر تلك .فهي تعترف بهذا الحـق للفـلاح الذي يزرع أرضه .في حين كـان الأرقـاء وجميـع النـساء،وجميع العـمال وجميـع المستوطنين الغرباء ،وعدد كبير من طبقة التجار محرومين من الحقوق السياسية.

أما من كان لهم هذا الحق فلم يكونوا يجتمعون في أحزاب سياسية ،بل كانوا يقسمون تقسيما غير دقيق إلى أنصار الاجركية أو أنصار الديمقراطية على أساس ميلهم إلى توسيع الحقوق السياسية أو تضييقها .ونظـرتهم إلى سـيطرة الجمعيـة وإعانة الحكومة للفقراء من أمـوال الأغنيـاء.وكـان انـشط الاعـضاء في تلـك

الجماعتين ينتظمون في نواد تسمى مجتمعات الرفقاء .وبالمناسبة كان في أثينا نواد من جميع الأنواع:سياسيةوعسكرية ودينية وللاقرباء وللصناع والممثلين ،واخرى تجهر بأن همها هو الاكل والشرب .

كان أقوى هذه النوادي على الإطلاق نوادي الاجكرية والتي يتعهد أعضاؤها بأن يساعد بعضهم بعضا في الشؤون السياسية والقانونية ،وكانت تربطهم معا رابطة العداوة المشتركة الشديدة للطبقات الدنيا التي اخذت تنافس طبقتي الاشراف ،ملاك الاراضي والتجار أصحاب المال.

وفي وجه هذا الحزب (أعني الاجركية) كان يقف حزب الديمقراطية (حزب صغار رجال الاعمال)،والمواطنيين العاديين ،والبحارة من رجال الأسطول او تجار السفن،وكان هؤلاء جميعا يبغضون ترف الأغنياء وامتيازاتهم ويرفعون إلى مصاف الزعامة في أثينا ،رجالا امثال كليون (دابغ الجلود)،ولسكليز (بائع الاغنام)،ويكراثيز(بائع حبال السفن)،وكليوفون (صانع القيثارات)،وهيبروبولس (صانع المصابيح).

واستطاع "بركليز"مدى جيل كامل في ابعاد هذا الحزب عن الحكم بسياسته التي كانت مزيجا من الديمقراطية والارستقراطية فلما مات ورث الحزب (الاجكرية)الحكم،وظل النزاع المرير قائما بين الاجكرين والديموقراطيين من أيامم صولون إلى أيام الفتح الروماني عن طريق الخطابة والاقتراع والنفي والاغتيال والحرب الاهلية الداخلية

وكان كل ناخب يعد عضوا في هذه الهيئة الحاكمة الاساسية وهي "الاكليزيا" أو الجمعية. وعند هذا الحد من الحكم لم تكن هناك حكومة نيابية،غير أنه لم يكن يحضر الاجتماعات الا عدد قليل من الاعضاء قلما يزيد على ألفين أو ثلاثة .وكان المواطنون الذين يعيشون في أثينة أو في ثغر "بيريه"يحضرون وكأنهم مصممون على ان يكون موطنهم هو المسيطر على الجمعية،وكان الديمقراطيون بهذه الطريقة يتفوقون على المحافظين لأن كثرة هؤلاء كانت مشتتة في مزارع أتيكا وضياعهم.وكانت الجمعية تعقد جلساتها أربع مرات في الشهر .تعقدها في المناسبات الهامة في السوق العامة ،أو في ملهى ديونيسس، أو في ثغر"بيريه".أما الجلسات العادية فكانت تعقد في مكان نصف

دائري يدعى "اليـنيكس" على منحدر تل غرب "الايجوس"،وكان الاعـضاء في هذه الحالات كلها يجلسون على مقاعد مكشوفة للـسماء وتبـدأ الجلـسات عنـد مطلع الفجر،ويفتتح كل دور اجتماع بالتضحية بخنزير إلى زيوس.وقـد جـرت العادة بأن تؤجل الجلسات على الفـور إذا ثـارت عاصـفة أو حـدث زلـزال أو خسوف أو كسوف ، لأن هذه الظواهر كانت في رأيهم أدلة عـلى غـضب الالهـة .ولم يكن يصح عرض تـشريعات جديـدة إلا في الجلـسة الاولى مـن كـل شـهر ،وكان العضو الذي يقترحها هو الذي يعمل على قبولها .فإذا تبين بعدئذ أن هذه الشرائع شديدية الضرر كان من حق أي عضو آخـر ان يلجـأ خـلال عـام مـن قبولها إلى ما يسمى عدم الشرعية،فيطلب أن يفرض على صاحب التشريع غرامة أو أن يحرم من حقوقه السياسية أو أن يعدم. وكانت هذه الطريقـة التـي تتبعهـا أثينا لمنع العجلة في التشريع .وكان لقرار عدم الشرعية هذا صيغة أخرى تجعـل من حق الجمعية أن تعرض أي تشريع جديد قبل البت فيه على أحدى المحـاكم لبحثه من الناحية الدستورية ؛أي من ناحية اتفاقه مع القوانين القائمـة المعمـول بها في البلاد .هذا إلى انه كان على الجمعية قبل النظر في مشروع قانون أن تعرضه

على مجلس الخمسمائه ليبحثه .ولم يكن من حق مجلس الخمسمائة أن يرفض الاقتراع رفضا باتا ،بل كان كل ما يستطيعة أن يقدم تقريرا عنه مصحوبا بتوصية بقبوله أو غير مصحوب بها

ولقد كان رئيس الجمعية دور انعقادها بعرض تقرير عن مشروع مقدم لها.وكانت الجمعية تستمتع إلى من يطلبون الكلام حسب سنهم، ولكن كان يجوز حرمان أي عضو من مخاطبة الجمعية إذا ثبت انه لا يملك أرضا، أو أنه غير متزوج زواجا شرعيا ،أو أهمل في القيام بواجبه نحو أبويه، أو أساء إلى الاخلاق العامة، أو تهرب من القيام بالواجبات العسكرية، أو القى درعه في احدى المعارك الحربية ،أو أنه مدين للدولة بضريبة او غيرها من المال .غير أن الخطباء المدربين وحدهم هم الذين كانوا يستخدمون حق الكلام لأنه لم يكن من السهل حمل الجمعية على الاصغاء للمتكلمين.فقد كانت تضحك من الخطأ في نطق الالفاظ، وتحتج بصوت عال على الخروج عن موضوع النقاش؛ وتعبر عن موافقتها بالصراخ الشديد ،والصفير والتصفيق باليدين، وعن عدم موافقتها التامة واحداث جلبة شديدة تضطر المتكلم النزول عن المنصة. وكان

يحدد لكل متكلم وقت معين لا يتجاوزه بقياس مداه بساعة مائية.وكانت طريقة الاقتراع هي رفع الأيدي، إلا إذا كان للاقتراع المعروض أثر خاص مباشر في شخص ما ،وفي هذه الحال يكون الاقتراع سريا.وكان من حق المقترع ان يؤيد تقرير المجلس على المشروع المعروض او يطلب تعديله ،وكان قرار الجمعية هذا نهائيا. وكانت القرارات التي توجب العمل العاجل وهي التي تختلف عن القوانين، تمر أسرع من القوانين الجديدة،ولكن هذه القرارات كان يمكن أيضا الغاؤها بمثل هذه السرعة نفسها ،فلا تتضمنها كتب القوانين الاثينية.

كان هناك هيئة اعظم من الجمعية منزلة ولكنها اقل منها سلطانا،وهي هيئة المجلس المعروف باسم البول ،وكان البول في أصله مجلسا اعلى شبيها بمجالس الشيوخ في الحكومات النيابية .ولكن منزلته انحطت قبل عصر "بركليز" حتى اصبح لجنة تشريعية تابعة"للاكليزيا".وكان اعضاؤه يختارون بالقرعة وبالدور من سجل المواطنين ،على أن يختار خمسون منهم عن كل قبيلة من القبائل العشر ، والا تطول مدة خدمتهم أكثر من سنة واحدة ،وكان العضو في القرن الرابع

يتقاضى خمس "أبولات" في كل يوم من أيام انعقاد المجلس .وكان من المقرر ألا يتم انتخاب اي عضو إلا بعد أن تتاح لكل عضو صالح للانتخاب فرصة العمل في المجلس.حيث كل مواطن في الظروف العادية كان يجلس في البول دورة على الاقل في أثناء حياته . وكان يعقد جلساته في قاعة المجلس"البولترين" في الجهة الجنوبية من ساحة المدينة ،وكانت جلساته العادية علنية واختصاصاته تشريعية،وتنفيذية واستشارية :فكان يفحص عن مشروعات القوانين المعروضة على الجمعية ويعيد صياغتها، ويشرف على أعمال موظفي المدينة الدينية والاداريين،ويراقب حساباته ويشرف على الاموال والمشروعات والمباني العامة ،ويصدر مراسيم تنفيذية حتى يتطلب العمل اصدارها وتكون الجمعية غير منعقدة ،ويسيطر على شؤون الدولة الخارجية وعلى أن تراجع الجمعية أعماله من هذه الناحية فيما بعد

ولكي يؤدي المجلس هذه الواجبات المختلفة يقسم نفسه إلى عشر لجان تتألف كل منها إلى خمسين عضوا،وترأس كل لجنة المجلس والجمعية شهرا طوله ستة وثلاثون يوما .وكانت هذه اللجنة صاحبة الرياسة تختار في كل صباح

عضوا من أعضائها ليكون رئيسا وللمجلس في ذلك اليوم.ومن ثم كان هذا المنصب وهو أعلى منصب في الدولة مفتوحا امام كل مواطن حين يأتي دوره في القرعة ،وكان لاثينا ثلاثمائة من هؤلاء الرؤساء في العالم. وكانت القرعة هي التي تحدد في أخر لحظة أية لجنة ترأس المجلس في أثناء الشهر ،وأي عضو في اللجنة يرأسه في أثناء اليوم.وكان الاثينيون الفاسدون المرتشون يرجون ان يستطيعوا بهذه الطريقة إن يقللوا تطرق الفساد إلى العدالة إلى أصغر حد تستطيع الاخلاق البشرية أن تصل إليه.وكانت اللجنة ذات الرياسة تعد جدول الاعمال وتدعو المجلس على الانعقاد،وتصوغ القرارات التي يصدرها المجلس في اثناء اليوم .وعلى هذا النحو كانت الديمقراطية الاثينية تؤدي وظائفها التشريعية عن طريق الجمعية والمجلس واللجنة.أما الاريوبجوس فكانت اختصاصاته في القرن الخامس مقصورة على النظر في قضايا الحريق العمد،والاغتصاب المتعمد ، والتسمم والقتل مع سبق الاصرار

ثانيا: القوانين :

كانت القوانين في نظر اليونان الأقـدمين عـادات مقدسـة ارتـضتها الآلهـة واوحت بها ؛فالقوانين عندهم جزء من الـدين .ويبـدو ان المرحلـة الثانيـة مـن مراحل تاريخ التشريع اليوناني هي جمـع العـادات المقدسـة وتنـسيقها عـلى يـد مشرعين امثال زلوسوس وكرونـداس ودراكـون وصـولون ومـا ان دون مثـل هؤلاءالرجال قوانينهم الجديدة حتى اصـبحت العـادات المقدسـة قـوانين مـن وضـع الانـسان .وفي هـذه الكتـب القانونيـة تحـرر القـانون مـن سـيطرة دينيةوازدادت على توالي الايام صبغته الدنيوية.

أمـا الخطـوة الثالثـة في التـشريع فكانـت تتمثـل بنمـو الـشرائع المـضطرد وتجمعها.وهذا يستلزم وجود لجنة من مقرري القوانيين لتقرر أي القوانين يجب البقاء عليها وايها يجب الغاؤه.وكان يعين في مثل هذا الحال محامون يدافعون عن القوانين القديمة ضد من يقترحون الغاءها .وبعد فقـد نقـشت شرائـع أثينيـة باشراف اؤلئك المقررين عـلى اللـوح مـن الحجـارة في "بـاب الملـك " بعـد أن

صيغت في عبارات بسيطة سهلة الفهم ،وبهذا لم يكن يسمح لاي محام أن يفصل في مسألة ما بالاستناد إلى قانون غير مكتوب .

ولم يكن التشريع الأثيني يفرق بين القانون المدني والقانون الجنـائي إلا أنـه كان يحتفظ للأريويجوس بحق الفصل في جرائم القتـل، وفي أن تـترك للمـدعي القضايا المدنية أن يتولى بنفسه تنفيذ قرارات المحكمة .فلا تتقدم الدولة لمعونتـه إلا إذا لقي في هذا التنفيذ مقاومة.

كان القتل قليل الحدوث لأنه خطيئة دينية وجريمة قانونية في آن واحد.وقد بقي القصاص المباشر حتى القرن الخامس قبل الميلاد مباحـا في احـوال خاصـة ؛فكان يحق للرجل أن وجد أمه أو زوجته أو محظيتـه،أو اختـه أو ابنتـه ترتكـب الفحشاء أن يقتل ذلك الرجل الذي كان معها فورا.

أما التكفير عن جريمة القتل إن كان بقصد أم غير قصد فكان ذلـك واجبـا لأنها تدنيس لأرض المدينة ،أما مراسم التطهير فكانت معقدة صـارمة .وإذا مـا عفي عن القاتل لا يجوز تقديمـه للمحاكمـة .وللنظـر في جـرائم القتـل ثـلاث

محاكم تختلف باختلاف طبيعته القتيل واصله ،واختلاف نوع الجريمة :أمتعمدة كانت أم غير متعمدة ،وهل هي مما يجوز التسامح فيه أم لا .وكانت هناك محكمة رابعة تنعقد في فريتس على الساحل لتحاكم الذين نفوا من قبل لارتكابهم جريمة القتل الخطأ،ثم اتهموا بعد ذلك بجريمة القتل المتعمد ؛ذلك بأنهم قد دنسوا بارتكاب الجريمة الاولى لا يسمح لهم بأن تطأ اقدامهم أرض أتكا ،ولهذا يدافع عنهم المدافعون وهم في قارب بجوار شاطئ البحر.

ولقد كان قانون الملكية لدى الاثينيين صارما لا هواده فيه،وكان كبير الاركونيين حين يتولى منصبه في كل عام يكلف مناديا بأن يؤذن في الناس أن "كل مالك سيبقى له ما يملك وسيظل صاحبه هو المتصرف المطلق فيه".وكان حق الوصية مقيد بقيود شديدة.فالفكرة الدينية تحكم انتقال الاملاك إلى ابناء المالك الذكور بعد وفاته.حيث ينال اكبرهم سنا نصيبا اكبر بعض الشيء من سائر الورثة .ولم يكن للأرملة أن ترث ملك زوجها،بل كان جل ما تناله أن تسترد بائنتها

ثالثا: القضاء:

كانت "الهيلة" القاعة (المكان التي تجتمع فيه المحاكم) تتألف من ستة آلاف محلف يختارون بالقرعة من سجل المواطنين ،وكان هؤلاء يوزعون على عشرة سجلات يحتوي كل جزء منها على خمسمائة اسم تقريبا ،ويترك الباقون للمناصب التي تخلو أو للظروف العاجلة الطارئة .وكانت القضايا الصغرى أو المحلية يفصل بينها ثلاثون محلفا يزورون مقاطعات "أتيكا" في مواسم معينة .وكان كل محلف لا يبقى في منصبه أكثر من عام واحد في كل مرة ،وكان الانتخاب لهذه المناصب بالدور، فقد كان كل مواطن تتاح له الفرصة في الغالب لان يكون محلفا مرة في كل ثلاث سنين .ولم يكن مفروضا عليه أن يؤدي هذا العمل ،وكان الاجر المقرر له وهو "اوبلتان" ثم ثلاث "أوبلات" فيما بعد كل يوم،يجتذب له نحو مائتي محلف أو ثلثمائة في كل دور .أما القضايا الكبرى كقضية سقراط مثلا فكانت تنظر فيها محاكم ضخمة مؤلفة من ألف ومائتي رجل .ومن أجل محاربة الرشوة والفساد في القضاء كان أعضاء المحكمة الذين يوكل اليهم النظر في قضية ما يختارون بطريقة القرعة في اخر لحظة، وعلى ذلك

فإن بعض القضايا لا يطول النظر فيها لأكثر من يوم واحد،ولا نسمع كثيرا عن الرشوة في المحاكم،وذلك أنه من الصعب رشوة ثلثمائة رجل في لحظة واحدة

وكان شأن المحاكم الاثينية شأن بقيتها في جميع أنحاء العالم ،إذ كانت تتراكم القضايا لديهم ،ويبدو أن سبب ذلك أن الاثينيين كانوا كثيري التقاضي .ومن أجل الحد من هذا كان يختار محكمين بطريق القرعة من بين سجلات أسماء المواطنين الذين بلغوا سن الستين ،وكان كل طرف من الاطراف المتنازعة يؤدي إلى هؤلاء المحكمين أجرا قليلا، وإن استعصى حل القضية من هؤلاء المحكمين فصل في النزاع بعد حلف اليمين،وكان لكلا الطرفين بعدئذ الحق أن يستأنف الحكم إلى المحاكم ،وفي هذه الحالة يكتب كلا الطرفين حجته ويقسم اليمين على صحة ذلك ،وكذلك الشهود يتوجب عليهم كتابة شهاداتهم ويقسموا بأنهم صادقون ،ثم تقدم إلى كل هذه الأقوال مكتوبة الى المحكمة ،وكانت توضع في صندوق خاص وتختم،ويفتح الصندوق بعد وقت ما وتبحث القضية،وتصدر الحكم فيها هيئة تختار بالقرعة .لم يكن لدى الاثيني مدع عام ؛إذ كانت الحكومة تعتمد على المواطنين أن يتهموا أمام المحاكم كل من يرتكب جريمة خطيرة ضد

الأخلاق العامة أو الدولة .ومن هنا نشأت طائفة من "النمامين" مهنتهم اتهام الناس،وقد طورت مهنتهم هذه على ايديهم حتى اصبحت فنا من فنون اغتصاب اموال الناس لكف الأذى عنهم وبخاصة الاغنياء .

ولقد كانت نفقات المحاكم تغطيها في الغالب الغرامات التي تفرض على من يدانون من المتقاضين،كذلك كان يحكم بالغرامة على من يعجزون من المدعين عن اثبات ما يوجهون من التهم إلى خصومهم،فإن لم ينالوا صوت خمسة على الاقل من اصوات القضاة كانوا على الاقل من اصوات القضاة كانوا عرضة لأن يحكم عليهم الضرب بالسياط أو بغرامة كبيرة تبلغ الألف دراخمة وكان كل طرف من المتقاضين يدافع بنفسه عن قضيته ،وعليه أن يعرض بنفسه قضيته في المرة الأولى .وبعد أن تعقدت الاجراءات القضائية ،وتبين المتقاضون تأثير القضاة بعض الشيء ببلاغة الألفاظ ،نشأت عادة استخدام خطيب او رجل بليغ متطلع بالقانون يؤيد المدعي أو المدعى عليه،ويبدو انه من هنا نشأ المحامون.ومهنة المحاماة.

وكانت الأدلة تقدم عادة مكتوبة ،ولكن كان على الشاهد أن يقسم بنفسه بان ما يشهد به صحيح دقيق حين يتلو كاتب الجلسة شهادته على القضاة .ولم يكن الشهود يناقشون ،وكانت شهادات الزور كثيرة إلى الحد الذي يجعل المحكمة في بعض الاحيان تقضي بما يناقض الشهادة التي اقسم الشاهد على صدقها .ولم تكن شهادة القاصرين والنساء تقبل إلا في قضايا القتل ،أما الأرقاء فلم تكن تقبل شهاداتهم إلا إذا انتزعت بالتعذيب.

أما أهم العقوبات في الاحكام فكانت:

الضرب والغرامة والحرمان من الحقوق السياسية ،والكي بالنار ،ومصادرة الاموال ،والنفي ، والاعدام وقلما كان المذنبون يعاقبون بالسجن .وكان من المبادىء المقررة في القانون اليوناني أن يعاقب العبد في جسمه ،وأن يعاقب الحر في ماله.وكانت الغرامات هي العقوبة التي كانت تفرض عادة على المواطنين.وكان القتل ،وانتهاك حرمة المعابد وخيانة الوطن مثلا يعاقب عليها بمصادرة الاموال والاعدام معا ،غير أن بالإمكان تجنب الحكم بالاعدام قبل

صدوره،بالنفي الاختياري وترك الاملاك.

كانت الشرائع الاثينية لا تسمو كثيرا عن شرائع حمورابي ،وعيبها الأساسي أنها تقصر الحقوق القانونية على الاحرار الذين لا يكادون يتجاوزون سبع السكان ،وحتى الناس والاطفال كانوا خارجين عن نطاق المواطنين أصحاب الحقوق .ولم يكن في وسع النزلاء ،أو الاجانب،أو الارقاء أن يرفعوا الدعاوي إلى المحاكم إلا عن طريق مواطن يأخذهم في كنفه.

لقد كان ابتزازالمال بطريق الارهاب ،وتعذيب الذكور المتكرر ،والحكم بالاعدام في كثير من الجرائم الصغرى ،والشتائم الشخصية في المناقشات القضائية،وتشتت التبعة القضائية واضعافها بسبب هذا التشتت ،وتأثر المحلفين بالبلاغة الخطابية ،وعجزهم عن الحد من انفعال الساعة بعلمهم بما في القضية وتقديرهم الحكيم لنتائجها المقبلة ،كان كله وصمة لنظام أثينة القضائي التي كانت تحسدها عليه سائر بلاد اليونان للينة وعدالته إذا قيس بغيره من النظم القضائية ،والذي كان نظاما علميا موثوقا به إلى حد أمكنه أن يبسط حمايته على

الحياة وعلى الاملاك ،وهي الحماية التي لا غنى عنها للنشاط الاقتصادي والرقي الاخلاقي ،ومن هنا نرى ما كان للقانون الاثيني من شأن عظيم عرفنا ما كان يشعر به كل اثيني تقريبا من احترام عظيم له ،إذ كان القانون في اعتقادهم هو روح المدينة،ومصدر سعادتها وقوتها ،وخير ما تحكم به على شرائع اثينية هو تهافت غيرها من دول اليونان على استعارة الجزء الاكبر منها وفي ذلك يقول ايسقراط " ليس ثمة من ينكر ان شرائعنا مصدر كثير من الخير العظيم في حياة البشرية.

اما بالنسبة للقانون خارج حدود المدينة في شأن التجارة والتجار حيث يتطلب ذلك بعض الانظمة القانونية، فلقد بلغت المعاهدات التجارية في ذلك الوقت درجة من الكثرة اصبحت معها القوانين التي تخضع لها المنازعات التجارية "واحدة في كل مكان".وكانت هذه المعاهدات تنص على التمثيل القنصلي، وتضمن تنفيذ العقود، وتجعل الاحكام الصادرة في احدى الدول الموقعة على المعاهدة في سائر الدول الموقعة عليها .على ان هذا لم يقض على القرصنة ،فقد كانت تنتشر إذا ما ضعف الاسطول المسيطر على البحار ،أو

حصل تراخ في مراقبتها ،ولقد كانت هذه اليقظة الخارجية الثمن الذي يـشتري به الاهلون الأمن والنظام والحرية جميعها.وكانت بعض الدول اليونانية ترى أن من حق المدينة ان توجه الحملات لتنتهب املاك غيرها من المدن واهليهـا،إذا لم تكن ثمة معاهدة تنص صراحة على تحريم هذه الحملات .

اما بشأن القوانين الحربية ،فكانت الاسلحة المـسمومة لا تـستعمل بحكـم العادة المألوفة وكان الاسر عادة يتبادلون أو يفتدون ،وكان الفـداء المعـترف بـه مينائين،ثم اصبح ميناء واحدا (مبلغا من النقود)لكل اسـير،وكانت المعاهـدات كثيرة العدد ،وكان المتعاهدون يقسمون الايمان المغلظة عـلى احـترام نـصوصها ،ولكنها كانت تخرق على الدوام تقريبا ،وكانت المخالفات كثيرة وكانت تـؤدي احيانا إلى إيجاد احلاف دائمـة.ولم يكـن اليونـاني يـشعر بـأي التـزام أدبي نحـو الأجانب أو بأي التزام قانوني إذا كان بلدهما مرتبطين بمعاهدة ،وكان هؤلاء في عرفة برابرة أجانب يتكلمون لغة غريبة عنه

رابعا: النظام الإداري :-

الاركون هو واحد في هيئة الاركونون تشترك مع غيرها في تصريف شؤون المدينة الادارية ويبدو أنه ومنذ عام ٤٨٧ق.م.حلت القرعة محل الانتخاب في اختيار الاركونين، ذلك في محاولة من "الاثينيين"لمنع الاغنياء من الوصول بأموالهم إلى هذاالمنصب،وكذلك منع السفلة من الوصول إليه عن طريق التملق.ومع ذلك كان يفرض على جميع من تقع عليهم القرعة أن يجتازوا امتحانا صارما في الاخلاق أمام المجلس أو المحاكم،وكان على الطالب أن يثبت أن له أبويين اثينيين، وأنه سليم من العيوب الجسمية والخلقية،يكرم اسلافه ويقوم بواجباته العسكرية،ويؤدي الضرائب كاملة.وكانت حياته كلها في هذه المناسبة عرضه للاتهام من اي مواطن أن هذا كله كان يرهب ادنياء الناس غير الجديرين بهذا المنصب.

وإذا اجتاز الاركون هذا الاختبار كان عليه أن يقسم بأنه سيطلع بأعباء منصبه على خير وجه،وبأنه سيقدم للآلهة تمثالا من الذهب بالحجم الطبيعي إذا

قبل هدية او رشوة من أحد وكانت إذا انتهت مدة توليه منصبه بحثت أعماله الرسمية،وحساباته ووثائقه لجنة من المحاسبين مسؤولة أمام المجلس،وكان معرضا لأشد العقاب،الذي كان يصل احيانا إلى الإعدام،إذا تبين أنه أساء العمل أيام توليه منصبه ،أما إذا نجا من ذلك فانه يصبح بعد إنتهاء العام الذي تولى فيه منصبه عضوا في "الاريوبجوس".

كان يقوم على تصريف شؤون المدينة الإدارية هيئات كثيرة إلى جانب هيئة الاركونون،ويذكر ارسطاليس خمسا وعشرين من هذه الهيئات المختلفة،ويقدر عدد الموظفين الاداريين في المدينة بسبعمائة موظف،يختار كل منهم بطريقة القرعة في كل عام،ولم يكن في وسع أي إنسان أن يكون عضوا في لجنة بعينها أكثر من مرة واحدة.

أما المناصب العسكرية فكانت أكثر أهمية في نظرهم من المناصب المدنية وكان القادة العشرة يختارون بالانتخاب العلني في الجمعية مع أنهم لا يبقون في عملهم أكثر من عام واحد ،وكانوا عرضة لأن يفصح عن أعمالهم ويعزلون من

مناصبهم في أي وقت من الأوقات .ولقد زادت مهام القادة بازدياد العلاقات الدولية،حتى أصبحوا في اوائل القرن الخامس لا يشرفون على شؤون الجيش والاسطول فحسب ،بل صاروا هم الذين يفاوضون الدول الاجنبية ويشرفون على ايرادات المدينة ونفقاتها.ومن هنا كان القائد الأعلى المعروف باسم الاستراتجوس اوتوكراتور أقوى رجال الحكومة.

وكانت الخدمة في الجيش ملازمة لحق الانتخاب ،حيث كان على كل مواطن أن يعمل في الجيش ،ومعرضا- وحتى الستين من عمره – لأن يجند للقتال في أية حرب تحدث.غير أنه لا يمكن القول إن الحياة الاثينية كانت حياة عسكرية؛فلن يكن هناك تدريب عسكري يستحق الذكر بعد فترة التدريب الأولى ولم يكن الجيش يتدخل في أعمال السكان المدنيين،وكان الجيش في المدينة يتألف من فرق المشاة الخفيفة،وكانت أكثريتهم من المواطنين الفقراء الذين يحملون الرماح والمقاليع .أما فرق المشاه الثقيلة فكانت تتألف من المواطنين الأغنياء الذين تمكنهم مواردهم من شراء الدروع والترس والحراب،ومن فرق الفرسان وتتألف من كبار الأغنياء ذوي الدروع والخوذ،حملة الرماح والسيوف.

أما الأسطول لديهم ،فكانـت طريقـة الاحتفـاظ بـه أن يختـار في كـل عـام أربعمائة من الاغنياء امتيازهم الخاص أن يجندوا بحارة السفن ،ويهيئوا الـسفينة ذات ثلاثة الصفوف من المجاديف بما يلزمها من أدوات تقدمها لهم الدولة،على أن يؤدوا هم نفقات بنائها وانزالها في البحر والمحافظة عليها من العطب ،وبهذه الطريقة كانت تحتفظ اثينا وقت السلم بأسطول مؤلف من نحو ستين سفينة.

لقد كانت نفقات الجيش والاسطول تستنفد الجزء الأكبر مـن مـصروفات الدولة،أما مصادر الايرادات فكانـت هـي المكوس،وعوائـد المرافيء،وضريبـة مقدارها اثنان في المائة على الواردات والصادرات ،وضريبة الفرضـة ومقـدارها اثنتا عشرة درخمةعلى كل فرد مـن الاجانب،ونـصف درخمـة عـلى كـل معتـوق ورقيق،وضريبة العاهرات،وضريبة البيـوع،والرخص ،والغرامـات،والاملاك المصادرة،والجزية التي تؤديها الولايات،وقد الغـت الديمقراطيةالـضريبة التـي كانت مفروضة من قبل على الحاصلات الزراعية.وكانت جباية معظم الضرائب يناط بها الملتزمون يجمعونها لحساب الدولةويحتفظون لأنفـسهم بنـصيب منهـا وكانت الدولة تحصل على ايراد كبير من استغلال موارد البلاد المعدنية.وكان في

أثناء الأزمات تجبى ضريبة على رؤوس الأموال تختلف نسبتها باختلاف الاملاك .كذلك كان الأغنياءيدعون لأداء بعض الخدمات العامة كتقديم ما يلزم من المعدات للسفراء الذاهبين في مهام من خارج البلاد،واعداد بعض السفن للاسطول،أو أداء نفقات المسرحيات،أو المباريات الموسيقية ،والألعاب وكان بعض الاغنياء يتطوعون لاداء هذه الخدمات ويلزم الرأي العام غيرهم بأدائها.وكان مما يضاعف متاعب الأغنياء أنه كان في وسع أي مواطن آخر أو أن يستبدل بها فريضته إذا اثبت أن هذا المواطن الآخر اغنى منه.

وبمقابلة الإيرادات بالمصروفات يظهر أن احتياطيا من المال كانت المدن تودعه عادة في هيكل المدنية،حيث أودعت أثينا هذا الاحتياطي بعد عام ٤٣٤ق.م. في "البارثينون" وكان للدولة حق الانتفاع بهذا الاحتياطي .وبذهب التماثيل التي لا تقيمها لآلهتها. وكانت المدينة تحتفظ في الهيكل ايضا بالمال الذي تؤديه للمواطنين ليشاهدوا المسرحيات والالعاب المقدسة.

لذا نجد أن هذه الديمقراطية كانت اضيق الديمقراطيات واكملها في

التاريخ.اضيقها لقلة عدد من يشتركون في امتيازاتها،واكملها لانها تتيح لجميع المواطنين على قدم المواساة فرصة السيطرة بأنفسهم على التشريع وتصريف الشؤون الإدارية.غير أن في هذه الديمقراطية عيوبا،منها قصر السلطة التشريعية على الذين يستطيعون حضور الاكليزيا،وتشجيع الزعماء المهرجين،ونفي القادرين من الرجال نفيا أفقد المدينة عددا كبيرا من خيرة كبرائها،وملء المناصب العامة بالقرعة والدور،وتغيير الموظفين في كل عام ،واشاعة الفوضى في الإدارة الحكومية،ومنها نزاع الاحزاب الذي لم ينفك يحدث الارتباك في توجيه اعمال الدولة وشؤونها الادارية.

ولم تكن هذه الديمقراطية الارستقراطية نظاما يفسح الطريق لكل انسان ليفعل ما يحلو له ،كما انها لم تكن رقيبا عتيدا على الاملاك والنظام فحسب،بل كانت تشجع بالمال المسرحيات اليونانية وتشييد البارثنون،وتعمل لرفاهية الشعب وتقدمه ،وتهيأ له الفرص التي لا تمكنه من أن يعيش فحسب ،بل تمكنه من أن يعيش على خير وجه.



الفصل الخامس:

الادب المسرحي عند اليونان

عرف الشعر المسرحي أروع روائعه في اثينا، تلك المدينة التي أعطت المثل في الديمقراطية والتي لم تتفوق عليها اية مدينة اخرى في رونق الاعياد الدينية.والتي من بينها أعياد "ديونيسوس" ،التي تميزت بالتمثيل المسرحي حيث المسرح الذي ترتاده الجماهير بما فيهم الفقراء الذين كانت الدولة تدفع لهم رسوم الدخول.

لقد ارادت من هذا الاهتمام الكبير بالمسرح تجميل الحياة عن طريق السمو بالافكار وفاقا لحلم رجال الدولة الديمقراطيين آنئذ؛ فهي تريد جمع الشعب باكمله وتحريكه بمشهد يثير فيه الضحك أو القشعريرة من هول المأساه ،ووضعه، بشكل جذاب حي،أمام مشاكل هو مدعوا للتفكير بها في مكان آخر

غير الجمعيةالسياسية.ولعل هذا كله ما يفسر لنا ضخامة التحديات المادية التـي فرضتها هذه الاعياد على الخزينة العامة وعلى المـواطنين الاغنيـاء والمنـوط بهـم انتقاء الجوقات واكساؤها،وتدريبها،وهذا ما يفسر كـذلك تزايـد نجـاح عـدد التمثيليات.وهو بالتالي يفسر لنا مجد المسرح الاثيني الذي بقي زمنا طـويلا دون منافس،يشكل اشعاعا حضاريا،ينطلق من مركز الحضارة،مدينة الآلهة(اثينا).

كان المسرح نتاجا أدبيا، غير أنه يستلزم موجبات فنية مادية ايضا تتعقد يوما بعد يوم.فقد كان المسرح في القرن الخامس ق.م.مجرد صقالةخشبية تقـام لايـام معدودة،ثم اتخذ في القـرن الرابـع ق.م.وفي كـل مكان،شـكل البنـاء الحجـري الثابت،وحتى الرخامي في بعض أجزائه،واعد لاستقبال ألوف المشاهدين وكان يجهز لهذه الغاية منحدر احدى التلال،ويجري التمثيل في الهواء الطلـق، غـير أن الملاحظ في المسرح أنه لم يكن مجهزا بوسائل الراحـة التـي كـان مـن الـضروري توفيرهـا،إذ أن الجلـوس عـلى دكـات "غـير مريحـة"،دون وقايـة مـن الحـر والمطر،سحابة عشر ساعات في اليوم لمدة ثلاثة أيام كان يقتضي جلدا عظيما.

لقد حاول المخرجون في مكان التمثيل ايجاد الصورة الخادعة بالتزيين المصور الجزئي وبتحسين الأدوات المبتكرة التي كانت بدائية جدا. وكانت الجوقة التي تجول في القسم المستدير من المسرح أمام الدكات، موزنة المقاطع الايقاعية، اكبر عناصر الفرقة عددا (١٢)، ثم ١٥ للمأساة، ٢٤ للمهزلة. ولكن اهميتها تتدنى ،وبعد أن كان الممثل مجرد "مجيب" على الجوقة ،اصبح بذلك شخصا يقابل اشخاصا سواه، كما أن الرواية دبت فيها الحياة بفعل التمثيل المباشر وتصادم الآراء وتعاقب الاسئلة والاجوبة السريعة

ان هذه التغيرات لم تحل دور استمرار مصطلحات مرتبطة بنشأة المسرح وظروفه المادية على السواء، فنحن نعلم لماذا توجب على كل مؤلف، في مباراة المآسي، تقديم ثلاث روايات فاجعة كان من الضروري ،لمدة قصيرة، أن تؤلف كلا واحدا، ولكن الرغبة في أن يكون "لديوينسوس" نصيبه من التمثيليات المعدة لاعياد فرضت على المؤلف أن يرفق هذه الروايات الثلاث ب(مأساة-مهزلة) مكرسة لاحد احداث اسطورة الآلهة. ولنضف إلى ذلك مثلا آخر هو تقنع الممثلين. فعند الشعوب المختلفة، وحتى في أيامنا، (عند الشعوب البدائية)،

درج استعمال القناع في الاعياد الدينية او استعيض عنه باعتمادالملونات المختلفة على الوجه .ان القناع ينزع من الممثل شخصيته وفرديته وينتزعه من الواقع اليومي ويرفعه إلى مرتبة المثال العام،ويسهل الايهام الذي يتيح له لعب أدوار مختلفة في التمثيلية الواحدة ،أو لعب دور ليس بفطرته معدا له كدور الالهة او كدور البطل أو المرأة إذ ان العادات لاتجيز للمرأة، مثل هذا العرض امام الجماهير.أضف إلى ذلك أن القناع يضخم الصوت ويجعله أكثر جلاء لجمهور غفير.

ويعود الفضل في ذلك إلى مؤلفي المآسي في القرن الخامس قبل الميلاد،فبفضلهم أدى المسرح قسطه الرئيس في مهمة التربية الفكريةوالأخلاقية التي استلزمها مفهوم الديمقراطية.لقد اقتبس هؤلاء مواضيعهم،على العموم من الاسطورة الخرافية وقد نلمس عند بعضهم ،لا سيما في البداية، ميلا إلى معالجة الاحداث قريبة العهد،فعلى سبيل المثال نجد أن الشاعر المسرحي "اسشيل"في روايته "الفرس"يستعيد بعد ثماني سنوات معركة "سلامين"التي اشترك فيها كما اشترك في معركة "ماراثون"حيث قتل أخوه.

إن هذا الميل والذي كـان مـن العـسير جـدا أن يـأتلف مـع ميـزة التمثيـل المسرحي والفكرة الدينية فيه ، لم يحرز الغلبة،ولم يلبث أن أنتهـى للـزوال، وقـد وفرت العقيدة الخرافية، على كل حال،ما يتخللها من فوارق كثيرة يختار الشاعر فيها بملء حريته،ينابيع حية لا تحـصى للالهـام الشخـصي وللتـسيير الشخـصي ايضا.فالاسطورة الواحـدة.كاسـطورة"اورسـتس"مثلا،تتناولهـا عـلى التـوالي المعالجات الكثيرة المختلفة.وتعبر هذه الخوارق ،شأن ميزة الشعراء الفرديـة،عن التطور الفكري والاخلاقي السريع الذي طبع الاجيال اللاحقة.

وبالمقابل نجد أن الأمور تتبدل مع "سـوفوكليز"؛فهـو لا يهمـل شـيئا مـن التدين التقليدي ،ولكنه لا يحتفظ في مآسيه بالمركز الأول للالهـة.فالقـدر عنـده يبقى سيد الانسان ويفرض عليه الانقياد الدائم،لا بـل الـذل الـذي نفيـه امـام فساداته القصوى.ولكن القدر اقل ظهـورا وتـضييقا،واكثر انفتاحـا في الوقـت نفسه،على مفاهيم العدل والمسؤولية .اضف إلى ذلـك مـا أورده"سـوفلكيز" في مأساة "انتيغون" لم يورده عبثا:"هنالك اشياء مدهشة كثيرة،ولكن واحدا منهـا لايوازي الانسان".

إذ أن سيكلوجيته تتعمق في الاستقصاق وتتنوع متدرجة من العنف الحاد حتى أرفع العواطف دقة.وبدلا من ان بتصلب الاشخاص عنده في مخالفة بعضه بعضا،شأنهم عند "اسشيل"،فانهم قد اخذوا شيئا فشيئا بتقديم البراهيين والحجج،رغبة منهم في التعريف عن أنفسهم تعريفا أكثر مرونةوفي ابعاد التهم الملصقة بهم . ومن حيث أن "اسيشيل" عاصر "بريكليس" فانه يدخل على لاهوته خبرة اوسع تنوعا وارفع انسانية وينتقل في الوقت نفسه إلى الشعر فن "فيدياس" المتميز بالجلال والبساطة معا.

ثم يبرز "اوربيد" الذي يفصله عن"سوفوكليز" فرق خمسة عشرة سنة في السن فقط، الذي مثلت أعماله ثورة فكرية،فهو أي اوريبدس لا يتردد في الانتقاض بصراحة على الاعتقادات القديمة وفي انتقاد التقاليد المستجدة او المنافية للأخلاق. فليست الاسطورة في نظره سوى حجة فقط وتقتصر الرواية المستندة اليها على مستوى الحياة العائلية.لقد تمتع اوبيدوس بمخيلة بسيطه وبإحياء فائق الحدة ففي أشد الظروف عنفا ادهش وهز مشاهدي هذه المآسي التي أصبحت مآسي بروجوازية أو أوربفية أحيانا.فقد يحدث في مسرحياته أن

يسمو أحقر الناس،ويصبح أكثر نبلا وفضيلة،من الأبطال والبطلات الذين تحركهم بالمقابلة الاهواء البشرية والضعف البشري.فالملاحظ أن إطار رواية "اليكترا"ليس قصر ارغووي الملكي ،بل قرية وضيعة في "الارغوليد"تكون فيها ابنة اغامنون زوجة لفلاح غفل(بسيط)هو نفسه الذي يتجه إليه عطف الشاعر.كما ذهب اوروبيدوس إلى ابعد من هذا،فهو يسلم بالمناقشات الفلسفية الكبرى،وحتى بعض المعاضل السياسية الراهنة،مضطرا احيانا لايقاف سير احداث الرواية،ومبرهنا على الدوام عن بصيرة دقيقة اخذت بمجامع قلوب الهواة انفسهم، ويقال ان سقراط قد دوام على حضور كافة تمثيليات اوربيدوس.

أما بالنسبة للكوميديا (الهزلة)عند الاثينيين،فأقول لك أن شأنها كشأن المأساة ولدت من ظرف اعياد"ديونيسيوس" نفسها غير انها استهدفت اثارة الضحك،ولذلك نرى انها نعمت بحرية أوسع.كما انها كانت مفتحة على خير اثينا مما ادخل عليها تنوعا واضحا.

لقد كان ومنذ النصف الاول من القرن الخامس ق.م.،ذلك الهزلي الذي

غطى نشاطه شطرا من القرن الخامس واخر من القرن الرابع ق.م.سيراكوزا،اشتهر " ابيخارموس " كممثل رئيس فيها ،استوحت مواضيعها من الحياة الشعبية والملاحظة اليومية ثم استمرت في التمثيل الايمائي.

ومن المهازل القديمة كذلك مهزلة "ارسطوفانوس" ان هواه ومداعبته وغلاظته لا تعرف احدا.فهو يلجأ بصورة طبيعية جدا إلى المداعبات البذيئة وحتى إلى القذارات نفسها،ويزدري بالالهة الذين يصورهم في اوضاع مضحكة احيانا.ويتناول ،شانه في ذلك شأن الهزليين الآخرين الذين تهمكوا تهمكا لاذعا من "بريكليس" نفسه، الرجال الاحياء المعروفين المشهورين الذين يصورهم صورا هزلية تعجز قوة الخيال فيها عن أن تنسى ما فيها من تظلم فظيع.

ويعارض "ارسطو فانوس" النظام الديمقراطي ، وينادي بالسلام حتى في خضم الحرب القومية، وينتقد اوربيدوس وجراته الإلحادية،ولكنه لا يمتنع عن تقليد رقته المجددة،ولا يهتم للتناقض ولا للشطط،ولكن هذه الغرابة المتفلتة يرافقها شعور بالغ الرقة،وإحساس فائق اللطف بجمالات الطبيعة التي يعبر

عنها بمهارة نادرة في السبق والايقاع،ان مؤلفات ارسطو فانوس المدهشة تـشير إلى مرونة الفكر اليوناني،وفي القرن ٤ ق.م. بلغ تذوق المسرح ذروته،فتعـددت الأبنية والاعياد،ونمت شعبية الممثلين نموا بالغا،وزاد الانتـاج زيـادة كبـيرة لا سيما وان شعراء كثيرون قد برزوا في غير اثينا.

لقد هبطت المأساة في هذا القرن الرابع ق.م.هبوطا كبيرا.وصـار الجمهـور يستطيب التكرار فيها ولا سيما تكرار تمثيليات اوربيديس من القرن السالف.في حين أن المهزلة احتفظت بحيويتها على الرغم مما طرأ عليها من تحولات عميقة.

الأفلاطونية :

لقد كان "أفلاطون" ينتمي إلى أسرة عريقـة يرجـع اصـلها إلى ملـوك أثينـا الاولين،برع في جميع نواحي الحياة آنذاك، حيث نبغ في الموسيقا، والرياضـيات، والبلاغة، والشعر، وافتـتن في جمـال طلعتـه، وصـارع في الالعـاب البرزخيـة. سـمي"ارسـتقليس"ولقبـوه افلاطـون اي العـريض لأمـتلاء جـسمه وقـوة بنيته.حارب في ثلاث معارك ونال جائزته في الشجاعة،وكتب فكاهات شـعرية

وغزلا،ومأساة رباعية تكونت من أربع مسرحيات؛ثلاث منها مـآس والرابعـة هجائية،كانت تمثل مجتمعة في عيد ديونيسوس في اثينا.

اعجـب افلاطـون وهـو في الـسن العـشرين بالـشيخ سـقراط ،وفهـم تعاليمـه،وفهم كيـف رمـى سـقراط بافكـاره كـالبهلوان،مرتكزا عـلى أسـنة أسئلته،فما كان منه إلا أن تبعه وكأنه قد سحره أو نومه تنويما مغناطيسيا.

ولما بلغ أفلاطون سن الثالثة والعشرين من عمره شبت ثورة المحـافظين في اثينا عام ٤٠٤ ق.م.وشـهد ايـام الارهـاب الاجركـي الرهيبة،وشـهد محاكمـة سقراط وموته،فبدا العالم كله كأنه يتصدع ويتحطم مـن حولـه ،ففـر مـن اثينـا ويظهر أنه سافر إلى مـصر ،حيـث درس عـلى الكهنـة هنـاك العلـوم الرياضـية والمعارف التاريخية الشعبية. ثم عاد إلى اثينا مرة أخرى .حيث حارب دفاعا عن "كورنثه" ثم درس فلـسفة "فيثـاغورس" ثـم انتقـل إلى "صـقلية"،وبيـع بيـع الرقيق.ثم عاد سالما إلى اثينا وهناك أنشأ "الأكاديمية" التي قدر لها فـيما بعـد أن تكون مركز بلاد اليونان العقلي تسعمائة عام كاملة.

لم يتبع افلاطون،فيما خلفه من افكار خطة منظمـة،وكان افلاطـون شـاعرا مغرقا في شاعريته إلى حـد يمنعـه أن يقيـد أفكـاره ويحـدها بحـدود،وإذا كـان افلاطون شاعرا فقد كان المنطق اكثر ما يعترض سبيله من الصعاب،فهو يجـول هنا وهناك يبحث عن التعارف ويظل السبيل في التشبيهات التي تعرضه لأشـد الأخطار .انظر إلى قوله مثلا: "ثم دخلنا في تيه،ولما حـسبنا اننـا قـد وصـلنا إلى آخره،رأينا أنفسنا مرة أخرى في بدايته وكان علينا أن نعود إلى البحث عن مخرج "ويختتم حديثه هذا بقوله:"ولست واثقا قط من أنه يوجد من بين العلـوم علـم كالمنطق".ولكنه مع هذا يخطو فيه الخطوة الأولى ،فهو يفحص عن طبيعة اللغـة ويقـول إنهـا مـشتقة مـن محاكـاة الأصـوات،ويبحث في التحليـل والتركيـب، والتشبيهات، والمغالطات ويقبل الاستقراء ،ولكنه يفضل الاستدلال ويضع في هذه المحاورات الـشعبية نفسهامـصطلحات متينـة،كالجوهر والطاقـة والعقـل والانفعال والتوليد،وهي المصطلحات التي استخدمتها الفلسفة فيما بعد .وهـو يضع اسماء لخمس من المقولات العشر التي اذاعت شهرة ارسطو طاليس.وهو يرفض قول "السوفسطائيين" إن الحواس خير وسيلة لمعرفة الحقيقة وان الفـرد

هو مقياس الأشياء جميعها .ويقول إنه لو صح هذا لكان ما يقوله أي إنسان عن العالم مساويا في قيمته لما يقوله أي نائم ، وأي مخبول وأي فرد

ويرى افلاطون أننا لسنا نستمد من فوضى الحواس إلا فيضا من التغـيرات الهرقليطية ،ولو لم تكن إلا احساسات،لما كانت لدينا قـط معلومـات أو حقـائق ؛ذلـك أن المعلومـات لا تـأتي إلا عـن طريـق الأفكـار ،وعـن طريـق الـصور المعممة،والاشكال التي تصوغ فوضى الاحساسات وتكون منها التفكير المنظم .ولو كنا لا ندرك إلا الاشياء الممفرده لكان التفكير مـستحيلا،ذلك اننـا نـتعلم التفكير بجمع الأشياء وتصنيفها حسب ما فيها من أوجه الشبه ،ثـم نعـبر عـن الصنف باجمعه باسم عام له، فلفظ رجل يمكننا من ان نفكـر في جميـع الرجـال ،ولفظ منضدة يمكننا من التفكير في جميع المناضد، ولفظ ضوء في جميع الاضواء التي سطعت في البر او البحـر. وليـست هـذه الآراء باشـياء تـدركها الحـواس ،ولكنها حقائق تعـرف بـالتفكير، لانهـا تبقـى، ولا تتغير،ولـو انعـدمت جميـع الموجودات الحسية المقابلة لها .فالرجال يولدون ويموتون، ولكن الرجل يبقى، وليس كل مثلث بمفرده إلا مثلث ناقصا، يفنى عاجلا أو أجلا ، ومن أجل هذا

فهو غير حقيقي نسبيا،ولكن (مثلث)أي الشكل والقانون الذين ينطبقـان عـلى جميع المثلثات – كامل سرمدي ،وكل الاشكال الرياضية افكار سرمدية كاملـة. وكـل مـا تقولـه الهندسـة عـن المثلثـات، والـدوائر، والمربعـات، والمكعبـات، والكرات...يبقى صحيحا، ومن ثم فهو حقيقي، ولو لم توجد هذه الاشكال في العالم المادي في الحاضر او في المستقبل. والمعاني المجردة هي الآخرى حقيقية بهذا المعنى، فالاعمال الفردية الفاضلة قصيرة الاجل، ولكن الفضيلة تبقـى حقيقيـة خالدة في التفكير، وأداة التفكير وهذا ايضا شأن الجمال، والكبر، والمشابهة، وما اليها.فالاعمال والاشياء الفردية اشياءواعمال بالصورة التي نعرفهـا بهـا، لكنهـا تشترك في هذه الاشكال الكاملة، أو الافكار،وتحقق وجودهـا بدرجـة قليلـة أو كثيرة.وعالم العلم والفلسفة لا يكون من اشياء مفردة، بـل يتكـون مـن افكـار، والتاريخ المتميز عن السير هو قصة الانسان وليس علم الاحياء هو علم كائنات عضوية معينة بل هو علم الحياة نفسها،وليـست العلـوم الرياضـية هـي علـوم الأشياء المجسمة بل هي دراسة العدد،والعلاقة والشكل،مستقلة عـن الاشـياء نفسها،وليست العلوم الرياضية هي دراسة الاشـياء المجـسمة بـل هـي دراسـة

العدد،والعلاقة ،والشكل ،مستقلة عن الاشياء نفسها،ولكنها تصدق على جميع الاشياء ،والفلسفة هي علم الافكار.

لقد كان كل شيء في ميتافيزيقية افلاطون يدور حول نظرية الافكار.فـالله هـو المحرك الأول الذي لا يتحـرك،أو روح العـالم ،يحـرك كـل شيء وينظمـه حـسب القوانين والاشكال الازلية،وهي الافكار التي لا تتبدل والتـي تكـون – عـلى حـد قول اصحاب الافلاطونية الحديثة – الكلمة أو الحكمة الإلهية أو عقـل الله.وارقـى الافكـار هـو الخير،ويـر ى افلاطـون في بعـض الاحيـان أن هـذا الخـير هـو الله نفسه،ولكنه في أكثر الاحيان هو أداةالخلق الهادية المرشـدة.والـشكل الاعـلى التـي تنجذب اليه كل الاشياء.وادراك هذا لخير،ورؤية هذا المثـل الاعـلى الـذي يـشكل عملية الخلق،هو اسمى غاية تبتغيها المعرفة،وليس الحكمة وعملية الخلق عمليتـين آليتين،بل هما تحتاجان في العالم،كما نحتاج نحن إلى روح أومبدأ حيـوي يكـون هـو قوتها المنشئة المبدعة.

ويرى افلاطون أن الشيء الحقيقي هو الشيء الذي يمتلك قوة، ومن اجـل

هذا فإن المادة ليست حقيقية اساسية بل هي مبدأ من القصور الذاتي،وامكانية تنتظر أن يعطيها الله أو الروح شكلا خاصا وكيانا حسب فكرة من الافكار، والروح هي القوة المتحركة بنفسها الموجودة في الانسان، وهي جزء من الروح المتحركة بنفسها الموجودة في الاشياء جميعها، وهي قوة حيوية خالصة، مجردة من الجسم، وخالدة، وقد وجدت قبل الجسم، وجاءت معها من حلولها في اجسام سابقة بذكريات كثيرة إذا ايقظتها الحياة الجديدة حسبناها خطأ معلومات جديدة .لقد كان افلاطون يعرف أن الكثيرين من قرائه سيكونون من المتشككين والدليل على ذلك أنه قضى بعض الوقت يحاول فيه وضع قانون أخلاقي طبيعي يبعث في نفوس الناس الرغبة في الاستقامة والصلاح من غير أن يعتمدوا على السماوات والمطر والجحيم .إن المحاورات، التي كتبها في حياته الوسطى تحولت شيئا فشيئا من الميتافيزيقيا إلى الاخلاق والسياسة. يقول : ان أعظم أنواع الحكمة واجملها هي الحكمة المتصلة بتنظيم الدول والاسر

إن المشكلة الرئيسية في علم الاخلاق تدور حول النزاع الظاهر بين ملاذ الفرد وبين الخير الاجتماعي. ويعترف أن كثيرا من الملاذ لا عيب فيه ولا أثم

وأن الانسان في حاجة إلى الذكاء للتمييز بين اللذات الطيبة واللذات الضارة .

وتتكون النفس أو أصل الحيـاة (عنـد أفلاطـون) مـن ثـلاث درجـات هـي: الشهوة، والارادة، والفكر. ولكل جزء مـن هـذه الاجـزاء فـضيلته الخاصـة هـي: الاعتدال ، الشجاعة، والحكمة تضاف إليها التقوى والعدالة أداء واجـب الانـسان نحو والديه والهته. ويمكن تعريف العدالة بانها هـي تعـاون الاجـزاء في الكـل ،أو العناصر في الخلاق ، أو الاهلين في الدولة بحيث يقوم كل جزء بواجبـه اللائـق بـه على الوجه الاكمل وليس الخير هو الفعل وحده أو اللذةوحدها ، بل هو امتزاجهـا بنسب ومقادير تنتج منها حياة الفعـل.والخـير الاسـمى كـائن في العلـم الخـالص باشكال القوانين السرمدية، و(اسمى الخير)مـن الناحيـة الاخلاقيـة هـو : (مـا في النفس من قدرة أو موهبة إذا كان ثمة شيء من هـذا النـوع تـستطيع بـه أن تعـرف الحقيقة وأن تفعل كل الاشياء من أجـل الحقيقـة؛ ومـن يحـب الحقيقـة لا يهمـه أن يجزي الاساءة بالاساءة بل يفضل أن يتحمل عـلى أن يرتكـب هـو الظلـم ويقـول :ويضرب في الارض برا وبحرا يبحث عن الناس الذين لا يجد الفساد سـبيلا لهـم ،والذين لا تكون صحبتهم بالمال اينا كان والـذين يهبـون أنفـسهم للفلـسفة بحـق

يمتنعون عن الشهوات الجسمية ، وإذا ما عرضت عليهم الفلسفة أن تطهرهم من الشر وتحررهم منه ، حسوا بأن من واجبهم إلا يقاوموا تأثيرها فيهم ؛ومن اجل ذلك يميلون نحوها ،ويسيرون خلفها للهدف الذي تقودهم إليه

وكان أفلاطون قد احرق قصائده وفقد عقائده الدينية لكنه ظل مع ذلك شاعرا وعابدا ،يغمر فكرته عن الخير احساس قوي بالجمال والتقوى ممتزجة بالزهد والتقشف؛توحدت فيه الفلسفة والدين وامتزجت فيه الاخلاق بحاسة الجمال ولما تقدمت به السن عجز عن أن يرى الجمال منفصلا عن الخير والحقيقة .وكان في دولته المثالية يفرض الرقابة على جميع الفن والشعر الذين قد ترى الحكومة أن فيها نزعة مغايرة للاخلاق الفاضلة أو الوطنية ،وهو يمنع فيها جميع الخطب وجميع المسرحيات المضادة للدين ؛وحتى شعر هومر نفسه-الذي يصور الدين المغاير للاخلاق تصويرا مغريا -يجب أن يضحي به وكان يجيز في هذه الدولةالمثالية أساليب الموسيقى الدولية ولكنه يشترط ألا تضر بها آلات معقدة التركيب أو يعزفها فنانون يحدثون اصواتا وحشية في أثناء عرضهم الفني ، ويدخلون فيها بدعا متطرفا .في هذا يقول : يجب الابتعاد عن إضافة أي نوع

جديد لأنواع الموسيقى ،لأن هذا يعرض الدولـة كلهـا للخطر؛سـبب ذلـك أن الانماط الموسيقسة إذا اضطربت أثرت حتما في أهم الأنظمة الـسياسية.ذلـك ان النمط الجديد يتأصل في الدورة تدريجيا ،ويتطرق شيئا فشيئا إلى أخلاق النـاس وعاداتهم ، ومن هذه الأخلاق والعادات يهاجم الشرائع والدسـاتير ويظهـر في هذا الهجوم منتهى السفالة ، وينتهـي الامـر في كـل شيء في الدولـة رأسـا عـلى عقب⁽

والجـمال عنـد افلاطـون كالفـضيلة إنـما يكـون في اللياقـة، والتناسـب ، والنظام.والعمـل الفنـي يجـب أن يكـون مخلوقـا حيـا ، ذات راس ، وجـذع ، وأطراف توحدها وتبعث فيها الحياة.ويظن هذا المتزمـت المـتحمس أن الجـمال الحق هو جمال العقل لا جمال الجسم وأن الاشكال الهندسية ذات جمال سرمدي مطلق ، وأن القوانين التي تقوم عليها السماوات تفوق النجوم في جمالها، والحب هو طلب الجمال ويتالف من ثلاث مراحل أولها حـب الجـسم ، والثانيـة حـب الروح، والثالثة حب الحقيقة. وحب الجسم بين رجل وامرأة مشروع لا إثم فيـه لأنه وسيلة التناسل الذي هو نوع من أنـواع الخلـود، ولكنـه مـع ذلـك صـورة

بدائية من الحب غير جديرة بالفيلسوف. والحب الجسمي بين الرجل والرجل ،أو بين المراة والمرأة مناف للطبيعة ويجب قمعه لانه يعطل التناسل.قمعه مستطاع بالسمو به إلى المرحلة الثانية أعني المرحلة الروحية من مراحل الحب: ففي هذه المرحلة يحب الرجل كبيرالسن الشاب لأن وسامته رمز للجمال الطاهر السرمدي، والشاب يحب الشيخ لان حكمته تيسرله سبيل الفهم والشرف. ولكن أسمى أنواع الحب هو حب الاستحواذ على الخير الابدي، وهو الحب الذي يسعى وراء الجمال المطلق للافكار أو الاشكال الكاملة السرمدية وهذا النوع لا العاطفة غير الجسمية بين الرجل والمرأه هو الحب الافلاطوني وهو النقطة التي يتحدث عنها افلاطون الشاعر مع افلاطون الفيلسوف في الرغبةالقوية في الفهم ،وتكاد هذه في الرغبة أن تكون شغفا صوفيا بها في القانون وما في بناء العالم وحياته وغاياته من نور النعيم الباهر.

كان افلاطون يحلم بوجود مجتمع خال من الفساد والظلم والفقر والحروب ، إذ كان يروعه ما يسود اثينا من انقسامات حزبية مريرة وشقاق ،وعداء ،وحقد ،وريبة ، لا تكاد تخمد نارها حتى تعود إلى الاشتعال .وكان يحتقر

الجركية المال كما يحتقرها جميع النبلاء أبناء الاسر الشريفة ذات المجد التليد ، ويقول عن رجالها انهم : رجال الاعمال.. أنهم الذين تطاوعهم نفسهم إلى رؤية ما قضوا عليهم بشجعهم ويدفنون سمومهم (أي ماهم)بجسم كل من لا يحذرهم، يستمدون ما أخذوا منهم أضعافا مضاعفة وتلك هي الطريقة التي يملؤون بها الدولة بالكسالى والمعدمين.

ويتابع قائلا:(ثم تنشأ الديمقراطية ،بعد أن يتغلب الفقراء على معارضيهم، فيقتلون بعضهم، وينفون من بلاد البعض الاخر ثم يمنحون الباقين أقساطا متساوية من الحرية والسلطة).

ويتضح اخر الامر أن الديمقراطين لا يقلون فسادا عن الحكام الاثرياء ، فهم يستخدمون القوة التي تعود إليهم لكثرة عددهم ليوزعوا الاموال العامة على الفقراء، ومناصب الدولة عليهم أنفسهم وهم يتملقون العامة ويداهنون حتى تنقلب الحرية فوضى وتنحط المعايير بعد أن تؤول السلطة العليا إلى أراذل الناس ، وتغلظ الطباع بسبب انتشار الوقاحة والسباب ،ويقضي على

الديمقراطية التطرف في الحرية.

وفي هذه الدولة تسود الفوضى ، وتتخذ سبيلها إلى بيوت الافـراد، وينتهـي الامر بانتقال عدواها إلى الحيوانـات فيتعـود الاب النـزول إلى مـستوى أبنائـه، ويتعود الابن على أن يضع نفسه في مستوى أبيه، فلا يخشى ابويـه، ولا يـستحي منهما ، ويخاف الاستاذ طلابه ويتملقهم، ويحتقر الطلاب اسـتاذهم ومعلمهـم، ويصبح الكبار والصغار سواسية، فيضع الشاب نفسه في مـستوى الـشيخ، ولا يستنكف أن يعارضه بالقول والفعل ، ولا يتحرج الـشيوخ مـن تقليـد الـشبان .ومن الواجب ان لاننـسى حريةالجنـسيين؛الذكور والانـاث ومـساواة كلـيهما بالاخر في علاقتهما ببعضهما ،والحق ان الخيل والحمير لـن تعـدم وقتئـذ سـبيلا للسير مع الناس جنبا إلى جنب ،والاستمتاع بكل ما لأحرار الناس من حقـوق وكرامات ، وقصارى القول إن الاشـياء توشـك أن تنفجـر لكثـرة مـا أتخمـت بالحرية.

واذا ما صارت الحرية تطرفا من كل القيود،فقد اقتربت الدكتاتورية ،ذلـك

ان الاغنياء يخشون وقتئـذ أن تجـردهم الديمقراطيـة مـن الحكـم فيـأتمرون بهـا ليقضوا عليها.وقد يغتصب السلطة احد الافراد المغامرين، ويعد الفقراء بكل ما يرغبون فيه ويحيط نفسه في جيش خـاص بـه ،ويقتـل أولا اعـداءه ثـم يتـبعهم باصدقائه "حتى يطهر الدولة"من هؤلاء واولئك ،ويقيم حكومة دكتاتورية.

فانشغل بعض العلماء بكتابة التاريخ ، في حين أن افلاطون لجأ إلى المستقبل ، حيث وضع نظام المدينة الفاضلة ويرى ان من أول ما يجب عمله هو البحث عن ملك صالح يسمح لنا بان تجري التجارب على شعبه .. والواجب الآخر في هذه المدينة ان تبعد عنها جميع الكبار فلا يستبقي منهم إلا مـا لا غنـى عـنهم لحفـظ النظام وتعليم الشبان ، وذلك لأن أساليب الكبار تفسد الشباب وتطبعهم بطابع الماضي . ثم يعد للشباب رجالا كانوا او نساءا منهجا تعليميا يمتـد إلى عـشرين عاما ، ويشمل تعليم الاساطير والمقصود به اساطير جديدة تعود الـنفس طاعـة الاباء والدولة فإذا قضوا في التعاليم هذه المدةوضعت لهـم اختبـارات جـسمية وعقلية واخلاقية . فمن يخفق في هذه الاختبارات يصبح من رجال الاقتصاد في الدولة (رجال الاعمال والصناع والزراع)ويسمح لهـؤلاء أن تكـون لهـم مـلاك

خاصة،أن يكونوا على درجات مختلفة في الثراء حسب كفاياتهم ، على أن لا يسمح بوجود العبيد أما من يتجاوزون الاختبار الاول فيتلقون منهاجا آخر من التعليم والتدريب يمتد إلى عشرة أعوام أخرى .

ثم يختبرون من جديد بعد الأعوام الثلاثين ، فالساقطون يصبحون جنودا ، لا يسمح لهم بالاملاك الخاصة ولا يشتغلون بالاعمال التجارية والمالية ، بل يعيشون في شيوعية عسكرية ومن يجتاز الاختبار التالي منهم يبدأ في ذلك الوقت دراسةالفلسفة الالهية مدة خمس سنين وتشمل الدراسة جميع فروع هذه الفلسفة من رياضيات الى منطق إلى سياسة إلى قانون ، وبعد اتمامهم هذه الدراسة يلقون في الحياة العلمية ليكسبوا قوتهم ويشقوا طريقهم وبعد خمسين عاما يصبح الباقون منهم على قيد الحياة الطبقة المهيمنة على المدينة أو حكامها من غير حاجة إلى انتخاب .

ويمنح هؤلاء السلطة كلها ولكن لا يكون لهم أملاك ، ولن تكون للمدينة قوانين بل تعرض كل القضايا والمنازعات إلى الملوك – الفلاسفة–ليفصلوا فيها

بحكمتهم التي لم تفسدها السوابق وان يكون ولاءالملوك – الفلاسـفة – ملـك ولا مال ولا اسر،ولا زوجات يختصون بهن على الدوام ،وذلك لكـيلا يـسيئون استخدام سلطتهم ،ويتولى الشعب التصرف بـاموال المدينـة ،كـما يتـولى الجنـد السلطة العسكرية ،وليست الشيوعية عند افلاطون نوعا من الديمقراطيـة ،بـل هـي ارسـتقراطية،يعجز عـن بلوغهـا عامـة الـشعب،ولا يحتملهـا الا الجنـود والفلاسفة.

أما الزواج في هذه المدينة فيجب أن ينظمه الحراس لجميع الطبقـات تنظـيما دقيقا يهدف الى غرض مقدس ،وهو تحسين النسل ،يقـول :"فيجـب ان يجتمـع افضل الجنسين بعضهما ببعض اكثر ما يـستطيعون ،وان يجتمـع المنحطـون مـن الرجـال بالمنحطـات مـن النـساء،ثم يربـى ابنـاء الاولـين ولا يربـى ابنـاء الاخرين،لان هذا هو السبيل الوحيد للاحتفاظ بالشعب في حالة صالحة".

وعلى الدولة ان تتولى تربية الاطفـال جمـيعهم وتقـدم لهـم فرصـا للتعلـيم متكافئة،ويجب ان لا تكون الطبقات وراثية ،وان يكون للبنات من فـرص مثـل

ما للاولاد ،وان لا تمنع النساء من تولي منصب في الدولة لأنهن نساء .ويعتقد افلاطون أن بهذا المزيج من الفردية والشيوعية، وبالعمل على تحسين النساء ،ومساواة المرأة بالرجل في الحقوق ،يستطيع أن يوجد مجتمعا يسر الفيلسوف أن يعيش فيه ويختم حديثه بالعبارة التالية (وإلى أن يكون الفلاسفة ملوكا او أن يتشبع ملوك هذا العالم وامراؤه بروح الفلسفة وقوتها لن تنجو المدن ولن ينجو الجنس البشري من الشر .

وكان افلاطون يرى أنه لإنشاء دولة صالحة فما : (عليك إلا أن تضع على رأسها حاكما بأمره،شابا معتدلا ، سريع التعلم ، قوي الذاكرة ، شجاعا، كريم الطبع، حسن الحظ،ويكون حسن حظه في انه معاصر لمشرع عظيم ،وأن الظروف الموفقة تجمع أحدها في الاخر .

كان افلاطون في اواخر سنين حياته لا يزال يتوق إلى أن يكون مشرعا ولذلك عرض على الناس دولة تلي الدولتين السابقتين في الحسن ، وهو يتحدث عن هذه الدولة الثالثة في كتابه القانون ، ويرى أن هذه الدولة ينبغي أن تكون في

داخل الارض، بعيدة عن البحر حتى لا تفسد الآراء الاجنبية إيمانها ، والتجارة الاجنبية أمنها والترف الاجنبي بساطتها وانطواءها على نفسها ويجب ان يقتصر عدد مواطنيها الافراد على العدد السهل الانقسام وهو ٥٠٤٠ يضاف إليهم افراد أسرهم فيختار المواطنون من بينهم ٣٦٠ حارسا يقسمون إلى مجموعات تتألف كل واحدة منها من ثلاثين شخصا يتولون تصريف اعمال الدولة شهرا واحدا ،ويختار الحراس الثلثمائة والستون مجلسا ليليا مؤلفا من ستة وعشرين عضوا يجتمع في الليل ويشرع لكل شؤون المدينة الحيوية .ويجب على هؤلاء الاعضاء أن يقسم الارض بين هؤلاء المواطنين اقساما متساوية على أن لا يسمح لهؤلاء الملوك بتقسيمه بعدئذ ولا بالتنازل عنها لغيرهم .وعلى الحراس أن يتخذوا ما يجب اتخاذه من الاحتياطات حيث لا يضر المطر بالارض بدل أن ينفعها وأن يمنعوا المطر عنها بالجسور والخنادق،ويجعلوا قنوات الري توصل الكثير من الماء لجميع الاراضي الجافة "ويجب ان لا تزيد التجارة على الحد الادنى حتى لا ينشأ من هذه عدم المساواة الاقتصادية.ويجب ان لا يحتفظ الناس بشيء من الذهب او الفضة،وأن لا يتعاملوا بالربا.وأن لا يشجع

أي أنسان على ان يعيش باستثمار امواله .بل يـشجع عـلى أن يعـيش بالاشـتغال بزرع الارض بجد ونشاط .ويجب على كل من يحـصل عـلى ريـع الارض عـلى اربعة أمثال قيمته أن يرد الباقي إلى الدولة .وقد قيد حق التوريث والوصيةبأشد القيود،وجعل للناس فرصا تعليمية وسياسية متكافئة مع الرجال .وفرض عـلى الرجال ان يتزوجوا بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ،وإلا إلزموا بدفع غرامات سنوية باهظة.وعليهم الا يلدوا اطفالا إلا في خلال عشر سـنين،ومن الواجـب تنظيم الشراب وغيره من وسائل اللهو للمحافظة على اخلاق الشعب.

وللوصول إلى هذا كله في هدوءوسلام يجب ان تشرف الدولة اشرافـا تامـا على شؤون التعليم ،والنشر وغيرهامن وسائل تكوين الـرأي العـام ،واخـلاق الأفراد ويجب ان يكون اكبر موظف في الدولة هو وزير المعارف،ويجب أن تحل السلطة محل الحرية في شؤون التعليم ،وذلك لأن ذكاء الاطفال اقل من أن يجيـز لنا أن نتركهم يخططون لنفسهم حياتهم ،ويجب ألا تفرض الرقابـة عـلى الآداب والعلوم والفنون ، فلا يجوز أن يعبر عن آراء يرى اعـضاء المجلـس أنهـا ضـارة بالآداب العامة او الخلق القويم .واذا كانت طاعة الوالدين والقوانين لا بد مـن

أن تستند إلى قوة أعلى من قوة البشر وتؤيدها فإن الدولة هي التي تقرر أي الآلهة تعبد وكيف تعبد ومتى تعبد.وكل من يتردد في الخضوع لهذا الدين الرسمي يسجن ، فإن اصر على عدم الخضوع له وجب ان يقتل .

وليست الحياة الطويلة نعمه لصاحبها على الدوام.ولقد كان من الخير لافلاطون أن يموت قبل ان يوجه التهمه لسقراط،وأن يمهد هذا لجميع محاكم السلطة المستقبلية.

ولعل دفاعه عن نفسه أنه يحب العدالة اكثر من حبة للحقيقة ،وأن هدفه هو أن يمحو الفقر والحرب .وأنه لا يستطيع أن يمحوها إلا بسيطرة الدولة على الأفراد سيطرة تامة وأن هذه السيطرة لا تكون إلا بواحدة من اثنتين القوة أو الدين.وكان يظن أن ما اصاب الاثينيين من انحلال ايوني في الاخلاق والسياسة لا علاج له إلا بالقوانين الاسبارطية المشتقة من النظام الدوري .والنزعة السارية في تفكير افلاطون كله هي خوفه من أن يساء استخدام الحرية ،وان يفهم الناس الفلسفة على أنها الرقيب على شؤون الناس والمنظمة

للفنون،ويعرض افلاطون في كتابه "القوانين" تسليم اثينا المحتضرة التي استوفت حياتها لإسبارطة التي قضت عليها نحبها من ايام "ليقورغ".وإذا لم يكن في وسع اشهر فلاسفة اثينا ان يقول اكثر مما قال دفاعا عن الحرية .فمعنى هذا أن بلاد اليونان كانت على اتم استعداد لأن يتولى امورها ملك.

لقد صارت نظرية الافكار هي (واقعية) المدرسين – واقعية العموميات الموضوعية،ولم يكن افلاطون مسيحيا قبل وجود المسيحية،بل كان فوق ذلك متزمتا مسيحيا قبل وجود عصر التزمت المسيحي ،فهو يرتاب في الطبيعة البشرية ويراها شرا،ويعتقد انها هي الخطيئة الاولى التي لوثت النفس.وهو يعمد إلى تلك الوحدة القائمة بين الجسم والروح والتي كانت هي الفكرة الرئيسية في القرنين السادس والخامس ق.م.فيقسمها إلى جسم خبيث وروح قدسية،وهو يستمد من فيثاغورس والاورفية اعتقاد الشرق في تناسخ الارواح والخطيئة والتطهير،والانطلاق ويضرب في كتبه الاخيرة على نغمة اخروية شبيهة بنغمة " اوغسطين" أي نغمة الرجل الذي تاب وأناب وعاد إلى الدين الصحيح.

لقد بقي افلاطون أحب المفكرين اليونان إلى الناس لأنـه يتـصف بعيـونهم الجذابة المحبوبة.وكان مرهف الحس إلى الحد الذي يستطيع معه ان يرى الجـمال الكامل السرمدي وراء الاشكال الدنيوية غير الكاملـة،وكان زاهـدا لأنـه كـان مضطرا في كل لحظة إلى أن يكبح جمـاح مزاجـه القـوي الـضيق.وكـان شـاعرا يسيطر عليه الخيال ويسير وراء كل فكرة شـاذة غريبـة.وتـستحوذ عليـه مـآسي الافكار ومباهجها ويهيجه التحمس الذهني المنبعث مـن الحيـاة العقليـة الحـرة التي كانت تستمتع بها اثينا.ولكن كان من سوء حظه أنه رجـل منطـق وشـاعر معا، وأنه كان أقوى مجادل في العصر القديم؛فقد كان أدق في جلده من " زينون " و " أرسطو، وأنه كا يشغف بالفلسفة أكثر من أي شيء.ويلاحظ أنه انتهى إلى قمع كل تفكير حر،وصار يعتقد بان الفلسفة يجب ان يقضى عليها لكي يعـيش الانسان.ولو أن مدينته الفاضلة تحققت فعلا لكان هو أول ضحاياها.

ثانيا : الارسطية

هي منظومة فلسفية كبيرة تعود إلى ارسطو طاليس،ذلك الفيلـسوف الـذي كان يعجب بأفلاطون.مسقط "رأسه في أسطاغيرا" (مستعمرةيونانية صغيرة في تراقية) استمع إلى أفلاطون عشرين عاما ،وعلى الرغم من ذلك كان يلاحـظ في اجـتماعهما نزعتـان متعارضـتان في تـاريخ الفكـر :النزعـة الـصوفية ،والنزعـة الطبيعية ،ولم تتغلب إحدى النزعتين عـلى الأخـرى.لقـد نقـد ارسـطو حجـج افلاطون في مرحلة من مراحل تفكيره .

لقد كان ارسطوا مجدا ،لاحظ فيه معلمة افلاطـون هـذا الجد،وعنـدما قـرأ افلاطون رسالته عن الروح في المجتمع العلمي كان ارسطو الـشخص الوحيـد الذي يستمع اليها من اولها إلى اخرها.في حين انفض غيره من حوله.فر ارسـطو مـن اثينـا حـين اغتـال الفـرس "هرميـاس"ظنـا مـنهم أنـه يريـد الخطـط لمعارضة"فيليب" في غزوة المرتقب في بلاد اسيا .واستقر ارسطو في "لـسبوس" القريبة وقضى فيها بعض الوقت يدرس تاريخ الجزيرة الطبيعي.

دعى ارسطو طاليس من قبل فيليب ليتولى تعليم ولده الاسكندر ،ولبى الدعوة وظل يقوم بهذا الواجب أربع سنين،ثم كلفه باعادة بناء "اسطرخوس" وأن يضع لها شرائعها ففعل بشكل أرضى أهل المدينة،وجعلهم يحبون ذكرى هذا التعمير في عيد يقيمونه في كل عام.

عاد ارسطو إلى اثينا وافتتح فيها مدرسة لتعليم البلاغة والفلسفة سماها ليتسيوم Lyceum (التجهيز) وذلك عام ٣٣٥ ق.م. والظن أن الاسكندر أمده بالدعم المادي لهذا حيث أختار مكانها اجمل دار للتدريب.الرياضي في اثينا.

فأرسطو حين ينتقل إلى دراسة الإنسان يصبح ميتافيزيقيا أكثر منه عالما طبيعيا.ويعرف ارسطو النفس او العنصر الحيوي بأنه "الدافع الداخلي الأول في الكائن العضوي " بمعنى الصورة الفطرية المقدرة لهذا الكائن والتي تدفع نماءه وتحدد اتجاهه فليس النفس شيئا يأتي إلى الجسم من خارجه بل هي موجودة معه في كل جزء من أجزائه؛أي انها هي الجسم نفسه من حيث:قدرته على تغذية نفسه وتنميته وانحلاله؛فهي جماع وظائف الكائن العضوي،وهو للجسم كقوة

الإبصار للعين.بيد أن هذه الناحية الوظيفية ناحية أساسية ، فالوظائف هي التي توجد التراكيب،والرغبات هي التي تشكل الاعضاء،والنفس هي التي تكون الجسم "فالاجسام الطبييعة كلها أعضاء للنفس ،وان النفس هي بمعنى ما جميع الموجودات، لأن الاشياء كلها إما احساسات او أفكار.

والنفس عند ارسطو ثلاث درجات :نامية ، وحاسة ، وناطقة فالنبات يشترك مع الانسان والحيوان في النفس النامية،أعني في قدرته على تغذية نفسه،وعلى النماء الداخلي،وللحيوان والانسان فضلا عن أن هذه النفس نفس حاسة – اي قادرة على الاحساس، وللحيوانات الراقية وللانسان نفس منفصلة عاقلة أعني قدرة على الاشكال البسيطة البدائية الذكاء،والانسان وحده هو الذي له نفس (فاعلة عاقلة) – أعني قدرة على التعميم والابتكار ،وهذه النفس الأخيرة جزء أو أنبعاث من قوة الكون الخالقة العاقلة وهي الله،وهي بهذا الوصف لا تموت .ولكن هذا الخلود غير شخصي ؛بمعنى أن الذي يبقى هو القوة لا الشخصية . والفرد لا يصل إلى الخلود إلا نسبيا،وذلك عن طريق التوالد.

والله هو " صورة " العالم أو " حقيقته الفعلية " – طبيعته الفطرية،ووظائفه ، وأغراضه،كما الروح هي صورة الجسم .ويبحث افلاطون في كيف يجعل الجسم اخيارا،أو كيف يجعلهم سعداء .والسعادة في نظره تطلب لذاتها . وأن هناك بعض الاشياء التي لا بد منها للحصول على السعادة الباقية وهي: المولد الطيب ، والصحة الجيدة ، والوجه الجميل ،والحظ الطيب، والسمعة الحسنة،والأصدقاء الاوفياء ،والمال الوفير والصلاح .فليس في وسع إنسان ان يكون سعيدا إذا كا ذميم الخلقة ويضيف:((أما الذين يقولون أن الذي يعذب عن العذراء أو تحل به كارثة شديدة، يكون سعيدا بشرط يكون صالحا فقولهم هراء؟))

وينقل ارسطو بصراحة يندر وجودها في الفلاسفة ،جواب" سمنيدس" لزوجة "هيرن" إذ سألته أيها أفضل الحكمة أو الغنى فقال :"الغنى ، لاننا نرى الحكماء يقضون أوقاتهم على أبواب الاغنياء غير انه يرى ان الثروة وسيلة لا أكثر،فهي في حد ذاتها لا ترضي غير البخيل،واذاكانت الثروة نسبية فإنها لا ترضي إنسانا زمنا طويلا، وسر السعادة هو العمل، اي بذل الجهد بطريقة تتفق

مع طبيعة الانسان وظروفه. والفضيلة حكمةعملية، وهي تقدير الانسان بعقله لما فيه من خير، وهي في العادة وسط بين نقيضين، والانسان بحاجة الى الذكاء لمعرفة هذا الوسط، والى ضبط النفس لممارستها، ويقول ارسطو في جملة من جمله النموذجية"ان الذي يغضب مما وممن ينبغي ان يغضب منه، ويغضب غير ذلك بالطريقة الحقة وفي الوقت المناسب للغضب، وبطول غضبه الزمن الملائم، ان هذا الرجل خليق بالثناء".

وليست الفضيلة- في نظر ارسطو- عملا، بل هي تعود عمل الصواب، ولا بد ان تفرض في أول الامر بالتدريب والتهذيب، لان الشبان لا يستطيعون في مثل هذه الامور اصدار حكم صادق حكيم، فاذا مضى بعض الوقت فان ما كان من قبل نتيجة الارغام يصبح عاديا اي"طبيعة ثانية "، ويكاد يبعث من الله ما تبعثه الشهوة.

ويختم ارسطو هذا البحث خاتمة تناقض اشد التناقض ما دبأه به وهو قول ان السعادة في العمل، وأن احسن حياة هي حياة الفكر. ذلك أن الفكر في رايه

هو الدليل على ما انفرد به الانسان من تفوق وامتياز وان العمل الخليق بالانسان هو ان تعمل نفسه بالاتفاق مع عقله، واسعد الناس حظا هو الـذي يجمـع بـين قدر من الرخاء وقدر من العلم او البحث او التفكير فان هذا الرجل هو اقـرب النـاس الى الالـه"والـذين يرغبـون في اللـذة المـستقلة يجـب ان يطلبوهـا في الفلسفةلان غيرها من اللذات يحتاج الى معونة الانسان".

ثالثا: الرواقية:

واضعها هو الفيلسوف زينون، وكان زينـون مـن اهـل"سـيتيوم" احـدى مدائن قبرص، وكانت سـيتيوم فنيقيـة في بعـض احيائهـا ، يونانيـة في اكثرهـا، وكثيرا ما قيل ان زينون فنيقي ، وقيل ايضا انه مصري ، والثابت ان ابويه يختلط فيهما الدم الهيليني والدم السامي. وصل زينون إلى اثينا عـام ٣١٤ق.م. وافتـتن باخلاق سقراط، فانضم الي مدرسـة"اقـراطيس"واثـرت فيـه نفـسه البـسيطة الصارمة ، واخذ عنهم المبادىء الاولية لنظامه الاخلاقي، وقد تاثر بهـم في اول كتاب له وهو كتاب الجمهورية تاثرا جعله يعتنق شيوعيتهم الفوضوية. وما من

شك انه قرأ كتب"هرقليطس" بعمق لتاثره بها. غير انه كان يعترف بأنـه مـدين لسقراط اكثر من غيره. وأن سقراط هومعين الفلسفة الرواقية ومثلها الاعلى.

انشأ زينون مدرسته الفلسفية الخاصـة بـه عـام ٣٠١ق.م. ذلـك انـه اخـذ يتحدث الى الطلاب. وكان يرحب بالفقراء والأغنياء على سواء، ولكنه لم يكـن يشجع انضمام الشبان الى تلاميذه، لانـه كـان يـشعر ان الفلـسفةلا يفهمهـا الا الرجال ناضجوا العقل. وحدث ان اطال الشبان في الكلام فقال له زينون: لقد خلق لنا اذنان اثنتان وفم واحد لكى ننصت كثيرا ونتحدث قليلا".

ظل زينون اربعين عاما يعلم في سيتيوم ويعيش عيشة تتفق وتعاليمه اتفاقا اصبحت معه عبارة"أكثر اعتـدالا مـن زينـون" مـثلا سـائرا في بـلاد اليونـان. واسلمته الجمعية الاثينيةمفاتيح الاسرار،ووافقت على المال الذي حصل لاقامة تمثال له واهدائه تاجر بقرارنصه: "لما كان زينون السيتومي قد قضى سنين سنين كثيرة في مدينتنا يدرس الفلسفة، ولما كان في كل ما عدا هذا رجلا طيبـا، يحـض جميع الشبان الذين يسعون لـصحبته عـلى الاعتـدال في حيـاتهم ويجعـل حياتـه

نموذجا لاعظم ما تسمو اليه الحياة.. فقد صحت عزيمة الـشعب عـلى تكـريم زينون... على ان يهديه تاجا من الذهب .. وان يبني له قبرا في حي "الـرمكس" من الاموال العامة.

وواصل عمل زينون مـن بعـده في سـيتيوم رجـلان مـن يونـان اسـية همـا اقلانيتوس الاسوسي ومن بعده اقريسيوس الصولي وكان اقلا نيتـوس ملاكـما اتى الى اثيناواشتغل عاملا عاديا ،ودرس على زينون(١٩) عامـا، وعـاش مجـدا فقيرا زاهدا ، اما اقريسيوس فكان اكثر تلاميذ المدرسة علما وانتاجا، وهو الذي اكسب العقيدة الرواقية صورتها التاريخية بان شرحها في (٢٧٠) كتابا ،جعلـت ديونيشيوش الهلكرنـسيس يعـدها نموذجـا لغـزارة العلـم المملـة . وانتـشرت الرواقية مـن بعـده في جميـع انحـاء "هـلاس"، وكـان اعظـم دعاتهـا في اسـيا: بانيتيوس الرودسي وزينون الترسوسي، وبؤثيوس الصيداوي وديجين السلوقي.

ولقد كان اكبر الظن ان"اقريسيوس"هو الذي قـسم الفلـسفة الرواقيـة الى منطق، وعلوم طبيعية، واخلاق، وكان زينون ومن جاء بعده يفتخرون بها كتبوه

في النظريات المنطقية، غير ان ما كتبوه لم يترك اثرا ملحوظا في عقول الناس. لقد كان الرواقيون يتفقون مع "الابيقوريين" في ان المعرفة لا تنشا الا من الحواس ،وكان المقياس النهائي للحقيقة في رايهم هو المدركات الحسية التي يضطر العقل الى قبولها لما فيها من وضوح او ثبات، على انه ليس من الضروري ان تؤدي التجارب الى المعرفة، لان بين العقل والحواس توجد العواطف والانفعالات، وهذه قد تشوه التجارب فتجعلها اخطاء، كما تشوه الرغبات فتجعلها رذائل، والعقل هو اسمى ما احرزه الانسان، وهو بذرة من بذور العقل الكلي الذي وضح قواعد العالم

وينظر الرواقيون الى العالم بانه كالانسان مادي باكمله والهي بفطرته، فكل ما تنقله لنا الحواس مادي، والاشياء المادية دون غيرها هي التي تحدث الافعال او تستقبلها. والصفات والكميات .والفضائل، والانفعالات والنفس والجسم.. كلها صور مادية او عمليات، تختلف في درجة رقتها، ولكنها واحد في جوهرها . غير ان المادة كلها حركية، مملوءة بالتوتر والقوى، لا تنقطع عن العمل على الانتشار او التركيز، يبعث فيها الحياة من داخلها وخارجها النشاط

والحرارة اوالنار، والعـالم يعـيش بوسـاطة عـدد لا يحـصى مـن دورات التمـدد والانكماش، والتطور والانحلال يحترق مـن آن الى آن فهـي لهـب عظـيم ، ثـم يتشكل على مهل من جديد. ثم يعود في تاريخه القديم كله بأدق تفاصـيله ، لأن تسلسل العلل والمعلومـات يـسير دائـرة مفرغـة ويـدور الى غـير نهايـة . وكـل الحوادث وكل اعمال الادارة مقررة ومعينـة، ومـن المـستحيل عـلى شيء مـا ان يحدث على نحو يخالف ما حدث عليه، كما انه يستحيل على شيء أن ينشأ مـن لا شيء، ولو حدثت اية ثغرة في السلسلة لتمزق العـالم . والله في هـذا النظـام هـو البداية والوسط والنهاية، كان الرواقيون يعترفون بضرورة وجود الدين ليكون اساسا للاخلاق الفاضـلة ، فكـانوا ينظـرون نظـرة التـسامح اللطيفـة لعقائـد الشعب الدينية وما فيها من شياطين، ومن تنبـؤ الغيـب، وكـانوا يجـدون لهـذه تفسيرات مصوغة في تشبيهات ومجازات يسدون بها الثغرة الفاصلة بين الخرافـة والفلسفة.وكانوا يقبلون على التنجيم الكلداني ويعتقدون بـصحته في جـوهره، ويرون أن شؤون الأرض تنطبق انطباقا خطيا مـستمرا عـلى حركـات النجـوم .فكان ذلك لديهم صورة من صور التعاطف العالمي الذي يجعل كل مـا يحـدث

في جزء فيه يـؤثر في سـائر الأجـزاء . وكـأنهم أرادوا ألا يكتفـوا بوضـع نظـام اخلاقي للمسيحية ،بل شاؤوا أن يضعوا لها أيضا نظامهـا الـديني ،ففكـروا في العالم والشرائع ،والحياة والنفس ، والأقدار مـن حيـث صـلتها بـالله ،وعرفـوا الاخلاق الفاضلة بانها الاستسلام عن رضـا واختيـار لارادة الله .والله عنـدهم كالانسان ،مادة حية ،فالعلم كله جسمه ،ونظام العـالم وقانونـه عقلـه وارادتـه ؛والكون كائن حي ضخم ،الله روحه ونسمته المنعشه،وعقله المخـصب ،ونـاره المحركة المنشطة.

فنجد الرواقيين احيانا يفكـرون في الله تفكـيرا مجـردا غـير مجـسد ولكـنهم يصورونه في الاكثر الأعم على انه قوى مدبرة تضع للكون خطة وترشده بعقلها الاعلى،وتنظم اجزاءه كلها لتؤدي اغراضا تنطبق على العقل ،وتجعـل كـل شيء فيه يعود بالنفع عـلى الافاضـل عـلى النـاس .ويوحـد " اقلاينتـوس" بـين الله وزيوس في ترنيمة توحيدية يقول :"حمدا لك يا زيوس" ،حمدا يفوق حمـد جميـع الالهة ان اسماءك لكثيرة وان قوتك لاعظم القوى إلى أبد الدهر . منك بدأ العالم . وانت تحكم الاشياء كلها بقوة القانون،واليك تتحدث كل الاجسام لاننا نحن

جميعا ابناؤك .ومن اجل هذا ارفع اليك نشيدا اتغنى فيه بقوتك :ان نظام الكون باجمعه يطيع كلمتك في تحركها حول الارض ، حيث تختلط الاضـواء الـصغيرة والكبيرة:الا ما اجـل شـأنك لـك الملـك الى ابـد الـدهر ! لا شيء يحـدث عـلى الارض الا بعلمــك ،ولا في الـــسماء ولا في البحــار :الا مــا يفعلــه الاشرار :مدفوعين اليه بجمعتهم؛ ولكن لك ومن الحذق ما يصلح المعوج نفسه،وما لا صورة له يصور،والبعيد امامك قريب وهكذا نظمـت الاشـياء كلهـا فجعلتهـا وحدة : خيرها وشرها،حتى تكون كلمتك واحدة في الاشياء جميعهـا:باقيـة الى الابد.طهر نفوسنا من الحماقة حتـى نـرد اليـك الفـضل الـذي تفـضلت علينـا به:"فنغنى بمدح اعمالك الى ابد الابدين غناء يليق ببني الانسان"

ويشبه الرواقيون الانسان والعالم بالكون الصغير في الكون الكبير ،فهوايضا كائن حي ذو جسم مادي والنفس مادية،ذلك بان كل ما يحرك الجسم أو يـؤثر فيه،وكل ما يحركه الجسم او يؤثر فيه،لا بـد ان يكـون ذاجـسم،والنفس نـسيم ناري (نيوما) منبثة في جميع أجزاء الجسم كما أن الـنفس العالميـة منبثـة في جميـع أنحاء العالم . وهي تبقى بعد الجسم إذا مات،ولكنها تبقى في الجـسم عـلى هيئـة

طاقة غير شخصية وحين يحدث اللهب الأخير تمتص الروح مرة أخرى في محيط الطاقة.

ويرى الرواقيون انه إذا كان الإنسان جزءا من الله أو الطبيعة من اليسير أن نحل المشكلة الأخلاقية على النحو التالي:"الخير هو التعاون مع الله أي مع الطبيعة ونعني بها قانون العالم. وليس الخير هو الجري وراء الاستمتاع واللذة لان هذا الجري يخضع العقل للشهوة وكثيرا ما يؤذي الجسم أو العقل، وقلما يرضينا في آخر الأمر. ولا يمكن أن تتحقق السعادة إلا بالمواءمة بين أغراضنا وسلوكنا من جهة ، وبين أغراض العالم وقوانينه من جهة أخرى وليس ثمة تعارض بين صالح الفرد وصالح الكون، لان قانون الخير في حالة الفرد يتفق مع قانون الطبيعة وإذا لحق الشر بالرجل الصالح فان هذا لا يكون إلى اجل وليس هو في واقع الأمر شرا ولو أننا استطعنا أن نفهم الأمر كله لرأينا ما وراءه من خير مهما يظهر في أجزائه من شر. والرجل العاقل لا يدرس العلوم الطبيعية إلا بالقدر الذي يكفي لمعرفة قانون الطبيعة ثم يكيف حياته وفق هذا القانون، وغرض العلم والفلسفة والمبرر الوحيد لدراستها هما تمكيننا من أن نعيش وفق

الطبيعة".

لـذلك كـان الرواقـي يتجنـب الـترف والتعقيـدا والمنازعـات الـسياسية والاقتصاديةا وهو يقنع بالقليلا وهو يقبل بلا تذمر صعاب الحياة وما يلاقي فيها من خيبة. ولا يأبه بشيء غير الفضيلة والرذيلة لا يبالي بالمرض والألم أو بحـسن السمعة أو سوئهاا بالحرية أو الرقا بالحياة أو الموت. ويقمع كل شـعور يقـف في وجه سير الطبيعة أو يبعث على الارتياب في حكمتها: فإذا مات ولـده لم يحـزن، بل يرضى بحكم القدر معتقـدا انـه أحـسن الإحكـاما وان خفـي الأمـر عليـه. ويسعي بان يكون مجردا من الشعور تجردا تاماا حتى يكون امـن عقلـه آمنـا مـن جميع تقلبات الحظا أو الرحمةا أو الحبا ومن وقعها عليه. وعلى الرواقي أن يكون معلما قاسياا وإداريا صارما، والجبرية لا تتضمن الانطلاق من القيـودا بـل يجـب علينا أن نكبح جماح أنفسنا وأنفس غيرناا وان نتحمل من الناحية الخلقية تبعات جميع أعمالنا.

ويرى الرواقي أن أجزاء الفضيلة هي الفضيلة نفسها،وانها واجـب مطلـق

وأمر محتوم،مستمد من اشتراكه في الألوهية،وإذا أصابه مكروه عـزا نفـسه بأنـه حين يتبع القانون الالهي يصبح هو الله مجسدا ، فاذا سـئم الحيـاة ،واسـتطاع ان يفارقهما من غير أن يسبب الأذى لغيره، فلا حرج عليه من أن ينتحر ، ولما بلغ " اقلانيتوس" سن السبعين شرع يصوم صوما طويلا ،ثم قال إنه لن يعود بعد ان قطع نصف الطريق،وواصل الصوم حتى مات.

وينظر الرواقي إلى الحياة الإجتماعية بالموافقة على الـزواج وتكـوين الاسرة ويراهما أمرين لازمين،غير أنه يتطلع إلى وجود مدينة فاضلة تكون فيهـا النـساء شركة بـين الرجـال،كما أنـه يقبـل بوجـود الدولـة ،بـل يقبـل الملكيـة المطلقـة نفسها.ويتمنى أن يكون الناس كلهم فلاسفة ، حتى تمحـى القـوانين.ولا يـرى الرواقي حرجا في أن يشترك في الشؤون السياسية،ويناصر كل حركة ،مهما تكن ضعيفة .تهدف إلى الحرية والكرامة الانسانية، وهو يرضى بأن يضحي بحياته في سبيل بلاده ولكنه يرفض كل وطنية تقف في سبيل ولائـه للإنـسانية بأجمعهـا ، فهو والحالة هذه مواطن عالمي .

ولقد كان زينون- يتوق كما كان الاسكندر لتحطيم الحواجز العنصرية والقومية، وأن نزعته الدولية لتكشف عن فكرة الاسكندر التي كانت آخذة في الزوال،فكرة توحيد بلاد شرق البحر الابيض المتوسط .وكان يأمل أن يحل مجتمع واحد كبير محل تلك الدول والطبقات المتطاحنة،وألا يكون في هذا المجتمع الجديد أغنياء وفقراء،أو سادة وعبيد،يحكمه الفلاسفة فلا يظلمون،ويكون فيه الناس جميعا اخوة لانهم أبناء إله واحد.

وخلاصة القول : أن الرواقية كانت فلسفة نبيلة ،عملية إلى حد أبعد من ان يتوقعه الساخر منها في الوقت الحاضر . لقد وحدت هذه الفلسفة جميع عناصر الفكر اليوناني وبذلتها في مجهود نهائي قام به العقل الوثني لوضع نظام أخلاقي ترتضيه الطبقات التي خرجت على الدين القديم.

ومن نظرتنا إلى هذه الفلسفة من الوجهة النظرية رأيناها عقيدة شاذة مروعة تهدف إلى كمال قاس يتطلب من أصحابه اعتزال المجتمع .ولكنها في واقع الأمر قد خلقت رجالا شجعانا ،قديسين أطهارا،خيرين امثال:كاتو الاصغر ،

ابكتتس،وماركس اورليوس،ولقد تأثر بها الفقه الروماني فوضع على هديها تشريعا للأم غير الرومانية،واعانت على حفظ المجتمع القديم حتى ظهر له دين جديد. ولسنا ننكر أن الرواقيين قد شدوا من أزر الخرافات ،وكان لهم اثر سيء في العلوم الطبيعية،غير انهم رأوا بناقذ بصيرتهم المشكلة الاساسية القائمة في عصرهم – وهي أساس الأخلاق الديني – وبذلوا مجهودا شريفا لملء الهوة الفاصلة بين الدين والفلاسفة.

رابعا :الأبيقورية :

إن الأبيقورية اشتقت من طبيعة اليونان المستوطنين شواطيء آسية وما فطروا عليه من حب اللذة .أما " ابيقور" فقد ولد في جزيرة " ساموس" عام ٣٤١ ق.م.وشغف بالفلسفة وهو في الثانية عشرة من عمره.ولما بلغ التاسعة عشرة رحل إلى اثينا وقضى عاما في مجمعها العلمي .وكان كفرينسيس بيكون يفضل دمقريطس على افلاطون وارسطو، وعنه أخذ بعض اللبنات التي شاد بها فلسفته ، كما أخذ عن " ارسيتوس" حكمه اللذة ، وعن " سقراط" لذة

الحكمة،وعن "بيرون" عقيدة الهدوء واسمها الطنان الرنان "أتركسيا " وما كان من شك أنه كان يرقب بكثير من الاهتمام حياة معاصرة " ثيودورس القوريني" .الذي كان يخطب في اثينا داعيا إلى الخروج عـن الـدين والأخـلاق جهـرة،وفي صراحة جعلت الجمعية توجه إليه تهمة الإلحاد – وكـان درسـا لم ينـسه أبيقـور قط.ثم عاد إلى آسية، واخذ يلقي محاضرات في الفلسفة في كلوفون وقد بلغ مـن تأثر سامعيه بآرائه وأخلاقه ان شعروا بوجود بوخز ضـميرهم عـلى أنـانيتهم إذ يحتفظون به في مدينتهم النائية فجمعوا مبلغا من المال واشتروا به بيتا وحديقة في ضواحي اثينا،وأهدوها إلى "أبيقور" ليكونا له مدرسة ومنزلا .

ولما بلغ ابيقور الخامسة والثلاثين من عمره اتخـذ هـذه المدرسـة مـسكنا لـه وأخذ يعلم الاثينيين فلسفة لم تكن ابيقورية إلا في اسمها .وكان من أدلـة تحـرر النساء في ذلك الوقت أنه كان يرحب بهن حين يجئن للاستماع إلى محاضراتـه .بل كان يرحب بهن في الجماعة القليلة العدد التي كانـت تـسكن معـه.ولم يكـن يفـرق بـين النـاس بـسبب مراكـزهم أو اجناسـهم ،فكـان يقبـل العـاهرات والزوجات.والأرقاء والاحرار،وكـان احـب تلاميـذه إليـه عبـده " ميـسيس"

.واضحت العاهرة " ليونتيوم" عشيقته وتلميذته،ووجدت فيه رفيقا شديد الغيرة كأنه قد حصل عليها بالطريقة القانونية المرسومة .وولدت منه طفلا واحدا.وبتأثيره ألفت عدة كتب لم يتأثر فيها أسلوبها بفساد أخلاقها.

عاش أبيقور عيشة بسيطة،واتخذ له شعارا "عش معتدلا".وكان يؤدي واجبه في طقوس المدينة الدينية،ولكنه لم يلوث يديه بشؤونها السياسية،وكان يقنع في غذائه بالماء وقليل من الخمر والخبز والجبن.وكان منافسوه يتهمونه بأنه يملأ معدته بالطعام حين يكون ذلك في مقدوره،وانه لم يتعفف عن الاكثار منه إلا حين أتلف جهازه الهضمي بكثير الأكل.كان ابيقور بارا بوالديه،سخيا مع اخوته . كان تلاميذه ينظرون إليه كأنه إله قائم بينهم ،وكان شعارهم بعد موته "عش كأن عين أبيقور يرقبك" . الف أبيقور ثلثمائة كتاب،وصلنا منها قطع متفرقة من كتابه " في الطبيعة "

بدأ ابيقور بتقرير المبدأ القائل أن هدف الفلسفة هو أن تحررالناس من الخوف – وخاصة من خوف الآلهة – وهو يكره الدين لأن الدين في رأيه ، يقوم

على الجهل، ويزيده ،ويظلم الحياة بما يبثه من رهبة جواسيس السماء،والاقدار الصارمة القاسية، والعقاب الذي لا يقف عند حد.ويقول ابيقور إن الالهة موجودة،وانها تستمتع في مكان بعيد بين النجوم بحياة صافية هادئة منزهة عن الموت ، ولكنها أقل من أنها تشغل نفسها بشؤون البشر، وهم ذلك النوع الصغير التافه من الخلائق ،وليست الآلهة هي التي أنشأت العالم وهي التي ترشده وتيسره .فيضيف أبيقور قائلا :"فإن كان هذا لا يرضيكم،فلتعززوا أنفسكم بأن تفكروا في أن الآلهة بعيدة عنكم بعدا لا تستطيع معه أن تضركم أو تنفعكم،ذلك أنها لا تستطيع أن تراقبكم،أو أن تحكم على أعمالكم،أو أن تقذف بكم إلى الجحيم ،أما الالهة الخبيثة أو الشياطين فهي أوهام تعسه تصورها لنا أحلامنا".

لقد رفض أبيقور الدين ورفض كذلك الميتافيزيقيا،وحجته في هذا أننا عاجزون عن معرفة الشيء عن العالم التي لا تدركه الحواس؛وبذلك يجب أن لا نشغل عقولنا بغير التجارب التي تذكرنا الحواس ،وأن تعد هذه التجارب اخر محك للحقيقة.فإذا لم تأت المعرفة من الحواس، فمن أي طريق آخر تأتي إذا؟

وإذا لم تكن الحواس هي الحكم الاخير في الحقائق،فكيف نجـد هـذا الحكـم في العقل الذي لا تصل إليه المعلومات إلا عن طريق الحواس؟

ومع هذا فإن أبيقور يرى أن الحواس لا تمدنا بمعلومات أكيـدة عـن العـالم الخارجي،فهي لا تمسك بالشيء الخارجي نفسه،بل تمسك بالذرات القليلة التـي يقذف بها كل جزء من سطحه ،والتي تطبع عـلى حواسـنا نـسخة صـغيرة مـن طبعته وشكله،فإذا كان لا بد لنا والحالةهذه أن نكون لأنفسنا عن العالم فخير لنا أن نأخذ برأى دمقريطس القائل بأن لا شيء موجود ،أو يمكن أن يكون معروفا لنا ،بل لا شيء يمكن ان نتخيله، اللهم إلا الأجسام والفضاء ،وبـأن الاجـسام كلها تتألف من ذرات لا تنقسم ولا تتغير .. وليس لهذه الذرات لون ولا حرارة ،ولا صوت،ولا رائحة.وأنها تنتج كلها من الكريات المشعة من الاجسام والتـي تلقى على أعضاء الحس في أجسامنا.ولكن الذرات تختلف في حجمهـا ووزنهـا وشكلها:لأن هذا الغرض وحده هو الذي نستطيع أن نفسر به مـا بـين الأشـياء من اختلاف لا آخر له.

لقد كان أبيقور يحب أن يفسر عمل الذرات على مبادىء آلية خاصـة،ولكنه لما كان مولعا بالأخلاق أكثر من ولعه بنظام الكون،ولما كـان حريـصا عـلى أن يستمسك بحرية الإرادة بوصفها مـصدر الوصـفة التبعـة الاخلاقيـة ودعامـة الشخصية، فإنه يترك "دمقريطس" معلقا بين السماء والأرض ويفـترض نوعـا من التلقائية في الذرات :فهي تحيد قلـيلا عـن الخـط العمـودي حـين تهـوي في الفـضاء وبهـذا تـدخل في التراكيـب التـي تتكـون مـن الاركـان " العنـاصر الاربعة"،والتي تتكون منها عن طريق هذه الاركان المشاهد الخارجية . وهنـاك عوامل كثيرة ،ولكنه ليس من العقل في شيء أن نشغل بها أنفسنا.وفي وسعنا أن نفترض ان حجمي الشمس والقمر يقتربان في حجميهما اللذين يبدوان لنا ،فإذا فعلنا هذا كان في مقدورنا أن نصرف وقتنا في دراسة الانسان

إن الإنسان عند ابيقور نتاج طبيعي في جزيئاتـه ومجموعـه،واكبر الظـن أن الحياة قد بدأت بالتوالد التلقائي ،ثم ارتقت على غير خطة مرسومة بالانتخـاب الطبيعي لأصلح الاشكال.وليس العقل إلا نوعا أخر من المادة ،والروح جـسم مادي دقيق منبثق في جميع أجزاء الجسم ،وهي لا تستطيع أن تحس أو تعمـل إلا

بواسطة الجسم وتموت بموته.ولكن علينا بالرغم من هذا كله أن نقبل ما تدركه إدراكا مباشرا في أننا أحرار فيما نريد ،وإلا كنا الأعيب على مسرح الحياة لا معنى لوجودها.وخير لنا أن نكون عبيدا للآلهة التي يقول بها الخلق ،من أن نكون عبيدا للأقدار التي يقول بها الفلاسفة.

إن وظيفة الفلسفة الحقيقية ليس هي تفسير العالم ،لأن الجزء لا يستطيع قط أن يفسر الكل .بل وظيفتها أن تهدينا في بحثنا عن السعادة ،لقد كتب على مدخل حديقة أبيقور تلك العبارة الجذابة:" أيها الزائر،ستكون هنا سعيدا ، لان السعادة هنا تعد أعظم خير" وليست الفضيلة في هذه الفلسفة غاية في ذاتها،بل هي وسيلة لا بد منها للوصول إلى الحياة السعيدة.وليس من وسع الانسان أن يحيا حياة سارة من غير أن يحيا حياة تتصف بالفطنة،والشرف والعدالة وليس في وسعه أن يسعى حياة متصفه بالفطنة والشرف والعدالة من غير أن يحيا حياة سارة.وليس في الفلسفة إلا قضيتان اثنتان مؤكدتان،وهما أن اللذه خير والالم شر،والملاذ الجنسية في ذاتها مشروعة،وستجد الحكمة لها مكانا فيها؛غير أنه لما كانت هذه الملاذ قد تؤدي إلى عواقب وخيمة،فانها في حاجة إلى جهاد حصيف

فطين لا يستطيعه صاحب الذكاء."فإذا قلنا إذا أن اللذة هي اعظم خير،فلسنا نقصد بذلك لذات الرجل الفاجر الداعر، أو اللذات التي تقع في مجال اللذة الجنسية...ولكننا نقصد تحراللذة من الألم، والروح من الأنزعاج ذلك أن الشراب والمرح الدائمين او الاستمتاع بصحبة... النساء أو ولائم السمك وغيره من الاطعمة الغالية ليست هي التي تجعل الحياة سارة لذيذة، بل الذي يجعلها كذلك هو التفكير الهادئ الرزين،الذي يفحص عن اسباب اختيار هذا الشيء وتجنب ذاك،والذي يطرد الافكار الباطلة التي ينشأ عنها معظم ما يزعج النفس من اضطراب

ونلخص من هذا إذا إلى أن الفهم ليس هو أسمى الفضائل فحسب، بل إنه أيضا أسمى أنواع السعادة ،لأنه يعنينا أكثر مما تعنينا أي موهبة أخرى من مواهبنا على تجنب الألم والحزن.والحكمة هي وسيلتنا الوحيدة إلى الحرية: فهي تحررنا من رق الانفعالات ومن خوف الالهة، والفزع من الموت، وهي تعلمنا كيف نتحمل مصائب الدهر، وكيف نستمد من طيبات الحياة البسيطة ولذات العقل الهادئة لذه عميقة خالدة، وليس الموت مخيفا رهيبا كما نظنه إذا نظرنا إليه

نظرة عاقلة قائمة على الذكاء والفطنة،فقد يكون ما ينطوي عليه من الألم اقـصر امدا وأخف وقعا مما عانيناه المرة بعد المرة في أثناء حياتنا.والذي يخلع عن الموت ما يعلق به من رهبة هو اوهامنا السخيفة عما قد يكون وراء الموت.

وينظر الأبيقوريون إلى القليل الذي تحتاجه القناعة الحكيمة ؛إذ أنها لا تحتاج إلا إلى الهواء الطلق ،وأرخص الطعـام ،ومـأوى متـصنع ،وفراش،وقليـل مـن الكتب،وصديق.ويقولون:"وكل شيء يـسهل الوصـول عليه،والعـديم النفـع وحدة هو الكثير النفقة".

ويقول الأبيقوريون :"أن علينا أن لا نقضي حياتنا في نكد مستمر نحاول أن نحقق شهوة تطوف برؤوسنا،إذ في وسعنا أن نفعل الشهوات متى كـان عجزنـا عن إشباعها لا يسبب لنا ألما بحق ،وحتى الحب والزواج والأبوة أمور لا يمكن الاستغناء عنها،فهي تعـود علينـا بلذائـذ متقطعـة،وبحزن لا ينتهـي ابـدا.وإذا تعودنا المعيشة البسيطة، والاساليب غير المعقدة،فذلك طريـق لا يكـاد يخطـىء يوصلنا إلى صحة الجسم. والرجل الحكـيم لا يحـترق قلبـه بالمطـامع أو شـهوة

الصيت؛وهو لا يحسد أعداءه على ما نالوا من حظ طيب، بل انه لا يحسد اصدقاءه على هذا الحظ؛وهو يتجنب ما في المدنية من حمى المنافسات وضوضاء المنازعات السياسية،بل يطلي هدوء الريف، ويجد قمة السعادة وأعمقها في هدوء الجسم والعقل، ولما كان هو المسيطر على شهواته،فإنه يعيش بعيدا عن الادعاء الكاذب،ويطرح وراءه كل المخاوف، وتجزيه:" حلاوة الحياة الطبيعية بأعظم أنواع الخير وأعلاها شأنا وهو السلم.

وعلى الرغم من أن الابيقورية هي التي نقلت النظرية الذرية من العهد القديم إلى العهد الحديث،كانت نقطة تحول من نزعة التشوف القوية التي أنشأت العلم اليوناني والفلسفة اليونانية.واكبر عيب في هذه الفلاسفة هو سلبيتها: فهي تفكر في اللذة على أنه التحرر من الألم ، وفي الحكمة على أنها فرار من مخاطر الحياة وامتلائها؛ ان الأبيقورية خطة طيبة صالحة للفردية ولكنها لا تصلح للمجتمع وكان أبيقور يحترم الدولة لأنه يراها شرا لا بد منه ،يستطيع تحت حمايتها ان يعيش آمنا من الأذى في حديقته،ولكنه يبدو أنه لم يعن بالاستقلال القومي ، بل يبدو أن مدرسته كانت في واقع الأمر تفضل الملكية

المطلقة على الديمقراطية،لأن الأولى أقل من الثانية ميلا إلى اضطهاد الإلحاد، وكان أبيقور على استعداد لان يقبل أية حكومة لا تضع أي عقبة في سبيل طلب الحكمة والصداقة طلبا مطلقا من القيود والعوائق.وكان إخلاصه للصداقة يعدل اخلاص الاجيال التي سبقت للدولة ،يقول:"الصداقة أهم الوسائل التي تهيئها الحكمة لسعادة الحياة بأجمعها".وكانت صداقات الابيقورين مضرب المثل في دوامها ، ورسائل زعيمهم مليئة بعبارات الحب الخالص القوي.ولقد قابله مريدوه هذا الشعور بالقوة التي نعهدها في مشاعر اليونان ،وحسبنا دليلا على هذا ان الشاب كولوتيز Cooltes حين سمع ابيقور لاول مرة خر راكعا وبكى،وحياه بأنه إله.

ظل أبيقور ثلاثين عاما يعمل في حديقته ويفضل المدرسة عن الاسرة حتى إذا كان عام ٢٧٠ ق.م.قاسى أشد الآلام من حصوة في المثانة ،ولكنه تحمل الألم في صبر عجيب،ووجد وهو على فراش الموت متسعا من التفكير في اصدقائه.فكتب إليهم يقول:"اكتب إليكم في هذا اليوم السعيد آخر أيام حياتي .ان انسداد مثانتي ،والامي الداخلية قد وصلت إلى غايتها ،ولكن يقف في

سبيلهما ابتهاج عقلي حين افكر في حديثي معكم .اعتنوا باطفال"بتردوروس"العناية الخلقية باخلاصكم لي وللفلسفة- طوال حياتكم"وأوصى أبيقور بما يملك للمدرسة.

لقد ترك أبيقور وراءه مريدين خلف بعضهم بعضا زمنا طويلا،وقد بلغ من وفائهم لذكراه أن ظلوا قرونا طوالا يأبون ان يغيروا كلمة واحدة من تعاليمه.وعلى الرغم من إساءة الجمهور لفهم الأبيقورية وتنديدهم بها علنا،وسيرهم على سننها في اوساط كبيرة في جميع أنحاء "هلاس".إلا أن كثيرا من اليهود الهلنستيين اتبعوها،وبلغ من كثرتهم أن أضحت كلمة أبيقوري عند الاحبار مرادفة لكلمة مرتد عن الدين.وظل للمدرسة الأبيقورية اتباع ينتمون إليها جهرا في عهد قسطنطين،ومنهم من سوأ اسم استاذه فجعله مرادفا للتخمة في المأكل والمشرب،ومنهم من ظل أمينا يعلم الحكم البسيطة التي لخص فيها فلسفة:"الالهة لا ينبغي أن تخاف ،والموت لا يمكن الشعور به،والخير يستطاع نيله؛وكل ما نرهبه يمكننا التغلب عليه

الفصل السابع :

انحدار الحضارة اليونانية وانتقالها إلى الرومان

لقد كان السبب الرئيس الذي يسر للرومان فتح بلاد اليونـان هـو انحـلال الحـضارة اليونانيـة مـن الـداخل ، فقـد دمـرت بـلاد اليونـان نفـسها بتقطيـع غاباتها،واتلاف تربتها،واستنفاذ ما في باطن أرضها من معـادن ثمينـة،وبتحول طرق التجارة عنها – واضـطراب الحيـاة الاقتـصادية نتيجـة لاخـتلال النظـام السياسي،وفـساد الديمقراطيـة وانحـلال الأسر الحاكمـة ،وفـساد الاخـلاق ،وانعدام الروح الوطنية،ونقص الـسكان وتـدهور قـوتهم الجـسمية،واستبدال الجنود المرتزقة بالجيوش الوطنية،وما أدت إليه الحروب الأهلية من تطاحن بين الاخوة واتلاف لمواد البلاد،والقضاء على الكفايات بالفتن المتضادة الصماء.

وفي هذا الوقت الذي كانت فيه هذه الأمور مـسرح الاحـداث في اليونـان كانت هناك دولة صغيرة قائمة على ضفة نهر"التيبر" تحكمها استقراطية صارمة

بعيدة النظر،تدرب جحاملها القويـة المجنـدة مـن طبقـة الملاك،وتتغلـب عـلى جيرانها ومنافسيها،وتستولي على ما في البحر الابيض المتوسط من طعام ومعادن ،وتزحف عاما بعد عام على المستعمرات اليونانية في جنوبي إيطاليا.ولسنا هنا في معرض الحديث عن التطورات السياسية التي أدت إلى استيلاء روما عـلى بـلاد اليونان

ومع العلم – إن الحضارة اليونانية لم تمت حينذاك بل عاشت بعد ذلك عدة قرون.وما أن ماتت حتى أورثت أمم أوروبا والشرق الأدنى تراثا ليس له مثيل

واخذت روما تراث اليونان في شكله الهلنستي:فاخذ كتاب مسرحياتها عن منانـدر وفليمون،وقلـد شـعراؤها أسـاليب الادب الاسـكندري واوزانـه وموضوعاته،واستخدم فنها الصناع اليونان والاشكال اليونانيـة وانـدمجت في شرائعها قوانين المدن اليونانية،وصيغ نظامها الامبراطوري المتأخر عـلى مثـال الملكيات اليونانية- .وبذلك يصح القول بـأن الهيلنيـة قـد فتحـت بعـد الفـتح الروماني ؛فكان كل امتداد لسلطان الرومان انتشارا للحضارة اليونانية.



الباب الرابع :

الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى



الفصل الاول :

علاقة الدولة بالكنيسة البابوية والخمول التدريجي للمسيحية

تعود أصول الدولة البيزنطينية إلى القرن الرابع الميلادي حين أصدر الامبراطور قسطنطين مرسومه الشهيرالذي اعترف فيه بالديانة المسيحية وأسس العاصمة الجديدة "القسطنطينية" على ضفاف البوسفور.ويجب أن نعلم هنا أن التاريخ البيزنطي ليس هو إلا مرحلة جديدة من مراحل التاريخ الروماني،والدولة البيزنطية ما هي إلا استمرار للامبراطورية الرومانية القديمة.وكلمة " بيزنطي" هي تعبير أطلقته الأجيال اللاحقة على هذه الدولة.

لقد ظلت التقاليد الرومانية في الحكم هي التقاليد السائدة لدى البيزنطيين وعلى الرغم من ذلك فانه مع مرور الأيام كان يبدو واضحا أن الدولة البيزنطية الناشئة تكون لنفسها شخصية مستقله لها معالمها المميزة عن الامبراطورية

الرومانية. ففي الناحية الثقافية واللغوية يلاحظ أن البيزنطيين تـأثروا باليونـان ،كما كان للنصرانية أثر كبـير في مختلـف مجـالات هـذه الدولـة .وكـان للتطـور الاقتــصادي والإجتماعــي أثــر في خلــق أطــر جديــدة للتنظــيم الاقتــصادي والإجتماعــي .كــما أن الظــروف الجديــدة دعــت إلى تنظــيم ســياسي واداري جديدين.وهكذا فإن التطور المستمر الذي طبع مختلف مناحي الحياة في الدولـة البيزنطية جعل هناك فرقا شاسـعا في نهايـة المطـاف بيـنهما وبـين الامبراطوريـة الرومانية.وبتعبير آخر تعتبر القرون الثلاثـة الأخـيرة مـن حيـاة الامبراطوريـة الرومانية،أي القرون الثلاثة الأولى من حياة الامبراطوريةالبيزنطيـةفترة انتقـال تمت فيها عملية الانتصار على التقاليد الرومانية في الحكم

لقد قامت في القرن الثالث الميلادي مصاعب اقتصادية وفـوضى عـسكرية كانت لها نتائج وخيمة على النصف الغربي من الامبراطوريـة الرومانيـة،حين لم يكن لهذه الازمة نفس الاثـر عـلى الجـزء الـشرقي منهـا .وأن تـأثر إلى حـد مـا بذلك.وسبب هذه الازمة هي نتيجـة حتميـة لانهيـار الامبراطوريـة الرومانيـة الاقتصادي والإجتماعي.

لم يكن إعلان قسطنطين يعني منح المسيحية حق وجود شرعي مماثل للوجود الوثني فحسب،بل كان يعني تثبيت دعائمها وتمهيد الارض لازدهارها وتقويتها ،فقد منح رجال الدين النصارى نفس حقوق كهنة الديانة الوثنية وامتيازاتهم،واعفو من الضرائب ومن واجب العمل في وظائف الدولة حتى يتسنى لهم تأديةواجباتهم الدينية.وكان الناس يستطيعون وقف أموالهم وأملاكهم على الكنائس وتستطيع الكنائس وراثة هذه الاموال والاملاك والتصرف بها.وهكذا في نفس الوقت التي اغلقت فيه الحريات الدينية، أصبحت الحماية المسيحية كيانا شرعيا قانونيا معترفا يه كل الاعتراف وقد منحت المحاكم الكنيسة امتيازات هامة جدا.فاتيح للشخص الحق إذا وافق خصمه أن ينقل دعواه المدنية إلى محكمة كنسية حتى ولو كانت المحكمة المدنية قد باشرت النظر في هذه الدعوى .وفي نهاية حكم قسطنطين اتسعت سلطات المحاكم الدينية أكثر فأكثر.

أدى اتساع سلطة المحاكم الدينية إلى ازدياد نفوذ الاساقفة في المجتمع ،ولكنها من جهة أخرى زادت من أيمانهم واقحمتهم في مشاكل كانوا بعيدين

عنها ،كما جعلت من رجل الدين مضطرا في أن ينغمس في أمور دنيوية.وازداد غنى الكنيسة المادي عن طريق ماكان يصلهامن هدايا واموال واراض من الدولة والاشخاص العاديين.وقد اعفي النصارى من واجب حضور الاحتفالات الوثنية، كما ساعدت التعاليم النصرانية على تخفيف عقوبات المجرمين.

لقد أقام قسطنطين العديد من الكنائس في مختلف أصقاع الامبراطورية فإليه يعزى بناء بازيليكا القديس بطرس،وبازيليكا لايتران في روما .وقد اهتم اهتماما كبيرا بفلسطين حيث حجت أمه هلينا،ووجدت الصليب الحقيقي،وعلى جبل الزيتون بنى كنيسة القيامة،وفي بيت لحم أقام كنيسة المهد ،وفي القسطنطينية بنى كنيسة الرسل،وكنيسة القديسة إيرين وغيرهما.

إن اعتناق قسطنطين للديانة المسيحية لا يعني أنه قطع صلاته بالتقاليد الوثنيةفي العبادة كما فعل من خلفه من أباطرة بيزنطة، فقد استمر في بعض احترامه لبعض تقاليد العبادة الوثنية واشترك بنفسة في بعض طقوس هذه العبادة ولا سيما عبادة اله الشمس

لقد اصبحت النصرانية بفضل قسطنطين ذات نفوذ كبير في العالم الروماني .ولقد استدعى هذا الامبراطور في عام ٣٢٥ م إلى مدينة نيقية أول مجمع مسكوني ليبحث أفراده العقيدة وشؤون الكنيسة بشكل عام ،ولم يكتف بهذه اللعبة فقط بل لعب دورا كبيرا في القرارات التي اتخذها.وهكذا اصبح قسطنطين عمليا الرئيس الأعلى للكنيسة وصار على خطاه بقية الاباطرة البيزنطيين الذين اعتبروا انفسهم سادةالكنيسة.

لقد كان لهذا التعاون الذي إبتدأه قسطنطين أثرا طيبا على كل من الكنيسة والدولة ولكن في الوقت نفسه جلب الكثير من المشاكل ، فمن جهة اعطت العقيدة المسيحية الدولة البيزنطينية وحدة روحية قوية جدا ،كما أعطت لفكرة الأباطرة في الحكم المطلق التأييد المعنوي الذي كان ينقصها .ومن جهة أخرى حظيت الكنيسة بتأييد الدولة المادي ،وساعدت الدولة الكنيسة في حملاتها التبشيرية وفي الوقوف أما خصومها ،مما أظهر الكنيسة في مظهر المعتمد على الدولة.هذا هو الأثر الطيب الذي أدى إليه هذا التعاون بين الكنيسة والدولة.

أما المشاكل التي جلبها فتـتلخص في أن الدولـة بربطهـا نفـسها بالكنيـسة اصبحت مجبرة على أن تكون طرفا في كل المنازعات الكنيسية التي كانـت تقـوم بها بين الفرق الدينية.فالخصومات على العقيدة لم تعد من خصوصيات الكنيسة وحدها،بل كانت تتأثر بالظروف السياسية فاصبحت جزءا لا يتجزأ من الحيـاة السياسية والكنيسة.أضف إلى هذا أن المصالح الدينية ومصالح الدولـة لم تكـن متوافقا تماما في كل الظروف لهذا كثيرا ما كـان يحـل الخـصام محـل الوئـام بـين السلطتين.



الفصل الثاني :

الحياة الاقتصادية والإجتماعية والثقافية.

لقد كان لبيزنطا تشريعات وقوانين تنظم جميع جوانب حياتهم ،وتنظيم اقتصادي واجتماعي متقدم راق، ولم يكن ينقص بيزنطة الثورة ؛بل كان غناها يفوق جميع حدود الوصف. وكانت الدولة تتبع نظاما ضريبيا قاسيا يضمن لها الموارد الكافية لسداد جميع نفقاتها.على ان جهازها الاداري الذي كان يقوم عليه موظفون أكفاء في معظمهم لم يكن يخلو من موظفين فاسدين كان همهم الرشوة وابتزاز الاموال .وقد بني غنى الاباطرة ورفاههم ورفاه الدولة بشكل عام على جماهير الشعب وبؤسهم التي كانت تعيش العبودية والحرمان.

ومن أجل مواجهة أزمة القرن الثالث قام الامبراطوران ديقوليسيان وقسطنطين باصلاحتهما التي هدفت إلى تقوية السلطة المركزية،واقامة جهاز إداري منظم يستطيع الاشراف على شؤون الدولة وموظفيها،وكذلك فصل

السلطتين العسكرية والادارية فصلا كاملا تتضح معه حدود اختصاصات كـل منهما.وقد أدت هذه الاصـلاحات إلى تقويـة مركـز الأبـاطرة وسـلتطهم،هذه السلطة التي تضعضعت كثيرا أيام الاضطرابات والأزمة في القرن الثالـث.لـذا حاول هذان الامبراطوران الحد من سلطة مجلس الشيوخ وحددوا اختصاصات الادارات الحكومية المختلفة حتى لا تطغى سلطة إدارة على أخرى.

وامعانا في قاعدة فـصل اختـصاصات الادارات المختلفـة وتحديـدها جـاء التنظيم الجديد فوضع حدودا فاصـلة بـين الادارات المدنيـة والعـسكرية وبـين الإدارة المركزية والادارات في المقاطعات،وقام على رأس هـذا التنظـيم بكاملـه الامبراطور الذي ترتبط به شخصيا هذه الادارات ويعتبر موظفوها مـسؤولون تجاهه ويديرها هو ومساعدوه من العاصمة.

وبسبب اتساع رقعة الامبراطوريـة آنـذاك قـسمت إلى مقاطعـات ليـسهل عليهم الإشراف عليها.كما أوجـد نظـام المـساعدين ليـساعدوا الامبراطـور في الإدارة .وكان ديوقلسيان في إصلاحاته متأثرا إلى حد بعيد بـالتنظيم الإداري في

الامبراطوريات الشرقية،كما ظهر هذا التاثير الشرقي في مجال آداب السلوك في القصر الامبراطوري وغيره من المجالات

أوجد ديوقليسيان نظام المساعدين الأربعة يقوم بموجبه أربعة أشخاص بمساعدة الامبراطور في الإدارة هم :اثنان يحملان لقب أغسطس،واثنان يحملان لقب قيصر .وكان الاغسطسان يشرفان على إدارة النصفين الشرقي والغربي في الامبراطورية بالتناوب .ويساعد كل اغسطس في إدارة مقاطعته قيصر من القياصرة الاثنين تربطة بالاغسطس رابطة القربى بالتبني لا رابطة القرابة بالدم ،وتؤهله صفاته الشخصية العالية للإدارة .وحين ينسحب الأغسطس من العمل يخلفه عادة القيصر الذي يصبح اغسطسا ويعين لمساعدته قيصرا جديدا وهكذا كان الحكام الأربعة المذكورون آنفا يعتبرون كحاكم واحد يحكم أمبراطورية واحدة ،وكانت القرارات والاوامر تصدر باسمهم جميعا . ويبدو ان هذا النظام أدى إلى إضرابات وفوضى وحروب أهلية نتجت عن مطامع الاغسطين ،الامر الذي دعا قسطنطين إلى إلغائه، وجعل من نفسه الحاكم الوحيد للامبراطورية في أول الأمر ،ولكنه ما لبث أن عاد ليعين حكام

مقاطعات يساعدونه في إدارة البلاد .

لقد أدى تنظيم ديوقليسيان إلى إنهاء الوضع الخاص والامتيازات التي كانت تتمتع بها ايطاليا بين مقاطعات الامبراطورية،كما أنه ألغى التميز بين المقاطعات الامبراطورية والمقاطعات التي كانت تابعة لمجلس الشيوخ ،فمنذ عهد ديوقليسيان أصبحت جميع المقاطعات تابعا رأسا إلى الامبراطورية ، كما أن المقاطعات الكبيرة ، وكان عددها قبله سبعا وخمسين مقاطعة قسمت إلى عدد من المقاطعات الصغيرة ، حتى بلغ عددها في عهده حوالي مائة مقاطعة ،وفي القرن الخامس بلغ عددهامائة وعشرين مقاطعة .كما قسم ديوقليسيان الامبراطورية إلى اثنتي عشرة ابرشيةوفي نهاية القرن الرابع بلغ عدد هذه الابرشيات اربعة عشرة أبرشيةوفي عهد قسطنطين قسمت البلاد إلى مناطق إدارية كبيرة تحتوي كل منها على عدد الابرشيات ،وكل أبرشية قسمت إلى عدة مقاطعات ،وكان يؤلف من هذه الاقسام وحدة تتبع الحكومةالمركزية الموجودة في العاصمة .ومن الجدير ملاحظته أن المناطق الإدارية التي قسمت إليها البلاد اختلف عددها من زمن إلى زمن ،ولم تثبت حدود كل منطقة إدارية حتى نهاية

القرن الرابع الميلادي.

لقد كانت مـن أهـم مـا أدخلـه ديوقليـسيان وقـسطنطين في إصـلاحاتهما الإدارية هو الفصل فصلا واضحا بين السلطتين المدنية والعـسكرية؛فقد كانـت السلطة المدنية في كـل منطقـة بيـد حاكمهـا الإداري ،في حـين كانـت الـسلطة العسكرية بيد القائد المعروف باسم Dux والتي كانت سـلطته تمتـد في بعـض الاحيان إلى أكثر من منطقة.

وكان حكام المناطق الإدارية يتمتعون بسلطات واسعة جدا وكانوا يعتبرون ممثلين للامبراطور في مقاطعـاتهم وقـد حـاول الكثـيرون مـنهم تحـدي سـلطة الاجهزة الادارية في العاصمة ، وكان هم الاباطرة الحد من نفوذ هؤلاء الحكـام وتضييق رقعة سلطاتهم ولاثارة الخصومة بين مساعديهم ،وبينهم وبـين حكـام المقاطعـات التابعـة لهـا،حتى لا يبلـغ نفـوذهم حـد الخطـر الـذي يهـدد نفـوذ الامبراطور نفسه.

لم تكن مدينتنا روما والقسطنطينية تتبعان حاكم المنطقة ،بل كان لكل منهـا

حاكم مستقل يأتي في المرتبة التي تلي رتبة حـاكم المنطقـة مباشرةوكـان حـاكم المدينة "أي مدينة روما والقسطنطينية" العضو الاول في مجلس الـشيوخ ، وهـو الموظف الوحيد الكبير الذي لا يرتدي الزي العسكري،بل يرتـدي الـToga : وهي اللباس المميز للمواطنين الرومان.ولقـد لعـب حكـام القـسطنطينية دورا كبيرا في حياة بيزنطة في مختلف مراحل حياتها،فقد كان هذا الحاكم المسؤول عن المحاكم في المدينة وإليه تعود مراقبة تنفيذ القوانين وحفـظ النظـام،كما أنـه كـان المسؤول عن تموين المدينة بالاغذية وهو المشرف الاعلى على تجارتهاوصناعتها

لقد كان من نتائج تعيين حكام مستقلين لدولتي روما والقـسطنطينية الحـد من سلطة حكام المناطق الذي زاد ضعفهم كذلك بسبب تطور وازدهـار دوائـر الإدارة المركزية في زمن الامبراطور قسطنطين الكبير،حيث كان هناك ما يسمى برئيس الدوائر الذي كانـت تنـاط بـه مـسؤوليات كثـيرة منهـا المـسؤولية عـن الاحتفالات التي تقام في القصر الامبراطوري ،ويقع عـلى عاتقـه امـر اسـتلام البعثات والوفود الأجنبية.

وكان يتبع رئيس الدوائر حارس القصر المقدس الذي كان المسؤول الأول عن الشؤون القضائية وإلية تعود صياغة القوانين والمراسيم الامبراطورية.أما الشؤون المالية فكانت من اختصاص موظفين يرأس أحدهما الدائرة المالية،ويرأس الاخر دائرة الشؤون المالية الخاصة بالامبراطور .وكانت وظيفة حاجب القصر الامبراطوري وظيفة هامة،وان كان الامبراطور ضعيفا كان الحاجب يتصرف بمقدرات البلاد.

وفي أيام الامبراطور قسطنطين اقيم مجلس للشيوخ في مدينة القسطنطينية،وكان هذا المجلس هيئة استشارية فقط ،تقرأ فيه القوانين قبل اصدارها،كما كانت تناط به مهام أخرى احيانا .وكان اعضاؤه يتم اختيارهم من بين كبارالموظفين الامبراطوريين ومن اعضاء الارستقراطية الرومانية القديمة الذين توارثوا هذه الوظيفة عن أجدادهم منذ أيام الرومان.وكانوا في غالبيتهم منم كبار ملاك الارض الاغنياء مما جعلهم يعتمدون في معاشهم على وارداتهم الخاصة لا على رواتبهم.

ومنذ منتصف القرن السادس أصبحت عـادة إطـلاق الالقـاب الـضخمة جزءا لا يتجزأ من تقاليد القصر الامبراطوري،ومع مرور الزمن بـالغ الابـاطرة في إطلاق هذه الالقاب.

وإلى جانب مجلس الشيوخ أنشأ الاباطرة البيزنطينيون هيئة استشارية خاصة تضم كبار موظفي الإدارة المركزية ولم يشترك في هذه الهيئة حكام المناطق الـذين كانوا في الماضي أهم رجالات المجلس الامبراطوري.وكانت هذه الهيئـة تـدعى للانعقاد حين تقوم أزمة تهدد الدولة أو الكنيـسة أو غـير ذلـك مـن المناسـبات الهامة التـي يحتـاج فيهـا الامبراطـور إلى استـشارة معاونيـه ورجـال الـرأي في حكومته.

وعلى الرغم من اصلاحات الامبراطورين :ديوقليسيان وقـسطنطين إلا أن غالبية الشعب ظلوا في فقر شديد .أما الفلاحون الذين كانت حالتهم سيئة فقد زاد بؤسهم بسبب نظام الضرائب الذي أوجده ديوقليـسيان .كانـت الـضرائب تدفع بالذهب وحين انخفض سعره زمـن هـذا الامبراطـور لجـأت الدولـة إلى

جباية الضرائب عينا من المحاصيل ،وظل هذا الاجراء بشكل دائم ،غير أن ذلك كان في القرى ،أما سكان المدن فكانوا يدفعون ضرائبهم نقدا.

وبسبب الضرائب الباهضة على الفلاحين ، صارت الهجرة من القرى إلى المدينة مما تسبب في نقص عدد العمال الزراعيين من جهة ،وزيادة مساحة الارض البور من جهة أخرى ،مما اضطر الدولة إلى إجبار اصحاب الاراضي إلى استغلال أرض البور التي تركها أصحابها.

وفي زمن الامبراطور قسطنطين ضربت عملة ذهب جديدة سميت بالسوليدوس زنة الواحد منها ٤.٤٨ غم ذهب،ويتألف الدينار الذهبي من ٧٢ سوليدوس .كما كان هناك عملة فضية اسمها سليكوا زنتها ٢.٢٤ غم فضة .وكل سوليدوس ذهبي يعادل ٢٤ سيلكوا لأن نسبة الذهب إلى الفضة كانت ١/٢١ .وقد ظلت السوليدوس ،هذه العملة التي أوجدها قسطنطين الكبير،لمدة ألف عام أي طوال حياة الامبراطورية البيزنطينية الاساس النظام النقدي ، كما ظلت لفترة طويلة عملة التجارة الدولية ولم تهبط قيمتها أو تنتزع

قوتها إلا حين ضعفت الامبراطورية في القرن الحادي عشر.

أما في الحقل العسكري فقد قام ديوقليسيان وقسطنطين الكبير باصلاحات جذرية حيث بدأ ديوقليسيان اصلاحاته بتقوية الوحدات المرابطة على الحدود وشعر باهمية إيجاد وحدات متحركة يمكن استعمالها في قمع الفتن الداخلية كما يمكن استخدامها في الدفاع عن البلاد إذا داهمتها قوى خارجية .وأما الحرس البريتوري القديم فقد أضعفه ديوقليسيان، وصار قسطنطين على نهج ديوقليسيان في هذا .

وحتى يأمن قسطنطين اطماع القادة العسكرين جعل رئاسة الجيش بيد قائدين أحدهما تتبعه فرق المشاة والاخر تتبعه فرق الخيالة ،غير ان هذا التقسيم لم يدم طويلا،حيث لجأ الاباطرة خلفه إلى تعيين قائدين للجيش لهما نفس الرتبة والامتيازات ويقيم كل منهما في عاصمة من العاصمتين (أي واحد في روما والاخر في القسطنطينية).وإلى جانب هذين القائدين كان ثلاثة قادة كل منهما برتبة جنرال يقيمون في مقاطعات المنطقة الشرقية من الامبراطورية ،وكان يعود

لهؤلاء الجنرالات قيادة القوات الموجودة في مقاطعاتهم والقوات المرابطة على الحدود .

ومن هنا يمكننا القول أن قيادة الجيش كان يتقاسمها خمسة حكام مسؤولين مباشرة أمام الامبراطور الذي كان القائد الاعلى للجيش.وقد تطورت الانظمة التي كان يتبعها أفراد قوة الحدود فأصبحوا يقتطعون أراضي زراعية مقابل خدماتهم العسكرية ،وهكذا شكلوا طبقة من صغار الملاك العسكريين الذين يعتمدون في معاشهم على ما تنتجه أرضهم الزراعية .وسيتطور هذا النظام في المستقبل وسيلعب أفراد قوة الحدود دورا بارزا في التاريخ البيزنطي .هذا وقد تميز العهد الروماني بكثرة عدد البرابرة وخصوصا الجرمان الذين دخلوا فيه ومنذ القرن الرابع الميلادي صار هؤلاءالبرابرة يرتقون في المناصب العسكرية كما يلاحظ أنه في هذا القرن كانت تزداد أهمية فرق الخيالة ويزداد عددها .ويبدو أن ذلك كان بسبب قوة أعدائهم الفرس الساسانيين واعتمادهم على الخيالة كذلك.

التعليم في العصور الوسطى

أخذ التعليم في العصور الوسطى عن الرومان الكثير، وبخاصة مدارس البلاغة الإمبراطورية. ذلك أنه كانت هناك في أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية مرحلتان من المدارس تساعدهما الدولة في المدن الكبرى، كما كان هناك نظام لمنح الدرجات العلمية وتعيين المدرسين، أما المرحلة الأولى أو الابتدائية من المدارس، فكانت تلقن فيها القراءة والنحو والحساب والموسيقى. في حين اهتمت مدارس المرحلة الثانية أو العليا بالبلاغة والخطابة والأدب مع شيء من الدراسة القانونية والفلسفية.

ولقد اختفت مدارس البلاغة في القرن الخامس، وإن ظلت المدارس العلمانية منتشرة، حتى نهاية القرن السادس. ومهما تكن أهمية الدور الذي قامت به الكنيسة في الاحتفاظ بذلك الشعاع الخافت الذي ظل مضيئا في سماء غرب أوروبا في القرن السابع، فمن الثابت أن كتب النحو التي اعتمد عليها طلاب ذلك العصر كانت كتابات علماء من القرن الرابع الوثني، في حين ظل كتاب

برسكيان عن «قواعد النحو» الذي ألفه باللاتينية حوالي سنة ٥٠٠م في ثمانية عشر جزءا، ظل يمثل المرجع الأول في ذلك العلم.

إن أهم ما يتصف به ذلك العصر أن التعليم فيه أخذ يخضع تماما لسيطرة الكنيسة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى انحلال السلطة العلمانية وازدياد نفوذ البرابرة في المجتمع الغربي من جهة، واتساع نفوذ الكنيسة تدريجيا من جهة أخرى.

لقد أقرت الكنيسة تدريس الفنون الحرة - التي كانت تلقن للتلاميذ في المدارس الوثنية - ولكن على أسس مسيحية، لأن الكنيسة وجدت هذه الفنون أساسية ولابد منها لفهم الكتاب المقدس نفسه.

وهكذا ظهر من النحويين المسيحيين «مارتيانوس كابلا» الذي كان أول من حدد الفنون السبعة الحرة بالنحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى.

ولقد انقسمت هذه الفنون إلى مجموعتين الأولى: دراسات إنسانية، والثانية:

دراسات علمية.

أما الفيلسوف «بيوتس» (٤٧٥ - ٥٢٤) م فلقد قسمها إلى مجموعة ثلاثية: النحو، البلاغة، والمنطق. ومجموعة رباعية تشمل: الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. ثم كان أن أقر كاسيدور هذا التبويب - وعن طريقه انتقل إلى المدارس الديرية مما جعل كاسيدور هذا صاحب أهمية كبيرة في التعليم في أوروبا في العصور الوسطى.

ولقد كان الانتقال من التعليم القديم إلى تعليم العصور الوسطى لا يعني تغيرا كبيرا في طريقة التعليم بقدر ما كان هناك من تغيير في روح التعليم ومواد الدراسة.

وقد بدأت هذه الثورة حوالي عام ٦٠٠م، عندما ازداد نفوذ البابوية في توجيه التعليم ورسم سياسته، فأصبح التعليم منصبا على الإنجيل واللاهوت، الأمر الذي جعل الدراسات الإنسانية تحاول في مشقة بالغة الاحتفاظ بكيانها ضد الخط الذي أخذ يهددها لعدة قرون. ذلك أن المدارس الأسقفية والديرية

غدت لا تهتم إلا بتدريب اللاهوت والموسيقى الدينية والكتاب المقدس وسير القديسين المليئة بالمعجزات والخرافات، بحيث أصبح التعليم لا يستهدف غرضا إلا إعداد النشء ليصبحوا من رجال الدين. بل إن البابا (جريجوري العظيم ٥٩٠ – ٦٠٤ م) اشتهر بكراهيته للأسلوب البلاغي الكلاسيكي، وتفضيله اللغة اللاتينية بالإضافة إلى اعتقاده الراسخ بعدم جدوى كافة الدراسات التي لا تساعد في فهم العقيدة المسيحية.

وهكذا لم يقدر البقاء للدراسات الراقية والثقافة الإنسانية – بما فيها معرفة اللغة اليونانية – إلا في أيرلندا، التي انبثق نور المعرفة من أديرتها إلى كالدونيا (اسكتلندا)، ونور تمبرلاند، ثم بقية اتحاد انجلترا. ولم يلبث أن امتد بريق هذه الحركة العلمية إلى صلب القارة عن طريق المؤسسات والأديرة الأيرلندية التي قامت في غاليا الفرنجية وألمانيا ولمبارديا، وبصفة خاصة دير سانت جال ودير يوبيو. وكان من المحتمل أن تقضي الحركة البندكتية على هذا الإشعاع العلمي لولا جهود القديس بونيفيس (ت – ٧٥٥ م) وزملائه من رجال البعثات التبشيرية المختلفة.

ولقد نشط مفكر ومصلح يدعى شارلمان في هذا العصر، اهتم بنشر التعليم ورفع مستواه والإكثار من المدارس، فكتب إلى رؤساء الأديرة والأساقفة يشكو من جهل رجال الدين وكثرة الأخطاء المتواترة في المخطوطات الدينية، بل في الإنجيل نفسه، وأمرهم في العناية في المدارس والتعليم لإصلاح هذه الأوضاع. كما أنه استعان برجال لامعين ذوي مواهب كبيرة وعلى رأسهم «الكوين» الذي كان أبرز أعلام النهضة الكارولنجية، وصار لدى شارلمان بمثابة وزير التعليم، زيادة على كونه المعلم الخاص لأمراء القصر بل الإمبراطور نفسه. ولم تلبث أن أصبحت مدرسة تورز بفضل إشراف «الكوين» وتوجيهه مركز الثورة الثقافية في الإمبراطورية الكارولنجية.

وكان الهدف الرئيسي الذي دفع شارلمان إلى هذه الحركة كان غرضا دينيا يستهدف تصحيح الإنجيل وكتب الصلوات وغيرها من الكتب الدينية المتداولة، غير أن الحركة امتدت حتى شملت أيضا حفظ التراث اللاتيني الكلاسيكي ورعاية المخطوطات القديمة.

أما مدرسة القصر التي عرفها بلاط الملوك الميروفنجيين من قبل، فقد نظمها شارلمان في بلاطه بمدينة «آخن» على أسس جديدة، ذلك أنه جعل منها مجمعا للعلماء والأدباء، فضلا عن صنعتها الأساسية كمدرسة لإعداد جيل من الناشئين لخدمة الملوك ومعاونتهم، وخير شاهد على الروح الجديدة التي نفحها شارلمان في هذه المدرسة، تلك الأسماء التي تسمى بها أعضاؤها والتي أرادوا أن يتشبهوا فيها بالسلف من أعلام الحكمة والأدب. هذا وقد أظهر شارلمان شغفا كبيرا بجميع نواحي المعرفة لا سيما الفلك، كما كان يتكلم اللاتينية ويقرؤها على الرغم من قلة درايته بالكتابة. وهكذا، عزيزي الدارس، انتشرت المدارس الأسقفية والديرية في جميع أنحاء إمبراطورية الفرنجة، كما قدر لبعض هذه المدارس البقاء والاستمرار في تأدية رسالتها بعد سقوط هذه الإمبراطورية.

كان نظام التعليم الرسمي في الإمبراطورية الكارولنجية يشمل الأولاد من الأحداث دون البنات، وإن وجدت بعض أمثلة لنساء متعلمات في أوروبا القرن التاسع. وهنا نلاحظ أن بعض المعاصرين حبذوا في العصور الوسطى تعليم بنات النبلاء القراءة، لما في ذلك من توسيع الأفق وإنارة الفكر، ولكنهم

عارضوا مبدأ تعليمهن الكتابة حتى لا يستخدمنها في تحرير رسائل غرامية.

ومن هنا نرى أن التعليم في ذلك العصر كان عاما: إذ لم يقتصر على رجال الدين وحدهم. ويبدو أن الحساب والفلك كانت لهما أهمية خاصة في ذلك العصر لمعرفة تداول الأيام والأعياد الدينية. ولكن من الواضح أنه كان من العسير أن يتقدم علم الحساب بالطريقة اللازمة لإجراء العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب... بالأعداد الرومانية التي لم يعرف غرب أوروبا غيرها حينئذ؛ لأن الأعداد الهندية واستخدام الصفر في الحساب، لم تعرفها أوروبا إلا عن طريق العرب في القرن الثاني عشر.

إن تعليم رجال الدين كان هدفا رئيسيا لكي يتدرب هؤلاء ويعدوا ليكونوا قساوسة أو رهبانا صالحين. وهكذا صار لكل دير أو كاتدرائية مدرستها الخاصة بتعليم صغار رجال الدين. وهنا تجب الإشارة إلى أن هذه الحركة العلمية لم تندثر بسرعة عقب وفاة شارلمان؛ إذ انعقد مجمع كنسي سنة ٨٢٩م حث فيه لويس التقي على أن يحذو حذو أبيه في تشجيع المدارس والتعليم، هذا

إلى أن البابا أيوجين الثاني أمر سنة ٨٣٦م بضرورة وجود مدرسة على الأقل في سجل أسقفيته.

كان نظام التعليم في القرن التاسع ينقسم إلى ثلاثة مراحل: الأولى بمثابة مرحلة ابتدائية أو أولية، وفيها تدرس القراءة والكتابة ومبادئ اللاتينية الدارجة مع بعض دراسات سطحية في أصول الدين والكتاب المقدس. ويبدو أن هذه المرحلة كانت إلزامية للمقبلين على الانتظام في سلك الكهنوت: كما كانت مباحة لغيرهم من العلمانيين، وان كان إقبال هؤلاء الأخيرين عليها ضعيفا. أما المرحلة الثانية: فتشمل موادها الفنون السبعة الحرة بمجموعتيها الثلاثية والرباعية، وكانت مواد المجموعة الثلاثية تسمى عقلية، في حين سميت مواد المجموعة الرباعية وجودية لتناولها حقائق بعيدة عن العقل، أما المرحلة الثالثة، وهي خاصة بتعليم اللاهوت والكتب المدرسية في ضوء آراء آباء الكنيسة، ولا سيما القديس أوغسطين.

وفي أواخر القرن التاسع صار تيار النشاط العلمي في أوروبا يتحول من

غاليا إلى ألمانيا وذلك في عهد حكامها من ملوك الأسرة السكسونية، ذلك النشاط الذي عرف آنذاك بالنهضة السكسونية أو النهضة الأوتية نسبة إلى الإمبراطور أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦م - ٩٧٣م)، على أن هذه النهضة كانت أضعف أثرا وأضيق دائرة من النهضة الكارولنجية السابقة لها، هذا وإن تناولت هي الأخرى النواحي الأدبية والفنية والتعليمية، فضلا عن العناية بالنحو اللاتيني بوجه خاص؛ لأن معرفة قواعد النحو تتوقف عليها دراسة الكتاب المقدس دراسة صحيحة.

ومن هنا نرى أن التعليم في المدارس الديرية ظل دينيا في أسلوبه وأهدافه بحيث لم يكن هناك نظام تعليمي ثابت للعلمانيين الذين ظل معظمهم جهلة لا يعرفون القراءة والكتابة. كذلك يلاحظ أن التدريس في هذه المدارس اعتمد على الطريقة الشفوية بسبب ندرة الكتب وارتفاع أثمانها وكثرة الأخطاء في المخطوطات الرخيصة.

كذلك يلاحظ أن التعليم امتاز في المدارس الديرية بالصرامة والحزم

والقسوة في سبيل الحفاظ على النظام فضلا عن ضعف المستوى العلمي للمعلمين.

والآن تعالى بنا، عزيزي الدارس، لنقرأ وإياك فقرة من نص كتبه «جيوبرت النوجنتي» (ت ١١٢٤م) علنا نقف سوية على ما كان يلاقيه صغار التلاميذ من متاعب وآلام: إذ يترجم لحياته فيحكي كيف أنه يساق صباح كل يوم – وهو طفل في التاسعة من عمره – إلى مدرسة الدير، ليتلقى تعليمه على يد كاتب جاهل يتصف بالقسوة والعنف، لم يتعلم نفسه النحو إلا في الكبر، ويستطرد ذاكرا أنه لم يتمتع بيوم واحد عطلة، حتى أيام الآحاد والأعياد كان يذهب فيها إلى المدرسة حيث يكلف بكثير من الواجبات الشاقة.

أما أستاذه فيصفه بعدم المقدرة في الشعر والنثر، وأنه كان لا يجيد شيئا سوى توجيه الكلمات والألفاظ القاسية إليه وإلى زملائه، في الوقت الذي كان يفرض على تلاميذه حفظ ما لا يستطيع هو تدريسه! ثم يعيب «جيوبرت» على ذلك المدرس أن يطلب من عقل التلميذ الصغير استيعاب ما لا يستطيع هو توصيله

إلى ذلك العقل؛ لأنه لا يوجد شيء في الحياة أصعب من حفظ ما لا يستطيع الفرد أن يفهمه، وأخيرا يعلق على ذلك بأنه يجب أن لا نجبر الصغار على حفظ ما لا يستطيع الفرد أن يفهمه، وأخيرا يعلق على ذلك بأنه يجب أن لا نجبر الصغار على حفظ أشياء نعتقد نحن أنها حقائق مسلم بها دون أن نعيها ونجعلهم يفهمونها أولا... وهكذا فإن آراء «جيوبرت» تمدنا بصورة واضحة عن فلسفة التربية في أوروبا في العصور الوسطى، وهي صورة قد لا يعرفها كثير من مؤرخي علم التربية في العصور الحديثة (انظر سعيد عاشور، ج ٢، ص ٣٤١).

وفي ملخص القول نرى ما يلي:

* كان الأسقف في أول الأمر يتولى رئاسة المدرسة التابعة لأسقفيته، غير أن ازدياد أعباء الأساقفة جعلتهم يتركون الشؤون التعليمية داخل أسقفياتهم لفرد خاص، ولم يسمح لأي فرد آخر أن يفتح مدرسة داخل حدود الأسقفية أو يباشر تدريس الفنون الحرة دون تصريح من هذا الموظف، وإلا تعرض

للمحاكمة.

* لقد كانت الرقابة والشدة في المدارس الأسقفية أقل منها في المدارس الديرية، ولهذا كانت المدارس الأسقفية مسرحا للطلبة المشاكسين، غير أنها بقيت وازدهرت في أوائل القرن الثاني عشر، مقابل أفول المدارس الديرية لانشغالها بالمسائل المتعلقة بالإصلاح وسياسة العصر.

* أخذت المجامع الكنسية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي تنادي بإنشاء مدارس في كل كاتدرائية حتى ظهر عدد كبير من هذه المدارس. وكانت تلك المدارس تدور حول مركز الأسقف الذي عين للإشراف على تلاميذ المدرسة موظفا لقب بأستاذ المدرسة.

* تزعمت المدارس الكاتدرائية - وبخاصة في فرنسا - النشاط الفكري في غرب أوروبا عند بداية القرن الثاني عشر الميلادي هذا في الوقت الذي لم تبق من مدارس الأديرة ذات الشهرة سوى قلة محدودة، وهنا ينبغي ملاحظة أن المدارس الكاتدرائية لم تختلف عن المدارس الديرية في طابعها الديني وأهدافها

الكنسية، الأمر الذي كان له أعمق الأثر في تشكيل الحركة الفكرية التي جاءت مصحوبة بظهور الجامعات الأوروبية في القرن الثاني عشر. كذلك اهتمت المدارس الكاتدرائية بدراسة النحو اهتماما بالغا، واتخذت هذه الدراسة شكل تلقين للمبادئ والقواعد النحوية، ثم إعطاء تطبيقات عملية عليها، زيادة على دراسة نماذج من الشعر والنثر وامتحان الطلاب فيها. أما العلوم الأخرى فقد حظيت أيضا بقسط وافر من عناية المدارس الكاتدرائية في العصور الوسطى، وفي مقدمة هذه العلوم اللاهوت والفلسفة والقانون.

* شهدت أوروبا نهضة فكرية عظيمة في القرن الثاني عشر الميلادي، ساعد عليها الانتعاش الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي والسياسي، وازدياد اتصال الأوروبيين بالثقافة الإسلامية عن طريق الأندلس وصقلية والشام وقد ترتب على هذه الحركة الحضارية اتساع قطاع المعرفة في غرب أوروبا بحيث لم تعد تتسع لها المدارس الأسقفية أو الديرية بنظمها التي كانت عليها في أوائل القرن الثاني عشر، مما تطلب قيام نظام جديد للتعليم العالي يفي باحتياجات العلوم الجديدة وطلاب هذه العلوم. ولم يكن ذلك إلا بنشأة الجامعات التي تعتبر بحق

أعظم ما قدمته العصور الوسطى للعصور الحديثة.

ثانيا ظهور المعاهد والجامعات:

لم يكن لفظ رابطة أو جامعة يعني في الأصل أكثر من مجموعة من الأساتذة أو الطلاب اجتمعوا في صعيد واحد لمباشرة النشاط الثقافي. ولم يصبح هذا الاصطلاح شائعا إلا في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، عندما صار يمتاز بثلاث خصائص أساسية:

أ – كان يعبر عن البقعة أو المدرسة التي تستقبل الطلبة من جميع الجهات.

ب – كانت تلقن به دراسات عليا على أن تكون من بينها إحدى مواد التخصص على الأقل كاللاهوت، أو القانون، أو الطب.

جـ– كانت هذه الدراسات العليا يقوم بتدريسها عدد من الأساتذة الأكفاء المتخصصين.

وعلى هذا الأساس وجدت عند أوائل القرن الثالث عشر جامعة في باريس

اشتهرت باللاهوت، وأخرى في بولونيا اشتهرت بالقانون، وثالثة في ساقرنو اشتهرت بالطب.

لقد ظهرت أولى الجامعات الأوروبية في القرن الثاني عشر الميلادي في بولونيا بإيطاليا، وفي باريس بفرنسا. وقد تفرعت عن الأولى بقية الجامعات الأوروبية في حوض البحر المتوسط، في حين تفرعت عن الثانية جامعات شمال أوروبا وغربها التي ظهرت أواخر العصور الوسطى.

لقد قام الطلاب في بولونيا بتنظيم أنفسهم في هيئة نقابة أطلقوا عليها لفظ «جامعة»، وانقسموا إلى فريقين كبيرين: الطلاب الوافدون من إيطاليا، والبلاد الواقعة جنوبي جبال الألب. والطلاب الوافدون من الجامعات الواقعة شمال جبال الألب. ولم تلبث أن انقسمت كل مجموعة من هاتين المجموعتين إلى شعب صغيرة أو أروقة ضمت كل منها الطلبة الوافدين من بلد واحد أو مدينة واحدة، كطلاب لمبارديا أو تسكانيا أو البندقية أو روما أو بافاريا أو سوابيا. واختار أبناء كل بلد من هؤلاء مشيرا أو مراقبا، على أن يجتمع هؤلاء المشيرون

سويا لاختيار رئيس أو مدير للجامعة من بينهم. وهكذا لم يكن الأساتذة أعضاء في جامعة بولونيا، ولم يكن لهم نصيب في إدارتها، وإنما ظلوا بمثابة مستخدمين تدفع لهم نقابة الطلبة أجورهم وفقا لعدد الدروس التي يدرسها كل منهم وعدد طلبته، وعلى الرغم من أن هيئة التدريس سرعان ما ألفت نقابة خاصة بها، إلا أن السيادة ظلت لنقابات الطلبة في جامعة بولونيا حتى أن هذه الأخيرة كانت تفرض على الأساتذة قيودا وغرامات إذا خالفوا القواعد العامة التي وضعتها (انظر سعيد عاشور، ج٢، ص ٣٤٥).

أما في باريس فقد اتخذ التنظيم اتجاها عكسيا عنه في بولونيا إذ بدأ الأساتذة بتكوين رابطة أو جامعة، في حين انقسم الطلبة إلى أربع مجموعات أو أروقة حسب الشعوب التي ينتمون إليها، لكل مجموعة وكيل أو قائم بأعمالها، وكان هؤلاء الوكلاء أو رؤساء الأروقة يختارون الرئيس أو المدير الأول للجامعة الذي كان بطريقة آلية هو رئيس أساقفة باريس؛ لأن جامعة باريس نشأت وتدرجت من مدرستها الأسقفية.

أما إدارة جامعة باريس فقد كانت في أيدي الأساتذة لا في أيدي الطلبة، كما كان الحال في بولونيا. وربما رجع السبب في ذلك إلى الفارق العام بين مستوى أعمار الطلبة في الجامعتين، فمدرسة باريس الأسقفية، وهي التي أصبحت جامعة باريس فيما بعد، كان يمكن أن يلتحق بها الطلبة الأحداث في سن الرابعة عشرة بل الثانية عشرة، في حين كان الطلبة في بولونيا أكبر سنا وأتم نضجا؛ لأن الدراسة الأساسية فيها كانت ثانوية ومن ثم أقدم عليها عدد كبير من الناضجين ورجال الأعمال.

ولقد كان لنفوذ الكنيسة عاملا أساسيا في التنظيم الشكلي للجامعات؛ لأن الكنيسة كانت المنبع الوحيد للتعليم في أوروبا في العصور الوسطى. هذا إلى جانب أن حركة التعليم الجديدة تبنت في المدارس الأسقفية، ومن ثم كان طبيعيا أن تتحكم الكنيسة في توجيه هذا التعليم الجديد والسيطرة عليها. وقد أدركت الكنيسة أن في خروج هذه الحركة التعليمية الجديدة من قبضتها، تعريضا لسلطتها وتعاليمها للخطر والنقد – وسط الجو العلمي الجديد المشبع بحرية التفكير والتعبير – ولما كان من الصعب على الكنيسة قمع هذه الحركة

الجديدة أو كبتها، فلا أقل إذا من توجيهها وتنظيمها في الصورة التي تكفل عدم التعرض لأوضاع الكنيسة ونظمها وآرائها القائمة.

كان أول مظاهر تدخل الكنيسة في شؤون هذه الهيئات الجامعية الناشئة، هو تمسك البابوية بمبدأ موافقة الأسقف على الطلبة الذين يتقدمون للحصول على درجة الدكتوراه في القانون من بولونيا.

أما في باريس فقد ظهر هذا التدخل في التوحيد بين وظيفتي رئيس الجامعة ورئيس أساقفة باريس، بمعنى أن الأخير أضحى مشرفا على شؤون الجامعة، وعلى الرغم من ذلك فقد حظيت الجامعات الناشئة بقدر كبير من الحرية الأكاديمية.

ولقد امتد نفوذ أمين الكاتدرائية في باريس حتى تضمن الموافقة على اختبار المرشحين لوظائف التدريس. وهكذا صار نفوذ أمين الكاتدرائية من جهة، وحق حصول المدرس القدير على ترخيص بالتدريس من جهة أخرى، هما الدعامتان اللتان قام عليهما النظام الفرنسي للجامعات. على أن المتتبع لنشأة

جامعة باريس، يلحظ هذا التطـور جـاء مـصحوبا بـصراع بـين الطلبـة وأمـين الكاتدرائية. ذلك أن الطالب الذي استكمل دراسته وتأهل للتدريس كان لابـد له من الحصول على درجة الأستاذية أو الماجستير. ولكـن أمـين الكاتدرائيـة لم يكن له الحق في رفض الترخيص لأحد الأساتذة الذين يحملون الدرجة السابقة بالتدريس فحسب، بل كان له في أول الأمر حق حرمانه من هذه الدرجـة التـي حصل عليها، مستغلا في ذلك سلطته الدينيـة ونفـوذه الكنـسي، والغريـب أنـه وعلى الرغم من هذه السلطات الواسعة التي تمتع بها أمين الكاتدرائيـة إلا أنـه لم يكن عضوا في نقابة أساتذة الجامعة. هذا إلى أن أساتذة الجامعة كانوا يستطيعون رفض الاعتراف بترشيح أحد الأفراد ليكون عضوا جديدا في هيئـة التـدريس، وعن هذا الطريق تمتعوا بسلطة تعادل ما كان لأمين الكاتدرائيـة مـن سـلطة في منح الليسانس أو الترخيص بالتدريس.

وأما المناهج الدراسية فكانت تحـدد عـلى أسـاس المجموعـة الرباعيـة مـن الفنون السبعة الحرة، ولكنها أخذت تنمو وتتعدل بـسرعة نتيجـة للمعلومـات الغزيرة التي تدفقت على غرب أوروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وقد ظفر

القانون والطب والفلسفة واللاهوت بالقسط الأكبر من اهتمام المعاصرين، وإن كانت بقية العلوم لم تحرم من ذلك الاهتمام: فالحساب الذي كان لا يزال علما غامضا حظي بعناية كبرى، والهندسة عولجت على أنها تضم في رحابها مجموعة أخرى من العلوم أهمها الجغرافيا التي بلغت درجة كبيرة من التقدم، نتيجة للحروب الصليبية واتساع التجارة، كذلك ازدادت العناية بالعلوم الطبيعية ولا سيما علم الحيوان.

وإذا كانت هذه العلوم قد ظلت أمدا طويلا تشوبها الأوهام وتسيطر عليها المعتقدات الدينية، إلا أن الجامعات الناشئة لم تلبث أن بثت الروح الجديدة التي ترمي إلى البحث والاستقصاء لمعرفة حقيقة الكون والكائنات. وكان منهج الدراسة في اللاهوت طويلا، وبخاصة في جامعة باريس، حيث كانت مواد هذا المنهج مستمدة من الكتاب المقدس ومن كتاب «الأحكام» الذي وضعه بطرس لمبارد في علم اللاهوت.

ولقد كانت الدرجات العلمية تقسم إلى ثلاثة درجات هي: البكالوريوس،

والليسانس، والأستاذية. فكان يكفي أن يدرس الطالب كتابين في النحو وخمسة في المنطق ليحصل على درجة البكالوريوس، بعد أن يؤدي امتحانا أمام ثلاثة أو أربعة من الأساتذة، فإذا نجح نوقش علنا برئاسة أستاذه ثم يمنح درجة البكالوريوس في الفنون الحرة وتعطيه هذه الدرجة الحق؛ لأن يكون معيدا. وبعد هذه المرحلة يستطيع الطالب أن يقضي نحوا من سنتين في قراءة بعض المتون، حتى إذا أتم ذلك بنجاح حصل على أجازة التدريس، وهي كما يتضح من اسمها ترخيص «ليسانس» يعطيه حق مباشرة مهنة التدريس. أما درجة الأستاذية فكانت تتطلب دراسة تقرب من خمس أو ست سنوات، وبعدها يتوجب عليه إلقاء درس تجريبي أمام لجنة من الممتحنين، وكانت درجة الأستاذية في الآداب مرادفة ومعادلة لدرجة الدكتوراه في الفروع الأخرى. ولم يكن من الضروري أن يحصل الطالب على درجة الأستاذية للتحضير لدرجة الدكتوراه في الفروع الأخرى. ولم يكن من الضروري أن يحصل الطالب على درجة الأستاذية للتحضير لدرجة الدكتوراه في القانون الكنسي أو المدني، ولكنها الأساس للتحضير لدرجة الدكتوراه في الطب أو اللاهوت. وكانت

درجة الأستاذية أو درجة الدكتوراه لا تمنح لمن سنه دون الخامسة والثلاثين، على أن يؤدي امتحانين للحصول على هذه الدرجة، أحدهما خاص، والآخر عام علني، وبعد ذلك يمنح الدرجة في الكاتدرائية.

ولقد كانت طريقة التعليم شفوية، وعلى هيئة محاضرات يلقيها الأساتذة تتخللها مناقشات فيما بينهم وبين الطلاب. ولم يكن للجامعات في أول الأمر مبان مستقلة خاصة بها، فاستخدمت في إلقاء المحاضرات بعض الغرف الملحقة بالكاتدرائية، وهي غرف عارية باردة ليس فيها أثاث سوى مكتب الأستاذ. أما الطلبة فكانوا في أول الأمر يجلسون على الأرض، وأحيانا فوق وسائد محشوة بالقش، وكان يتوقف نجاح الطلب في دراسته إلى حد كبير على قوة ذاكرته ومقدرته على الاحتفاظ في ذهنه بما يلقيه الأستاذ من معلومات، ذلك أن الورق الذي عرفه الغرب بعد ذلك عن طريق العرب، لم يكن قد عم استعماله بعد، في الوقت الذي كانت الرقائق الجلدية المستخدمة في الكتابة باهظة الثمن بحيث لا يستطيع معظم الطلاب شراءها. وفي بعض الأحيان دفعت الضرورة بعض الطلبة الذين يدرسون على أستاذ واحد إلى الاشتراك سويا في شراء «ورق

جلدي» لتدوين المحاضرات عليه. وفي نهاية المحاضرة يجتمعون سوية في مكان واحد ويدلي كل منهم بـما بذاكرتـه ممـا سرده الأسـتاذ – وعندئـذ تنـشأ بيـنهم مناقشات طويلة حول تحديد ما ذكره الأستاذ وما لم يذكره، وعندما تتم مجموعة المحاضرات تصبح ملكا لهم جميعا يتبادلونها للاستذكار.

ومن مساوئ التعليم الجامعي آنذاك أنه لم تخل جامعات العصور الوسـطى من طلبة مستهترين مندسين في وسط جمـوع المجتهـدين، حتـى وصـف بعـض المعاصرين إحدى فرق الجامعة بأن طلابها، يـصلحون لأن يكونـوا خبـازين لا طلاب علم! لقد كان ارتفاع تكاليف الحياة الجامعية عندئذ قـد أدى بـالكثيرين من الطلبة إلى العيش على القليل من الـزاد في مـساكن حقـيرة. مقابلـة بوجـود عوامل إغراءات كثيرة كالحانات، وأماكن الدعارة والاختلاط بقطـاع الطـرق، الأمر الذي أدى إلى انحراف كثير من الطلبـة عـن جـادة الـصواب. وواجهـت الجامعة والكنيسة والسلطة الحاكمة في المدينة مشكلة كبـيرة في هـذا. ولم يظهـر حل لهذه المشكلة المتباينة إلا قرب منتصف القرن الثالث عشر المـيلادي عنـدما ظهرت المجمعات أو الكليات المنزلية، وكان المقصود بها ابتداء أن تكون منازل

ينزل في كل منها عدد من الطلاب الفقراء؛ لمساعدتهم على عيشة أفضل وحتى يكونوا تحت الرقابة المباشرة.

وقد ظهرت هذه المؤسسات لأول مرة في باريس عندما أخذ بعض الخيرين يألمون لما يعانيه الطلبة الفقراء من متاعب وآلام فأسس روبرت السوربوني، وكان تاجرا وافر الثراء مجمعا في باريس عام ١٢٥٨ م لإيواء عدد من الطلبة الفقراء وإطعامهم مقابل أجر رسمي زهيد، مما خلد اسمه في باريس حتى اليوم. ولم يكد ينتهي القرن الخامس عشر الميلادي حتى كان في باريس أكثر من خمسمائة مؤسسة اجتماعية من هذا النوع تتمتع بأوقاف واسعة من الأراضي والعقار. أما في انجلترا فقد أنشأ والتربوتون أسقف روشسته مؤسسة مرتون في أكسفورد، كما أسس حنا باليول، مؤسسة باليول.

لقد زال نظام الكليات هذا من جامعات القارة الأوروبية منذ أيام الثورة الفرنسية، ما عدا انجلترا التي لا تزال تحتفظ به حتى أن جامعة أكسفورد لها ثلاث وعشرون كلية، في حين تحتفظ جامعة كمبردج بتسع عشرة كلية معظمها

يرجع أصله إلى العصور الوسطى.

وكانت هذه الكليات تعتمد على المنح التي تتلقاها من أغنياء رجـال الـدين والنبلاء والتجار.

ولقد انتشرت الجامعات في أوروبا مستمدة نظمهـا مـن جامعـة بـاريس في الغرب ، وجامعة بولونيا في الجنوب؛ ففي انجلترا ظهرت جامعـة أكـسفورد في القرن الثاني عشر، وإن كانـت لم تتخـذ صـفتها الرسـمية إلا في عـام ١٢٠٠م. وكانت أكسفورد في الواقع وليدة جامعة باريس؛ لأن مؤسسيها كانوا من الطلبة والأساتذة الذين درسوا في باريس، والذين أمرهم هنري الثـاني ملـك انجلـترا بالعودة إلى بلادهم عام ١١٦٧م عندما ساءت العلاقـات بيـنهم وبـين لـويس السابع ملك فرنسا وتعذر على الطلبة الإنجليز الاستمرار في دراساتهم بفرنـسا. أما كمبردج فقد تأسست عام ١٢٠٩م عن طريق هجرة بعض طلاب وأسـاتذة أكسفورد الفرنسية إليها. وهكذا شهدت أوروبا في القرن الثالث عـشر والرابـع عشر المـيلادي مولـد كثـير مـن الجامعـات الجديـدة، وإذا كانـت معظـم هـذه

الجامعات قد اختلفت بعضها عن بعض في نواح متعددة، إلا أنها اتفقت في الطريق الطويل الذي سارت فيه نحو التحرر من كافة القيود، حتى حققت استقلالها عن السلطات الكنسية والعلمانية جميعا. ولم يلبث أن أحرز مديرو الجامعات نفوذا إداريا واسعا، وتحايلوا في تحقيق ذلك بالثورة حينا، وبالاستعانة بالبابوية ضد الحكام العلمانيين، أو بهؤلاء الحكام ضد رجال الدين أحيانا أخرى.

ومن هنا نرى أهمية نشأة الجامعات في أوروبا آنذاك. وقد ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أن القوى الثلاث التي هيمنت على المجتمع المسيحي وهيمنت على الحياة والقوة كانت: الكنيسة، الإمبراطورية، والجامعة.

لقد أحدث وصول فلسفة أرسطو الجديدة إلى غرب أوروبا انفجارا ذا دوي شديد، فأقبل طلاب العلم على هذه الفلسفة بنهم بالغ غير عابئين بعدم مسايرتها لتعاليم الكنيسة. الأمر الذي أدى بالأخيرة إلى أن تهب للدفاع عن كيانها، فعقد مجمع ديني إقليمي في باريس عام ١٢١٠م حرم فيه تدريس بعض

تعاليم أرسطو ومؤلفاته وهدد من يخالف هذا القرار بتوقيع الحرمان ضده. وكان هذا منسحبا بطبيعة الحال على بعض شروح ابن رشد. غير أنه أبيح تدريس جدل أرسطو بعد ذلك بخمس سنوات أي في عام ١٢١٥م، ولكن تكرر تحريم تدريس الميتافيزيقا، زيادة إلى ما كان يمت إلى الرشدية والرشديين. وفي عام ١٢٣١ م أصدر البابا جريجوري التاسع أمرا جديدا يقضي بتحريم فلسفة أرسطو في جامعة باريس حتى يتم تهذيبها من كل ما يتعارض وتعاليم الكنيسة.

وكان للحركة الجامعية الجديدة أثرها في التوجه نحو حرية الفكر، ذلك أن رجال الجامعات الناشئة لم يستطيعوا أن يمتثلوا لأوامر رجال الدين، ويتخلوا عن فلسفة أرسطو بعد أن تذوقوا جانبا منها، وأدركوا أهميتها كغذاء للفكر. وهكذا استمر الطلاب وأساتذهم يتداولون آراء أرسطو خفية فيما بينهم، حتى أن المنطق الجديد لأرسطو كان يدرس في صورة تامة وكاملة لطلبة الدراسات العليا بجامعة باريس عام ١٢٥٥م.

هذا كله حدث بعد وصول فلسفة أرسطو لغرب أوروبا.

أما اللاهوت فإن أهميته بـدأت تـضعف تـدريجيا في الجامعـات الأوروبيـة نتيجة لاهتمام هذه الجامعات بتدريس القـانون الرومـاني. والواقـع أن النهـضة القانونية التي تزعمتها جامعة بولونيـا، والتـي امتـدت إلى كثـير مـن جامعـات أوروبا لم تترك متسعا من الوقت والجهد للاهتمام باللاهوت، إلى درجة أن كثيرا من الجامعات ذات الأهمية أحجمت عن تدريس اللاهوت واكتفت بإنشاء كلية للقانون المدني.

ومـن هنـا نـرى أن الحـضارة الأوروبيـة في العـصور الوسـطى (التـاريخ البيزنطي) كانـت ذات طبـع مـستقل مـع تأثرهـا بالحـضارة اليونانيـة وسـلطة الكنيسة وتأثرت بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية مما أدى إلى ظهـور وتبنـي ظروف سياسية وإدارية جديدة للحضارة .





الباب الخامس:

الحضارة العربية الإسلامية



الفصل الأول

أسس ومبادئ الحضارة العربية والإسلامية وعلاقتها بالحضارات المختلفة

لقد قامت الحضارة العربية الإسلامية على أساس رسالة سماوية وهي الإسلام. وكانت تعاليمها الكبرى مأخوذة من القرآن الكريم ومن أقوال الرسول عليه السلام وأعماله.

ولكننا هنا نرى أن نتحدث عن الحضارة بمصالحها وأسسها ومبادئها التي لا تتنافى مع الدين الحنيف فقد امتزجت الحضارة العربية الإسلامية بعدة ثقافات وحضارات بعد الفتوح الإسلامية وهذه الحضارات منها:

الثقافة العربية والثقافة الهندية والثقافة الفارسية و الثقافة اليونانية والإغريقية.

أولا : أصل الحضارة العربية الإسلامية (الإسلام) :

وهي عقائد وأعمال: فالعقائد تدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك لـه هـو رب العالمين، وبالبعث بعد الموت، وبالثواب والعقاب في الدار الآخرة، وبالجنة والنار يوم الحساب، وبكل ما ورد في كتب التوحيـد.. أن الأعـمال منهـا أعـمال تنزل منزلة العقائد وهي: الصلاة، والصوم، وحج بيـت الله مـن اسـتطاع إليـه سبيلا، ومنها أعمال تتصل بالأخلاق والآداب العامـة، وهـي التـي تحـث عـلى التمسك بالخصال الحميدة وآداب اللياقة في معاملـة النـاس، والوفـاء بالوعـد والصبر في الشدائد وإقامة العدل وعفة النفس والأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر، ومنها أعمال هي عبارة عن تطبيق لما جاء في الشرع خاصا بتنظيم أحـوال الأسرة وتوطيد دعائمها، ثم المعاملات التي تجري بين الناس في حياتهم العامـة سواء في زمن السلم أم في فترة الحرب.

وبذلك كان للإسلام أثر بالغ في الحياة الفكرية عند العرب، وبفضله نشأت بين المسلمين من عـرب وغـيرهم علـوم التفـسير والحـديث والفقـه، والـسير،

والمغازي، وعلم التاريخ، والإسلام يحث على النظر والتفكير في الكون الذي نعيش فيه، وفي ظواهره المختلفة فأدى ذلك إلى الاشتغال بالعلوم الكونية على اختلافها، وهي الجغرافيا والكيمياء والفيزياء والفلك والطب والرياضيات، كما أن حياة المسلمين انطبعت بطابع الدين الإسلامي، سواء أفي نظمهم العامة السياسية والإدارية والمالية وأحوالهم الخاصة والعامة أم في فنونهم وآدابهم.

فالإسلام هو الينبوع الأول للثقافة الإسلامية وهو الذي انطبعت عليه حياة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، سواء أفي نظمهم العامة أم في أحوالهم السياسية والإدارية والمالية. بل في فنونهم وآدابهم وكل ما يتصل بحياتهم لعامة والخاصة. إن فترات الضعف والانحلال التي أصابت الدولة الإسلامية ليس مرجعها إلى الدين وإنما إلى ضعف المسلمين أنفسهم وخروجهم عن تعاليم القرآن الكريم والسنة المحمدية السعيدة.

ثانيا : الثقافة العربية :

ان العرب هم العنصر الفعال في الدولة الإسلامية فهم مادة الإسلام. وهم العرب ثقافة انفردوا بها عن غيرهم من الشعوب وتميزوا بها عن سائر الأجناس. وأضرب لك مثلا على ما ذهبت إليه، فأقول: ان حرص العرب على التمسك بأنسابهم قد أدى إلى قيام علم الأنساب لمعرفة أنساب القبائل والأفراد، وظهرت بذلك طبقة من النسابين لمعرفة أنساب القبائل. كما ظهرت في الأنساب كتب كثيرة ومن أمثلة هذه الكتب: كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي (ت - ٤٥٦ هـ)، كما اهتموا بنسب الخيل كذلك ومن أشهر كتبهم في هذا المجال: كتاب نسب الخيل لابن الكلبي (ت - ٢٠٤ هـ).

وللعرب في الجاهلية شعراء كانوا حملة لواء الشعر العربي على العموم وهذا الشعر فوق كونه الفن العربي الممتاز، كان كذلك ديوان أخبارهم وسجل أحداثهم وكنز لغتهم وبلاغتهم. كما أن للعرب حظا موفورا من الأمثال الكلم الجامعة يوردونها في المناسبات، وقد عني العلماء بجمع هذه الأمثال العربية في كتب خاصة،

وما زلنا نتلمس الكثير منها في كتاباتنا وأحاديثنا، ومن أشهرها كتاب الأمثال للميداني (ت – ٥١٨ هـ)، كما عنيت طائفة أخرى من العلماء بأيام العرب في الجاهلية وتاريخ ممالكهم قبل الإسلام. وفتوحاتهم العظيمة بعد أن أضحوا مسلمين ككتاب تاريخ الرسل الملوك لمحمد بن جرير الطبري (ت – ٣١٠ هـ) مثلا. أضف إلى كل هذا ما اتصف به العرب من الشجاعة والأنفة من الضيم وحفظ الجوار واحترام المرأة وإكرام الضيف. كل هذه الآداب شاعت في المجتمع الإسلامي حتى بعد ذهاب نفوذ العرب السياسي. وانتقل كل ذلك إلى أوروبا في أعقاب الحروب الصليبية فيما يعرف بنظام الفروسية.

ثالثا: الثقافة الهندية:

إن أول اتصال كان بين الثقافة الهندية والثقافة العربية الإسلامية كان في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك حين أصدر الخليفة أمرا إلى والي العراق ليوجه من يستطلع ثغر الهند ويتعرف عليه، وتم ذلك، ثم تجدد الاتصال زمن الخليفة على بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، حين أرسل

قائدا على رأس حملة إلى الهند في عام ٤٠ هـ، حيث ظفر في أول الأمـر وأصـاب مغنما ثم استشهد.

ومن الـتأثيرات بين الثقافتين دخول الأرقام الهنديـة، وكـان العـالم العـربي الخوارزمي (ت – ٣٢٨ هـ) هو أقدم من كتب الحساب بالأرقام الهندية.

وبعد تأثر الأدب العربي بالأدب الهندي من حيث الألفاظ والمعاني وعرب الكثير من هذه الألفاظ (كالزنجبيل) وتم الاستفادة من القصص الهندية، ومـن أهم الكتب المترجمة من الهندية إلى الفارسية ثم إلى العربية كتاب (كليلـة ودمنـة) وتم اقتباس الكثير من الأمثال الهندية كذلك وتأثر المسلمون من الهنود في البناء والعمارة الإسلامي والعكس صحيح.

وبذلك كان فن العمارة أحد مجالات الصهر والمزج بين العنـصرين الهنـدي والإسلامي. ونتيجة لتفاعل الحضارة الإسلامية مع تلك الهندية، نشأت الديانة السيخية التي حاول كبار دعاتها التوفيـق بـين الهندوسـية والإسـلام في شريعـة واحدة، ويرى أن تعاليم البراهمة فيها كثير من الإيمان بفكرة التوحيد، كـما نـتج

عن ذلك ظهور اللغة الأردية التي هي مزيج من ألفاظ وأفكار فارسـية وتركيـة وسنسكريتية، وتمثل ما كان من تعاون ثقافي بين المسلمين والهنود.

رابعا : الثقافة الفارسية :

كان الفرس أمة عريقة منذ القدم وهي ذات حضارة عظيمة ازدهرت زمـن الدولة الساسانية، ونبغت في فنون السياسة والإدارة والحروب ومظاهر الـترف والرفاهية. كانت ديانتها «الزرداشتية» ولغتها الفهلوية مليئة بالأدب والحكمـة، وعندما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الأكاسرة، دخلت جماعات مـن الفرس في دين الإسلام وصاروا موالي للفـاتحين العـرب، وبـدخولهم الإسـلام نبـذوا الزرادشـتية والفهلويـة وأقبلـوا عـلى الإسـلام يدرسـونه ويتعمقـون في أحكامه، وعلى اللغة العربية يتعلمونها ويتزودون مـن آدابهـا، ولم يمـض وقـت طويل حتى أصبحوا هم أغلب القائمين على الحركة العلمية والتأليف في مختلف العلوم. وقد أفادت الحضارة الإسلامية من ذلك فوائد جمة، فكثير من الألفـاظ الفارسية التي ليس لها مقابل بالعربية نقلت ميزانيتها إلى اللغة العربية ودخلـت

في بنيتها. وكذلك فن الغناء الذي لم يكن للعرب منه حظ يذكر قبل الإسلام، انتقل من الفرس إلى العرب في صدر الدولة الأموية. ونبغ كثير من موالي الفرس، أمثال: عبد الحميد الكاتب (ت - ١٣٢ هـ)، وابن المقفع (ت - ١٤٢ هـ)، وغيرهم.

ونشطت في العصر العباسي حركة تأليف الموالي في مختلف العلوم الإسلامية على الإطلاق، ومن أهم العلوم التي أخذها العرب عنهم علم التاريخ. هذا ويمكن القول بأن الفرس قد أدخلوا على المجتمع الإسلامي آدابا ونظما جديدة مثل الزخرف في الملبس والمسكن وغير ذلك من النواحي. أما من ناحية التأثر بالمذاهب فتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من الفرس لم ينسوا معتقداتهم القومية. فهناك من بقي متمسكا بها، وحاول أن يدخل عناصرها في الدين الإسلامي، وهناك من حاول التوثيق بينها وبين الإسلام ومن أمثلة ذلك انتشار الزرداشتية والمانوية والمزدكية وخاصة في العصر العباسي.

خامسا : الثقافة اليونانية :

بمجيء الإسلام نقل السريان في الشام والعراق إلى لغتهم السريانية كثيرا من كتب اليونان في اللسفة والطب والرياضيات والكيمياء والفلك والتقويم، وعلقوا عليها وشرحوها، ثم أنشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم، وبذلك انتشرت الثقافة والعلوم اليونانية في أقطار الشرقين الأدنى والأوسط بل جاوزتها على أيدي جماعة النساطرة إلى بلاد الهند نفسها. وفي العصر العباسي عهد الخلفاء ولا سيما المأمون إلى طائفة من السريان أن ينقلوا الكتب اليونانية المعتمدة في العلوم المذكورة إلى اللغة العربية، وبذلك انتقلت الثقافة اليونانية إلى المسلمين.



الفصل الثاني

النهضة الفكرية للحضارة العربية الإسلامية وأعلامها

لما جاء الإسلام انتقل العرب من حالة التخلف البدائية التي كانوا يعيشونها، إلى حال جديدة، فتحت لهم آفاقا واسعة من العلم والمعرفة ن وقد مهد لذلك أمران جليلان:

١- **جمع القرآن** من الصحف التي كتب فيها الوحي زمن الرسول (عليه الصلاة والسلام)، ومن صدور الرجال والحافظين لبعض آيات القرآن، ثم تدوينه في مصحف واحد أرسلت منه نسخ إلى الأمصار الكبرى. وبذلك أصبح للمسلمين نص واحد معتمد لكتابهم المبين يقرؤونه ويتدبرونه دون اختلاف في نصه.

٢- نمو الخط العربي:

لقد أخذ العرب، الخط أصلا عن الحيرة (القريبة من الكوفة) وهو ما يعرف

بالخط الكوفي، ثم أخذوا عن الأنباط خط النسخ، وبذلك لم يعد العرب أميـين، بل أصبح كثير منهم يقرأ ويكتب وهو الأساس لكل حركة فكريـة عامـة، فقـد عني الدين الإسلامي بالعلم والدعوة إلى تحصيله.

وقد استفاد كثير من الصحابة من صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنبغ منهم كثيرون صاروا مـن أهـل العلـم، وتفرقـوا في الأمـصار الإسـلامية وقاموا بحركة علمية كبرى.

ومن المراكز المشعة للحركة العلمية والثقافية في الحضارة العربية الإسلامية مكة والمدينة والبصرة والكوفة وبغداد ودمشق والفسطاط والقطـائع والقـاهرة والأندلس والقيروان وقرطبة.

هذا، وقد ميز كتاب المـسلمين بـين العلـوم التـي تتـصل بـالقرآن الكـريم والسنة، وبين العلـوم التـي أخـذها العـرب مـن غـيرهم مـن الأمـم (الفـرس والإغريق والرومان والهنود)، وكان يطلق عـلى العلـوم الأولى العلـوم النقليـة (الشرعية)، وعلى الثانية العلوم العقلية (الحكمية).

ومن هذه العلوم:

١- علوم اللغة والأدب ومنها :

أ - علم النحو:

وأول من فكر بوضع قواعد نحوية للغة حتى لا يخطئ بها الأعاجم هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، وعنه أخذ أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ)، الذي وضع أساس مدرسة البصرة في النحو، والذي يعتبر أول من اشتغل بالنحو في العهد الأموي.

وقد نشأ علم النحو في البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري، وفيهما نشأت مدرسة النحويين واللغويين، ومن علماء البصرة الأفذاذ أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) واضع علم العروض وصاحب كتاب (العين) الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية مرتبا حسب الحروف الهجائية، ثم سيبويه (ت - ١٨٠ هـ) الفارسي ويعرف كتابه باسم كتاب سيبويه، وهو نتيجة مجهود عظيم جامع لقواعد اللغة العربية.

ومن أشهر العلماء: الكسائي مهذب ولدي الرشيد: الأمين والمأمون، وكذلك كان من علمائها الفراء تلميذ الكسائي، والمفضل الضبي صاحب كتاب المفضليات.

لقد تطور علم اللغة في العصر العباسي الثاني تطورا ملحوظا بارتقاء النحو وتنظيم المعاجم، وقد ظهرت فيه مجموعة كبيرة من اللغويين والنحويين، فقد نشط علماء اللغة في القرن الثالث الهجري لاستكمال ما فات من نقص في كتاب العين الذي وضعه الخليل من أحمد، كما وضعوا المعاجم الواسعة وساروا فيها على طريقة ترتيب الحروف حسب المخارج الصوتية والابتداء بحروف الحلق، وأولها حرف (العين) فنشأ ما يسمى كتاب اللغة لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) وكان إماما في اللغة وأديبا بارعا يقرض الشعر وينظم النثر، وهو أول من اخترع المقامات في اللغة العربية وممن ألف في اللغة معجما واسعا: أبو علي القالي (ت - ٣٥٦ هـ) في كتابه: الأمالي. ومن أشهر علماء اللغة في القرن الرابع الهجري على الإطلاق: إسماعيل ابن حماد الجوهري (ت - ٣٩٣ هـ) صاحب كتاب الصحصاح في اللغة وقد سار على طريقة جديدة في ترتيب المادة اللغوية تقوم

على أساس الحروف الهجائية. وآخر علماء العرب في ميدان اللغة هو: (محمد بن أبي بكر الرازي (ت - ٦٦٦ هـ) الذي لخص معجم الصحاح للجوهري في كتاب سماه مختار الصحاح.

ولقد كانت الأحرف العربية بلا شكل وقد وضعت في القرن الأول الهجري، كما أنها كانت بلا تنقيط، حتى أمر الحجاج بن يوسف الثقفي بتنقيط المصحف.

هذا وقد أخذ العلماء يفرقون بين الكلام الفصيح والبليغ وغيره ليمنعوا الناس من الإسفاف في كلامهم، فألف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاب: (مجاز القرآن)، وألف الجاحظ كتاب: (إعجاز القرآن) وكتاب (البيان والتبيين)، وألف أبو هلال العسكري كتاب (الصناعتين) ثم جاء عبد القادر الجرجاني، ووضع كتاب: (دلائل الإعجاز) وكتاب (أسرار البلاغة)، ووضع السكاكي كتابه: (مفتاح العلوم).

كما وضع العلماء أوزانا وبحورا للشعر حيث بدأ الخليل بن أحمد بهذا

فحصر أوزان الشعر في خمسة عشر وزنا سماها بحورا، وأتم عمله الأخفش إذ زادها بحرا، وبقي الأمر هكذا.

ب - علم الآداب:

لم يهتم العرب بدراسة الأدب في صدر الإسلام لانشغالهم بالحروب الأهلية التي استنفذت كل مجهوداتهم، غير أن الروح الأدبية في هذا العهد سارت على ما كانت عليه في الجاهلية، فلم يتعد الأدب دائرة الشعر تقريبا، فكان شعراء هذا العصر لا يزالون على ما كان عليه من سبقهم في الجاهلية.

إلا أنه يزيد من مزايا الشعر الجاهلي بتناوله أمور في العقيدة والإيمان والعمل.

وكان من أشهر شعراء المسلمين حسان بن ثابت (شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ت - ٥٤ هـ)، وكعب بن زهير (ت - ٢٦ هـ). ومن أشهر شعراء المشركين عبد الله بن الزبعري (ت - ١٥ هـ)، وضرار بن الخطاب (ت - ١٣ هـ)، وكعب بن الأشرف (ت - ٣ هـ)، وغيرهم.

أما في الدولة الأموية فلقد كان هناك مجموعة من الأحزاب المختلفة المتطاحنة واتسعت صدور الخلفاء للشعراء المادحين، وقلدهم في ذلك الحكام والولاة في الأقاليم المختلفة، وتغيرت الأحوال الاجتماعية وارتفعت الحياة العربية وارتفع مستوى الحضارة المادية وظهرت فنون جديدة من الأدب والنثر والشعر، واشتهر بعض الخلفاء بالشعر أمثال: يزيد بن معاوية (٦٠ – ٦٤ هـ)، وعبد الله بن مروان (٦٥– ٨٦ هـ) ومن أشهر شعراء العصر الأموي جرير (ت – ١١٠ هـ)، والفرزدق (ت – ١١٠ هـ) والأخطل (ت – ٩٠ هـ).

وفي العصر العباسي (١٣٢ هـ – ٦٥٦ هـ) ظهر كثير من الشعراء الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب، حتى فاقوا في كل ذلك من سبقهم من شعراء الجاهلية والإسلام، ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو نواس (ت – ١٩٨ هـ)، وهو ممن أذاع القول في الغزل والخمر والصيد.

ويمثل الأدب في العصر العباسي الأول طائفة من الأدباء أشهرهم: عبد الله بن المقفع (ت – ١٤٢ هـ) صاحب كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه عن الهندية

القديمة، وهو أقدم كتب النثر في الأدب العربي. ومـن أدبـاء هـذا العـصر عبـد الحميد الكاتب (ت - ١٣٢ هـ) الذي يعتبر شيخ الكتابة في عصره، والذي قيل فيه بدأت الكتابة بعبد الحميد ذلك أنه أحدث بها أمورا فنية لم تكن موجودة من قبل، ومن هؤلاء كذلك ابن قتيبية (ت - ٤٧٦ هــ) وهـو مـن خراسـان ومـن كتبه: عيون الأخبار، وكتاب الشعر والشعراء، وأدب الكاتب وهنـاك الجـاحظ (ت - ٢٥٥ هـ) ومن أشهر كتبه الحيوان، وكتـاب البيـان والتبيـين، كـما حـاز الخوارزمي (ت - ٣٨٣ هـ) صاحب المقامـات المعروفـة والـذي ذاع صـيته في الأدب العربي.

أما عن شعراء العصر العباسي الثاني المشهورين فهم: أبو تمام الطائي (ت - ٢٣١ هـ) المشهور بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر، ثم تلميذه: البحتري (ت - ٢٨٤ هـ).

صاحب الأوصـاف البديعيـة، وابـن الرومـي (ت - ٢٨٣ هــ) المعـروف بغزارة شعره وعجيب تصوراته، وأبو العتاهية (ت - ٢١١ هــ) الـذي اشـتهر

بالغزل الرقيق، ثم المتنبي (ت - ٣٥٤ هـ) شاعر أهل زمانه.

وكان من أعظم شعراء هذا العصر، المعري، والشريف الرضي، و؟؟، و؟؟، وأبو تمام.

٢- العلوم الدينية:

وتشمل علم القراءات، وعلم التفسير وعلم الحديث وعلم الفقه.

أ - علم القراءات:

ويعتبر علم القراءات المرحلة الأولى لتفسير القرآن الكريم. ومن الذين اشتغلوا به: عبد الله بن عباس (ت - ٦٨ هـ)، وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه (ت - ٥٨ هـ)، وعثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣-٣٥ هـ)، وعبد الله بن مسعود (ت - ٢٣ هـ). ومما يجدر ذكره أن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة، فكانت تنزل الآية أو الآيات على الرسول (عليه الصلاة والسلام) كلما دعت الحاجة لذلك، ثم يقوم الصحابة بكتابتها على سعف النخل، والرقاع،وقطع

الأديم، وعظام الشات والإبل وأضلاعها. فلما مات الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وقامت حروب الردة، وقتل أكثر القراء من الصحابة (وخاصة يوم اليمامة)، هال هذا الأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣- ٢٣ هـ) وأشار على أبي بكر الصديق (١١ - ١٣ هـ) أن يجمع القرآن، فاستجاب لذلك وأمر زيد بن ثابت (ت - ٤٥ هـ) وهو من كتاب الوحي بجمعه من الرقاع ومن صدور الرجال. وعقب الانتهاء من تبليغ القرآن حفظته هذه الصحف عند أبي بكر ثم انتقلت إلى عمر بن الخطاب، ولما مات حفظته حفصة بنت عمر (ت - ٤٥ هـ).

وعندما ظهرت الاختلافات في القراءات في عهد عثمان. جمع الصحابة وأخبرهم بهذه الاختلافات ورأى أن يدون مصحفا واحدا، ووكل أمر هذه العملية إلى زيد بن ثابت وعبد الله بن زبير (ت - ٧٣ هـ)، وسعيد بن العاص (ت - ٥٩ هـ)، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام (ت - ٤٣ هـ)، ومنها نسخت أربعة مصاحف أرسلت إلى الأمصار الإسلامية ثم أحرقت الرقاع الأخرى، حتى لا يفتح الباب بعد ذلك للزيادة أو النقصان في كلام الله سبحانه

وتعالى. خاصة بعد اختلاط العرب بأهالي البلاد المفتوحة التي اختلفت لغاتها وتباينت لهجاتهم. ولولا هذا المجهود الذي قام به عثمان رضي الله عنه لتعرض القرآن الكريم إلى ما لحق الكتب السماوية الأخرى من التبديل والتحريف ولضاع إعجازه وتلاشى بيانه، وصدق قوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (الحجر، الآية ٩).

ب - علم التفسير:

ولقد ظهر هذا العلم لأن العرب متفاوتين في درجة استيعابهم لمفردات اللغة وتراكيبها. وإلى جانب الآيات الكثيرة الواضحة البينة، التي يفهمها كل من له إلمام باللغة العربية كتلك التي تتعلق بأصول الدين وأصول الأحكام، كانت توجد آيات أخرى يصعب على العامة فهمها ويحتاجون إلى تفسيرها. كما تجدر الإشارة إلى أنه بسبب دخول الكثيرين من غير العرب الإسلام، برزت حاجة هؤلاء إلى من يفسر لهم معاني القرآن، ولهذا كله نشأ علم التفسير.

وكان تفسير القرآن يتجه في محورين:

أولهما: التفسير بالمأثور (النقل): وهو ما أثر عن الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وكبار الصحابة. وثانيهما: التفسير بالرأي (الاجتهاد) وهو ما كان معتمدا على العمل أكثر من اعتماده على النقل.

ومن أشهر المفسرين:

حمد بن إسحق (توفي - ١٥١ هـ) و محمد بن جرير الطبري توفي (٣١٠ هـ)، والقرطبي (توفي سنة ٤٦٣ هـ).

ويعتبر القرآن الكريم من أهم المصادر التاريخية ولا سيما في الحديث عن السيرة النبوية ثم تاريخ الأمم القديمة كدولة سبأ في اليمن، وتاريخ اليهود، ثم صراعهم مع الرسول (عليه الصلاة والسلام)؛ فكلام الله سبحانه وتعالى هو خير تفسير لحياة البشرية في الماضي والحاضر والمستقبل والذي أرشد الناس في مختلف العصور إلى طريق الهدى والرشاد.

ج - علم الحديث:

وهو ما أثر عن النبي (عليه الصلاة والسلام) من قول أو فعل أو تقرير لشيء رآه، ويأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم، فهو بذلك المصدر الثاني للتشريع الإسلامي وتجدر الإشارة إلى أن الصحابة الأوائل خشوا من أن يجمع الحديث في كتاب واحد، فيشتغل الناس به عن القرآن الكريم.

وكان لعدم تدوين الحديث في عهد مبكر أن استباح قوم لأنفسهم وضع الحديث ونسبته إلى الرسول (عليه الصلاة والسلام).

وقد كان من أهم أسباب ذلك: الخصومة السياسية، والخلافات الكلامية والفقهية، والتقرب من ذوي النفوذ ومتابعة هوى الأمراء والخلفاء، ومغالاة البعض في تخويف الناس وترهيبهم من الحرام، أو تشجيعهم وترغيبهم بالفضائل، ومغالاة الناس في عدم قبولهم للعلم أو الدين إلا ما اتصل بالكتاب والسنة...». وقد اتبع علماء الحديث إزاء ذلك طرقا عدة للتمييز بن صحيحه وموضوعه، منها التثبت من الإسناد والتجريح والتعديل وغير ذلك، ومن

أعظم رواة الحديث هؤلاء الذين كانوا أكثر اتصالا برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشهرهم عائشة رضي الله عنها، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأبي هريرة (ت - ٥٩ هـ).

وفي القرن الثاني للهجرة أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية، ويعتبر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ) ممن لهم الفضل الأول في تدوين الأحاديث الصحيحة، فقد وكل الأمر إلى نفر ممن يوثق بهم في جمع الأحاديث، ثم دونت في دفاتر وأرسلت منها نسخ إلى أنحاء الدولة الإسلامية.

ومن أئمة الحديث في القرن الثالث الهجري الإمام مالك بن أنس (ت-١٧٩هـ)، والإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت-٢٥٦هـ)، ومسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت-٢٦١هـ) والإمامان هما صاحبا الصحيحين المشهورين الذائعين في بلاد الإسلام.

د- علم الفقه:

والفقه لغة هو العلم بالشيء، والفهم له، ثم غلبت على معنى العلم بالدين

والفهم له ثم غلبت هذه الكلمة على علم التشريع؛ لأنه يتطلب فقهـا في الـدين ومعرفة في الكتاب والسنة.

إن مـصادر التـشريع الإسـلامي أربعـة هـي: الكتـاب والـسنة والقيـاس والإجماع. وكان أهل العراق أكثر الناس عملا بالقيـاس ويبـدو أن ذلـك كـان لكثرة ما اعترضهم من مشاكل اجتماعية. وصار علماء القياس يبحثون في دقائق الأمور وما وقع منها وما لم يقع حتى دعاهم البعض (الاراتيون) بينما كان أهـل الحجاز أكثر ما يكونون عملا بالسنة لكثرة علماء الحديث فيهم؛ ولأن الرسـول (عليه الصلاة والسلام) قضى حياته بينهم، ولبساطة الحياة عندهم بالنسبة لحياة العراق المتحضرة، وكانوا كثيرا ما يحجمون عن الفتوى في الأمـور التـي لم يـرد فيها نص في كتاب أو سنة بعكس أهل العراق.

لقد عمل كثير من العلماء المجتهـدين عـلى أن يكـون لكـل مـنهم مدرسـته الخاصة في الفقه، يتبعه فيها من يثق به، ومن هؤلاء الحسن البصري والأوزاعي والنووي وداود الظاهري الطبري، غير أن مذاهبهم لم تنتشر كثيرا بـل انـدثرت

لأن غيرهم من الأئمة كانوا أكثر اجتهادا وأكمل وضعا لأبواب الفقه وهم الذين عرفوا باسم الأئمة الأربعة. وأصبح السنيون جميعا يتبعون أحد المذاهب الأربعة التي تبلورت وتقاربت بدراسات تلاميذهم، وخلفوا لنا التراث الفقهي الإسلامي لأن للشيعة أئمة غيرهم. وسأحاول أن ألخص لك - عزيزي الدارس - نبذة عن كل من هؤلاء الأئمة:

١- الشافعي (ت-٢٠٤هـ) عربي قرشي، درس على مالك وأبي حنيفة، وجمع بين المذهبين بكثير من المسائل. ومن أشهر كتبه رسالة في أصول الفقه: بين فيها ما يحتاج إليه المجتهد إزاء القرآن وإزاء الحديث والإجماع وغير ذلك. وله كذلك كتاب (الأم)، وأسلوبه فيه جدلي وفيه كثير من الاستدلالات بالحديث واستعماله القياس. ومن تلاميذه: البويطي والربيع المرادي وأحمد بن حنبل.

٢- أحمد بن حنبل (ت- ٢٤١هـ) عاش في بغداد، وهو عربي الأصل، رحل كثيرا في طلب العلم، واستكثر من الحديث. وله كتاب «المسند». وقد تعرض أيام المأمون للاضطهاد لعدم قوله بخلق القرآن.

٣- مالك بن أنس (ت-١٧٩هـ) عربي الأصل، نشأ وتعلم في المدينة، فهو حجة في الحديث، له كتاب (الموطأ)، ولقد انتشر مذهبه فيما بعد في المغرب والأندلس.

٤- أبو حنيفة فقد ولد في عام ٨٠هـ - وتوفى عام ١٦٠هـ، ومن أشهر تلامذته أبو يوسف قاضي القضاة الرشيد وواضع كتاب الخراج، وكذلك محمد بن الحسن الشيباني.

العلوم الوضعية:

أما عن اشتغال المسلمين بهذه العلوم فيبدو أنهم استمدوا معظم آرائهم وعلومهم من آسيا.

ومن أهم العلوم الوصفية عند العرب:

أ- (**التاريخ**):

كان العرب يتناقلون كثيرا من أخبارهم في الغزو والحروب وأخبار شجعانهم وسادتهم، واطلعوا على قليل من أخبار الأمم المجاورة باتصالهم بهم

عن طريق التجارة.

كان عبد الله بن شرية اليمني (ت-٦٧هـ) أول من سرد القصص والتاريخ. كما اندفع العلماء إلى التفصيل في أعمال الرسول (عليه السلام) وغزواتهم وسيرته وسيرة أصحابه، ورواة الحديث وقيمتهم من حيث الأمانة في النقل فنشأ عن ذلك كتب السير والمغازي.

تطور علم التاريخ في القرن الثالث الهجري واتسعت مصادره ثم أخذ العلماء يبحثون عن البلدان المفتوحة وهل فتحت صلحا أم عنوة وذلك كي يعرفوا تقدير الخراج فيها فنشأ عن ذلك كتب الفتوح. ولعل البلاذري (ت-٢٧٩هـ) هو أول من سار في التاريخ على منهج ربط الحوادث بصورة متماسكة في كتابه فتوح البلدان. ثم حدث نزاع علمي أدبي سياسي بين العرب والموالي وظهرت الشعوبية فكان كل فريق يحاول أن يثبت أفضليته على الفريق الآخر، فعاد إلى تاريخ آبائه وأجداده فتوسعت مادة التاريخ، وتطرقت إلى ذكر الماضي بأنواع حوادثه.

وأقبل المسلمون في عصر النهضة العلمية (العصر العباسي) على العلوم جميعا إقبالا منقطع النظير، ولا غرو في ذلك فإن النهضة العلمية الحقيقية قد وضعت أسسها في أواخر العصر العباسي الأول بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية. وكانت معرفة تاريخ الأمة العربية والإسلامية وغيرها من الأمم الأخرى من جملة هذه المواد العلمية، فنما علم التاريخ نموا عظيما.

وقد زخر العصر العباسي الثاني بطائفة كبيرة من أعلام المؤرخين، ولا غرو في ذلك فإن النهضة العلمية الحقيقية قد وضعت أسسها في أواخر العصر العباسي الأول بعد أن نشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.

ومن أشهر مؤرخي هذا العصر اليعقوبي (ت-٢٨٤هـ) والذي كان شيعيا متحمسا لعقائد الشيعة، ثم محمد بن جرير الطبري (ت-٣١٠هـ) الذي يعتبر كتابه (تاريخ الأمم والملوك) من أمهات الكتب التاريخية منذ بدء الخليفة حتى

مستهل القرن الرابع الهجري. كما يعتبر كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي) (ت-٣٤٥هـ) من أهم المصادر التاريخية في ذلك العصر.

أما تجارب الأمم لمسكويه (ت-٤٢١هـ) فهو من أهم الكتب العلمية، وتعتبر حوادثه مكملة لتاريخ الطبري، وقد عالج فيه الشؤون الاجتماعية والأحوال الاقتصادية، ولم يكتف كغيره بسرد الحوادث، وبذلك خطا التاريخ خطوة جديدة.

ومن المادة المتجمعة من الكتب السابقة وكثير غيرها استقى ابن الأثير كتابه المسمى: الكامل في التاريخ.

ب- (الجغرافيا):

أخذ العرب المعلومات الجغرافية منذ خرجوا من جزيرتهم للفتح، فكان لابد لهم من معرفة الطرق المؤدية إلى البلاد التي يقصدونها، ومعرفة طبيعة إقليمها وأرضها وخصبها وجدبها وأماكن الري فيها.

ولقد بلغ المسلمين في أسفارهم للتجارة خلال القرنين الثاني والثالث من الهجرة بلاد الصين برا وبحرا وأقاصي سواحل إفريقية الجنوبية ومدغشقر، وأوغلوا في روسيا شمالا، ووصلوا إلى سواحل المحيط الأطلسي غربا، وقد رجع أولئك التجار بكثير من أخبار الأقطار والشعوب التي زاروها، فأثارت هذه الأخبار رغبة واسعة في معرفة أحوال البلدان وشعوبها.

وكان لاتساع نطاق التجارة في العصر العباسي الأول، واتصال مدينة بغداد (حاضرة العباسيين) برا وبحرا بالبلاد القاصية، ثم لتعبيد الطرق وجعلها آمنة، كل هذا كان له أثر كبير في تسهيل الاسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين. ومن أول هؤلاء الرواد المسلمين: سليمان التاجر ودون وصف أسفاره في كتاب مشهور، وقد وصلت رحلات المسلمين في عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين وإلى كوبا.

ومن أسباب ظهور علم الجغرافيا:

١- السفر لاستقاء المعلومات الأدبية والتاريخية من منابعها.

٢- موسم الحج الذي يجذب إليه في كل عام آلاف المسلمين من جميع الأقطار.

٣- كثرة الطرق التجارية.

٤- الغزوات والحروب.

٥- الاهتمام بشبكة من الطرق الصالحة.

٦- الرحلات العلمية والبعثات الرسمية.

مجال في أهم الرحالة في ذلك القرن:

١- ابن جبير الأندلسي (ت- ٦١٤هـ) صاحب كتاب رحلة ابن جبير الذي يصف فيه رحلاته الثلاث خلال الحروب الصليبية في الشرق.

٢- وابن بطوطة (ت- ٧٧٩هـ) الذي خرج من شمال أفريقية وذهب شرقا إلى البلاد العربية، وزارها جميعا مع الأراضي المقدسة، ثم خرج إلى أراضي الدولة الرومانية وزار القسطنطينية، كما وصل برحلاته إلى روسيا وإلى الهند

الصينية وسومطرا، وكتابة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» مشهور باسم رحلة ابن بطوطة.

٣- ابن خرداذبة (ت- ٢٨٠هـ) الفارسي الأصل، وله كتاب المسالك والممالك، والذي كان يعتبر دليلا للمسافرين في الاهتداء إلى الطريق البحري الذي يبدأ من مصب نهر دجلة حتى الهند والصين.

٤- اليعقوبي (ت- ٢٨٤هـ) صاحب كتاب البلدان، وقد قام برحلات طويلة إلى أرمينيا وإيران والهند، ومصر وبلاد المغرب.

٥- الهمداني (ت- ٣٣٤هـ) صاحب كتاب صفة جزيرة العرب.

٦- أبو الحسن المسعودي (ت- ٣٤٥هـ) من كبار الرحالة المسلمين. لقد كتب معلومات مناخية عن أحوال البلاد والشعوب التي زارها.

ج - الفلسفة وعلم الكلام:

لم يكن العرب قبل الفتوحات الإسلامية يهتمون بالفلسفة وعند دخول

كثير من أتباع الديانات الأخرى ومن أجناس غير عربية في الإسلام وبدأوا بنقل الفلسفة الإغريقية وغيرها إلى المسلمين، أقبل المسلمون على الكتب الأعجمية يترجمونها ويدرسونها ويفسرونها ويعلقون عليها. وقد كانت الفلسفة الإغريقية وخاصة مذهب أفلاطون الحديثة، أكثر ما جذبتهم إلى دراستها وتفهمها، وكان العلماء الذين بدأوا ينبغون في العصر العباسي الأول يلمون بأكثر من علم واحد، فكان أحدهم يشتغل بالرياضيات والفلك والتنجيم والكيمياء معا، كما أن كثيرا من أطبائهم كان يشتغل بالفلسفة وبالعلوم الأخرى، ولكن الرجل يعتبر عالما أو فيلسوفا أو موسيقيا إذا تغلبت هذه الناحية عنده على سائر العلوم الأخرى التي يتقنها.

من أشهر الفلاسفة المسلمين:

١- الكندي (ت- ٢٥٦هـ):

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي وقد لقب بفيلسوف العرب.

٢- الفارابي (ت- ٣٣٩هـ):

اخترع الفارابي آله القانون في الموسيقى، وأقام فترة في بلاد سيف الدولة.

٣- جماعة إخوان الصفا:

وهم جماعة سرية ذو نزعة شيعية، وكانوا موضع عطف بني بويه في بغـداد، واستطاعت هذه الجماعة أن تتم ما بدأه المعتزلة.

٤- ابن سينا (ت- ٤٢٩هـ):

وقد ذاع صيته في العصور الوسطى في الشرق والغرب في الفلسفة والطب، اشتغل بكثير من الوظائف الإدارية في الدولة السامانية في بخاري.

٥- ابن ماجة:

وهو فيلسوف أندلسي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري في عصر دولة المرابطين.

٦- ابن طفيل:

عـاش في عـصر دولـة الموحـدين في النـصف الثـاني مـن القـرن الـسادس الهجري، ودرس علوم عصره من طبيعة ورياضية وأدبية، وكان طبيعيا حاذقـا، أشهر كتبه: حي بن يقظان.

د - علم الكيمياء:

ابتكر العرب في الكيمياء بعض التجارب القائمة على الملاحظـة والمـشاهدة والتجربة، وكان خالد بن يزيد بن معاويـة (ت- ٩٠هــ) أول مـن عنـي بنقـل علوم الكيمياء إلى العربية، فدعا جماعة من اليونانية المقيمين بمصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية المنقولة إلى القبطية، والتي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، بغية الحصول على الذهب عن طريق الكيميـاء. إلا أن هذا لم يكن الدافع الوحيد لتقـدم هـذا العلـم، لأن العنايـة بالطـب وترجمـة الكتب الطبية المختلفة دعت إلى العناية بتحضير الأدوية أو تجهيزهـا، فنـشطت بذلك صناعة الكيمياء والصيدلة معا.

وقد كان أهم مؤسس لعلم الكيمياء: جابر بن حيان (ت- ٢٠٠هـ) بمدينة الكوفة في القرن الثامن الميلادي. واتضح من الكتب التي ألفها بنفسه أنـه أدرك قيمة التجارب في الكيمياء العملية، وأنه وصف كلا مـن التكلـيس والتحويـل وصفا علميا. كما أدخل تحسينات جديدة على الطرق القديمة للتبخير والتصعيد والإذابة، والبلورة.

وكذلك عرف تركيب حامض الكبريتيك، وحامض النيتريك ليخرج منهـا الماء الملكي. الذي يمكن أن يذاب فيه الـذهب والفـضة وكـذلك اكتـشف مـاء الذهب، وهيدروكسيد الصودا وكلوريد الزئبق وغير ذلك.

وقد ظلت طريقة جابر قائمة مع شيء من التعديل حتى أوائل عهد الكيمياء الحديثة في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي. وحذا جابر حذو مـن سـبقوه من الكيميائيين المصريين واليونانيين القـدماء في افـتراض أن المعـادن الخسيـسة يمكن تحويلها إلى ذهب وفضة.

وكان من أهم مميزات الكيمياء الإسـلامية اعتمادهـا عـلى الـدليل العمـلي،

فـأكثر مؤلفـاتهم تفـيض بالوصـف الـدقيق للتجـارب وطريقـة إجرائهـا، والاحتياطات التي يجب اتخاذها أثناء القيام بعملهـا ومـا ينـتج عـن ذلـك مـن نتائج.

ولا شك أن اهتمام علماء المسلمين بالناحية العملية التجريبيـة كـان خطـوة واسعة في تقدم علماء الكيمياء.. وقد أفاد علماء المسلمين من تطبيق الكيمياء على الحياة العملية، فاستعانوا بها في تحضير الأملاح والأدويـة والعقـاقير والـروائح العطرية وغيرها. وبذلك ظهر علـماء العـرب عـلى اليونـانيين القـدامى الـذين يعتبرون أنفسهم مبتدعي علم الكيمياء.

هـ - علم الطب:

عرف عرب ما قبل الإسلام كثيرا مـن أمـور الـصحة والتطبيـب الطبيعـي لحاجتهم إلى ذلك، واشتهر أمر كثير من أطبائهم، كالحـارث بـن كلـدة، وكـان بعضهم حتى في عصر الرسول (عليه السلام)، يذهب إلى مدرسـة جنديـسابور الطبية ومستشفاها لدراسة الطب فيها، وروى عن الرسول (عليه السلام) نفسه

ما يبلغ الـ ٣٠٠ حديث عرفت بالطب النبـوي تحتـوي في مجملهـا عـلى قواعـد لحفظ الصحة والاستحمام والشراب والمأكل والزواج والأمراض.

وقد عرف الطب في بداية عهد الإسلام عنـدما كانـت المـرأة تقـوم بـأعمال السقاية، وإغاثة الجرحى ومداواة المرضى منذ عهد الرسول (عليه الـسلام) كـما تولت النساء دفن الشهداء وعندما كان الرسول (عليه السلام) في غزوة الخندق كان لرفيدة الأسلمية خيمة في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تـداوي بها الجرحى، فلما جرح سعد بن معاذ، قال الرسول (عليه السلام): «اجعلـوه في خيمة رفيدة» وفي غزوة حنين خرجت النساء للقيـام بعمليـة التمـريض أيـضا. وكانت من الأعمال التي قامت بها النساء عنـد خـروجهن مـع الرسـول (عليـه السلام) مداواة الجرحى وكانت النساء ترافق المقاتلة في العهد الراشـدي، ففـي معركة اليرموك قمن بمداواة الجرحى وكذلك فعلن بالقادسية، ويذكر أن عمـر بن الخطاب قد بعث الأطبة مع سـعد إلى القادسـية ويستـشف مـن هـذا تهيئـة وسائل الإسعاف والعلاج من خيم وأدوية وغير ذلك. غير أن طرق الإسـعاف كانت يسيرة بعض الشيء فكان يتم نقل المصابين من أرض المعركـة عـلى ظهـر

الدواب، كما حصل في أحد.

وكانت وسائل العلاج يسيرة، فعندما جرح الرسول (عليه الصلاة والسلام) في غزوة أحد، جاءت فاطمة رضي الله عنها بقطعة حصير مصنوع من سعف النخل، ودقتها وأخذت شرابها، ووضعته على الجرح فتماسك وجف. وذكر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) استعمل الكي في علاج سعد بن معاذ حين قطع أكحله في الخندق.

وكان الزيت المغلي يستعمل في علاج الأطراف المبتورة مثلما ما حصل مع أم عمارة عندما قطعت يدها وعالجها الطبيب بأمر خالد بن الوليد بالزيت المغلي، وقد اتبعت طرق للوقاية من بعض الأوبئة التي كانت تحل. فعندما هجم طاعون عمواس عام ١٨هـ. وأودى بحياة خمسة وعشرين ألفا أصدرت الخلافة أمر الجابية فرفع الوباء عن الناس. وحرص المسلمين على صحة المقاتل، وحيويته في المعركة، فقد أبيح الإفطار لمن يقاتل، فهذا الرسول (عليه الصلاة والسلام) ينادي بمن لمن يفطر من المسلمين في بدر: «يا معشر الغزاة إني مفطر

فافطروا»، وكذا حدث في غزوة الفتح.

أما في العهد الأموي صار يرافق الجند أطباء لمعالجة الجرحى والمرضى، فعندما وجه يزيد، مسلم بن عقبة المري لقتال أهل المدينة في عام ٦٣هـ اصطحب مسلم معه طبيبا واتخذ ابن الزبير فسطاطا لعلاج الجرحى من أصحابه أثناء قتاله مع الحصين بن نمير السكوني في عام ٦٣هـ جراح التوابين واتخذت محامل خاصة للأدوية والأدوات والجرحى، وكان الحجاج أول من اتخذ المحامل. ومن بين العلاجات المستعملة للجروح: القرطاس المحروق والذي يستخدم لقطع الدم المنبعث من الجراح الطرية الصعبة للغاية كما أن الطرية كانت تضمد بلحاء العيد.

وقد عالج الأطباء الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجراح- أي تضميده واستعمل الزيت الطيب والملح المسحوق ناعما لعلاج حروق النار.

وقد اعتمد العرب في العصرين الأموي والعباسي على أطباء غير عرب، وكان أكثر أطبائهم من النصارى، الذين بقوا على دينهم، ولاقوا من احترام

الخلفاء والشعب ما دفع الكثير منهم إلى هجر بلاده والوفود إلى البلاد العربيـة، وأسهم هؤلاء الأطباء بأكبر نصيب في حركة النقل، فوضعوا في أيدي تلاميذهم العـرب خلاصـة الأبحـاث الطبيـة اليونانيـة والـسريانية والهنديـة، وأنـشأوا المستشفيات التي تمرن بها طلاب الطب العرب.

لقد كان خالد بن يزيد ممن عنوا بنقل الطب إلى العربية كما فعل في الكيمياء؛ فقد طلب إلى جماعة من اليونانيين من مدرسة الإسكندرية أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية والقبطية وخاصة كتب جالينوس. فوضع بذلك أساس التعاليم الطبية العربية. وقد عنى المسلمون بنشر الثقافة الطبية وأسسوا المعاهد العلميـة لتخريج الأطباء. وكان هناك نوعـان مـن الكليـات الطبيـة همـا البيمارسـتانات (المستشفيات) ثم المدارس النظرية. وكان العصر العباسي عصر النهضة العلمية الطبية، فقد رأينا أبا جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) ليستـشير أطبـاء العـرب ويعتمد على إرشاداتهم. واشتهر في عهد المعتصم من الأطباء يحيي بن موسـويه الذي كان الخليفة يعتمد على مشورته.

كـما نبـغ في عهـد العباسـين مـن الأطبـاء: ابـن بختيـشوع وكـان الخلفـاء العباسيون يثقون به في معالجة نسائهم وأولادهم، ومن مؤلفاته في الطب كتاب: «المسائل في الطب للمتعلمـين»، وكتـاب «عـلاج العـين»، وكتـاب «الأسـنان واللثة» وكتاب «أوجاع المعدة وعلاجها»، وكتـاب «المولـودين لثمانيـة أشـهر»، وكتاب «الأغذية»، وكتاب «اللبن».

وممن نبغ في الطب أيضا حنين بن إسحاق (ت- ٢٦٠هـ) فكان أمام زمانـه في هذه الصنعة. ويعتبر أبو بكر الرازي (ت- ٣١١هـ) أشـهر أطبـاء عـصره، وألف في الطب كتبا كثيرة، ومن أشهر كتبه كتاب: «الحاوي في علـم التـداوي» في ثلاثين مجلدا، وكتابه: «الجامع»، وكتاب «الأعصاب».

وفي تلك الفترة كان للأطباء في كل مدينة كبيرة نظام، وعلـيهم رئـيس هـو الذي يمنحهم ويجيز من يرى فيه الكفاية للتطبيب، وأشهرهم سنان بـن ثابـت رئيس أطباء بغداد، ويقال مثل ذلك في الصيادلة، وتخصص الأطبـاء في الـشرق والأندلس، فكان هناك الجراح والفاصد، والكحال والأسناني وطبيب أمراض

النساء وطبيب المجانين، كما انفرد بعض الأطباء لتطبيب جماعات معينة، فللخلفاء وعائلاتهم أطباء، وللوزراء مثل ذلك، وللجيش أطباء متخصصون يرافقونهم في حلهم وترحالهم. ولم تقتصر مهنة الطب على الرجال، بل اشتهر عدد من النساء الطبيبات كأخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها، وزينب الشامية طبيبة نساء خلفاء بني أمية وغيرهما. ومن أشهر الأطباء المسلمين:

١- أبو بكر الرازي (٨٥٠- ٩٣٧م).

٢- ابن سينا (٩٨٠- ١٠٣٧م).

٣- ابن زهر (١٠٩٤ – ١١٦٢ م).

٤- ابن النفيس.

٥- الزهري.

وفي أشهر المستشفيات وأنواعها منها :

١- مستشفيات الجذام:

لعزل المصابين بهذا المرض، فكان أول من نشأ مستشفى من هذا النوع الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـ) في حين أن أول مستشفى للجذام بني في أوروبا في القرن الثاني عشر، نقله إليها الصليبيون عن سوريا.

٢- مستشفيات المجانين:

أقيمت منذ العصر الأموي في سوريا، حيث أفردت حجرة خاصة في المستشفيات العام لمداواتهم.

٣- المستشفيات العسكرية:

وهي مستشفيات خاصة متنقلة، تحمل أدواتها على الجمال والبغال، ويرافق المستشفى ممرضات يتخصصن بتمريض جرحى الحرب.

٤- مستشفيات السجون:

وقد أوجدت في بغداد في العصر العباسي الأول.

٥- مأوى العجزة والعميان والأيتام:

وقد وجدت منذ عصر الوليد بن عبد الملك، وزادت في العصر العباسي.

٦- المستشفيات المتنقلة:

وقد وجدت في العصر العباسي وتنتقل في الريف والقرى البعيدة عن المدن التي ليس فيها أطباء، وكان يكثر انتشار وعمل مثل هذه المستشفيات عند انتشار بعض الأوبئة.

٧- محطات الإسعاف:

وكانت تقام بالقرب من الجوامع، وفي أوقات الصلاة، وقد أفرد ابن طولون في مسجده مكانا خاصا لإسعاف المصلين عليه أطباء متناوبون ليلا ونهارا.

٨- المستشفيات العامة:

وكانت تقام في المدن الكبرى، ويتبارى الخلفاء والأمراء والأغنياء في إنشائها والتبرع لها ووقف الأوقاف الواسعة عليها. وكانت بهذه المستشفيات جميعا صيدليات مجهزة بالأدوية، تقدم الدواء والغذاء بل والكساء أحيانا، مجانا دون تفريق في اللون أو الجنس أو الدين بين القادمين عليها، وكثيرا ما كانت إدارة المستشفى تدفع للمصابين الفقراء مالا يساعدهم على كسب قوتهم بعد الشفاء.

٩- الرياضيات:

لم يكن للرياضيات وغيرها من العلوم مكان ملحوظ من بين العلوم التي اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الأول. ولكنها ازدهرت بعد ذلك لأن همتهم كانت مقصورة في الغالب على نقل الكتب.

كما أنهم تركوا أمر الجباية والدواوين للموالي والذميين ولكن ما كاد عبد الملك بن مروان يعرب الدواوين ويستعمل العرب فيها، حتى انكب كثير منهم

على تعلم الكتابة الرسمية والحساب واندفعوا وراء ذلك. وما لبثوا أن مهروا في العلوم كما مهروا في غيرها ولعل علماؤهم فاقوا في هذا المضمار جميع علماء الفروع الأخرى.

فقد وصلت الأرقام العددية والحساب من الهند في أيام الخليفة العباسي المنصور مع كتاب «السند هند». وبذلك دخل علم الحساب الهندي بنظامه وأرقامه المعروفة في العربية بالأرقام الهندية». على أن هذا لا يمنعنا من القول أنه كانت هناك طائفة من علماء المسلمين أخذت تشتغل بهذه العلوم الرياضية، وقد اهتدى علماؤها إلى تقسيم الكسور واستخراج الجذور التكعيبية والتربيعية.

وممن اشتهروا في هذا المجال:

١- ثابت بن قرة الحراني (ت - ٢٨٨ هـ)، ومن أشهر مؤلفاته كتاب: (حساب الأهلة)، وكتاب (الأعداد)، وكتاب (شكل القطاع)، وكتاب (استخراج المسائل الهندسية).

٢- أبو الوفا محمد بن العباسي (ت - ٣٨٨ هـ)، ومن مؤلفاته كتاب (ما

يحتاج إليه العمال والكتاب من صناعة الحساب) والكتاب يقع في سبعة أقسام كل قسم منه في سبعة أبواب شملت جميع أنواع الرياضيات.

٣- محمد بن موسى الخوارزمي، وهو مؤلف أقدم كتاب عربي في الحساب والجبر. ومن مؤلفاته: (كتاب استخراج ضلع المكعب)، وكتاب (معرفة الدائرة من الفلك)، ومن أشهر مؤلفاته كذلك: (الجبر والمقابلة) الذي انتقل إلى الجامعات الأوروبية بعد ترجمته إلى اللاتينية. وعن طريق مؤلفات الخوارزمي انتقلت العلوم العربية إلى أوروبا.

علم الفلك والنجوم:

عني العرب قبل الإسلام بعلم النجوم، حيث اهتدوا بحركات النجوم في ظلمات البحر والبر. وتنبأوا بها إلى موعد سقوط الأمطار. كما أنهم مهروا في علم الأنواء وتعرف أوقات نزول الغيث.

ويبدو أن اشتغال المسلمين بالفلك كان بعد اطلاعهم على ترجمة كتاب: «السندهند» الذي جلبه عالم هندي إلى بلاط الخليفة المنصور العباسي حيث

أصبح هذا الكتاب مرجع الباحثين في الفلك بعد ترجمته على يد محمد بن إبراهيم الفزاري (ت- ١٨٠هـ) الذي يرجع إليه الفضل في استخدام الاصطرلاب في رصد الكواكب والأجرام السماوية. ثم وصلت التقاويم الفهلوية (الفارسية) إلى المسلمين مترجمة إلى العربية في عصر الدولة السامانية المتفرعة من الدولة العباسية.

ولقد تأثر المسلمون بالفلك اليوناني بعد ترجمة كتاب بطليموس في القرن التاسع الميلادي. وكان لعلم التنجيم أثر كبير في توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعتمدون عليه في تنفيذ سياستهم فلقد اعتمد أبو جعفر المنصور على النجوم في تأسيس مدينة بغداد وترد الإشارة إلى أن مدينة القاهرة التي بناها جوهر الصقلي إنما سميت بهذا الاسم لأن أساسها وضع عند طلوع كوكب المريخ الذي سمي بالقاهرة. وكذلك اهتم الخليفة الحاكم الفاطمي بعلم النجوم إذ أنه أنشأ مرصدا بسفح جبل المقطم في مصر أطلق عليه (المرصد الحاكمي). كما أنشأ المأمون دارا للرصد في بغداد لدراسة حركات الأجرام السماوية. واستطاع المسلمون بذلك أن يحلوا بعض المسائل الفلكية كتقدير

الدرجة العرضية بمسافة طولها ٥٦٠ ميلا وأمكنهم بذلك معرفة محيط الكرة الأرضية ونصف قطرها. وقد تعددت المراصد الفلكية في الدولة العباسية. والدليل على ذلك أن أبا عبد الله البتاني قد صحح في مرصد مدينة الرقة حساب مدارات القمر وغيره من الكواكب، وحدد طول السنة المدارية والفصول ومدار الشمس الحقيقي والظاهري.

وكان البلخي ممن نبغ في علم النجوم، وكان له تصانيف كثيرة فيه كما اشتهر بذلك أبو الريحان البيروني (ت- ٤٤٠هـ) الذي ألف كتابا في الفلك لمولاه السلطان مسعود بن محمد الغزنوي هو كتاب «القانون المسعودي في الهيئة والنجوم» وكذلك ألف كتاب: «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، وهو عبارة عن دراسة في تقاويم الشعوب القديمة. كما اهتم ببحث نظرية دوران الأرض حول محورها، وكذلك عمل بحثا دقيقا لتحديد خطوط الطول والعرض.

أما عمر الخيام فإلى جانب كونه شاعرا عظيما فقد كان فلكيا رياضيا من الطراز الأول، عهد إليه السلطان جلال ملكشاه السلجوقي في إصلاح التقويم

الفارسي القديم في مرصده بمدينة الري في القرن الخامس الهجـري. وأسـفرت بحوث الخيام وأعوانه عن إخـراج تقـويم سـماه: (التقـويم الجـلالي) نـسبة إلى السلطان جلال الدين، وهو يفوق في وقته التقويم الجريجوري (الروماني).



الفصل الثالث

المؤسسات والمعاهد العلمية

عرف العرب الكتابة في العهد الجاهلي، ولكن لا يمكننا التأكيد على وجود المدارس، وإنما كان هناك من يعلم ومن يتعلم القراءة والكتابة والحساب بطريقة مبسطة. على أنه عندما جاء الإسلام لم يكن عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة كبيرا. ولكن الإسلام حض بقوة على العلم، فهناك كثير من الآيات والأحاديث تحث على العلم، وتبين قيمته كقوله تعالى: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (الزمر: ٩) وقوله عليه الصلاة والسلام: «اطلبوا العلم ولو بالصين»، وقوله عليه السلام: «ولا خير فيمن كان من أمتي ليس بعالم ولا متعلم».

وبتأثير ذلك اندفع المسلمون بحماسة منقطعة النظير إلى طلب العلم، ورغم أن الطريق لذلك لم تكن ممهدة، ورغم أن الصعوبات كانت كبيرة فقد استطاع المسلمون أن يذللوا كل العقبات. ثم ازداد عدد المتعلمين من العرب والمسلمين حتى أصبحت هناك مؤسسات خاصة للتعليم، وكان منها:

١- المسجد:

كان التعليم في الغالب ما يتم في المسجد وخاصة في صدر الإسلام إذ كانت تعقد فيه حلقات التدريس، وكان العلماء والفقهاء والأدباء يجلسون في المساجد الكبرى أيام الأمويين والعباسيين، ومن حولهم تلاميذهم المعجبون بهم، ولم تكن حلقاتهم للوعظ الديني، بل كانت أشبه بالمدارس أو المحاضرات. ومن أهم هذه المساجد للعلم «الأزهر» وجامع «الزيتونة» في تونس.

٢- الكتاتيب:

عني العرب منذ الجاهلية وصدر الإسلام بأطفالهم عناية خاصة فأبناء الخواص منهم يلقون عناية شديدة لتثقيفهم روحيا وتربيتهم جسديا، كما أن أبناء العوام لم يكن أمرهم مهملا، والتعليم في الكتاتيب كان أقدم من التعليم الذي جاء به الإسلام بحيث أن الطفل الجاهلي كان يتلقى مبادئ القراءة والكتابة، ولكن هذا كان على نطاق ضيق جدا. ولكن عندما ظهر الإسلام وشجع على طلب العلم كثر عدد هذه الكتاتيب ولا شك أن هذه المواقع كانت

كالمدارس الأولية يتعلمون فيها القراءة وأصول الكتابة العربية واستظهار القرآن.

ولما سارت جيوش العرب والمسلمين في فتوحاتهم الواسعة خارج الجزيرة العربية برزت الكتاتيب القرآنية بصورة واضحة وتعددت في جميع الأرجاء التي حلوا فيها، وقد لعب أهل الحجاز والشام والعراق ومصر دورا كبيرا في إيجاد هذه الكتاتيب حينما انتقلوا إلى الديار المفتوحة ليعلموا أولادهم القرآن.

ولما استقل بنو أمية بأمر المسلمين، ازدادت عنايتهم بالثقافة زيادة واضحة لتوسيع رقعة الملك وحاجة الدولة إلى المتعلمين، لذلك زاد عدد الكتاتيب. أما في العصر العباسي فقد انتظم أمر هذه الكتاتيب بصورة فنية فائقة لعناية الناس بأمر أولادهم من جهة، ولاهتمام الدولة بالتعليم من جهة أخرى.

ولقد كان معلمو الكتاتيب منذ العصر الأموي مقسمين إلى قسمين:

أولهما: معلمو الكتاتيب العامة الذين كانوا يهتمون بتعليم أبناء الطبقة المتوسطة وسواد الشعب.

وثانيهما: معلمو أبناء الطبقة العليا والأمراء والأثرياء.

٣- المجالس الخاصة والعامة:

ولقد كانت تعقد في قصور الخلفاء والأمراء وبعض العظماء والوجوه للتعليم والمناظرة، وقد تجلى ذلك في عهد المأمون. أما المجالس العامة فأمرها في التعليم أشهر من أن يذكر، وقد كان هذا الأمر معروفا في الجاهلية، وأخبار أسواق عكاظ والطائف وغيرها منشورة في كتب الأدب والتاريخ. وقد لعبت هذه الأسواق في الجاهلية وصدر الإسلام، بل وفي العصر الأموي، دورا هاما في نشر العلم وحفظ التراث الفكري والعقلي والأدبي في الجاهلية والإسلام.

٤- المكتبات ومعاهد البحث:

لقد أسست عدة مكتبات عامة وخاصة في العهد العباسي قام بعضها مقام معاهد الدراسة والبحث والمناظرة قبل تأسيس المدارس النظامية. فقد كانت المكتبات عبارة عن مخطوطات نادرة غالية الثمن، ولذلك نرى الراغبين في تعليم الناس يقومون عند القدرة بأسباب المعيشة والتي لم تقتصر على أن تكون

دورا للكتب يمكن فيها المطالعة والاستنتاج والاستعارة منها فحسب، بل انها قامت في العصر العباسي الأول بمهمة المعاهد العلمية.

ولقد كانت المكتبات الكبيرة لا تخلو من فهرس يرجع إليه، وهذه الفهارس كانت متقنة التنظيم تشمل الكتب الموجودة في المكتبة مرتبة على حسب موضوعاتها وكان فيها موظفون يشرفون عليها منهم: الخازن، والوكيل، والنادلون، والناسخ، والمترجمون، والمجلدون، كما أنها كانت تقوم بإعادة الكتب، ومن أشهر المكتبات العامة:

١- **بيت الحكمة:** التي يرجع تأسيسها إلى هارون الرشيد.

٢- **دار العلم أو دار الحكمة:** في القاهرة التي أسسها الحاكم بأمر الله الفاطمي (ت- ٣٩٥هـ) وجلس فيها القراء والمنجمون والنجاة وأصحاب الفقه والأطباء.

٥- المدارس الكبرى:

وكان يقصد بالمدارس تلك الأماكن التي بنيت خاصة لنشر نوع من أنواع المعرفة التي تنفق عليها الأموال وتوقف لها الأوقاف ويراقب فيها التعليم ويعين فيها المعلمون، وهناك اختلاف في تاريخ نشأة هذه المدارس فمنهم من يرجح أن أول من أنشأها في الإسلام نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. وهناك من يذكر أن المدرسة البيهقية قد أسست بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، وأن المدرسة السعدية أسست في البلدة نفسها على يد الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الغرنوي، قبل تأسيس مدارس نظام الملك، ويبدو أن السبب في نسبة تأسيس المدارس إلى نظام الملك هو ما اشتهر به بعد كثرة المدارس التي أسسها ودام كثير منها مدة طويلة، وكذلك الخدمة الكبيرة التي أدتها هذه المدارس إلى الدولة.

ولقد بنى نظام الملك المدارس في بغداد والبصرة والموصل ومرو ونيسابور، وكان أشهرها المدرسة النظامية في بغداد، وكانت هذه المدارس أشبه

بالجامعات.

ولقد كانت بكل مدرسة مكتبة يؤمها الأساتذة والطلاب الراغبون في البحث، ومن هذه المدارس المدرسة النظامية في بغداد، أنشأها نظام الملك السلجوقي، وكذلك المدارس المستنصرية التي حوت أربع كليات تقوم كل منها بتدريس إحدى المدارس الفقهية الأربع.





الفصل الرابع

نظام الحكم ونظام الإدارة

أ- الخلافة:

والخلافة لغة مصدر خلفه، أي بقي بعده، وقد سمي من يخلف النبي عليه الصلاة والسلام خليفة. وفي الاصطلاح نوع من الحكم اختصت به الدولة العربية الإسلامية، وتعني الرئاسة لأمور المسلمين الدينية والدنيوية، فكان الخليفة هو الحاكم الأول في شؤون السياسة والإدارة والحرب، كما كان إمام المسلمين ورئيسهم، ولكن لم يكن له مطلق التصرف في هذه الشؤون بل كان مقيدا بأحكام الدين وحدوده.

وللخلافة شروط يجب توفرها في الخليفة منها: الحرية، والذكورة، والبلوغ، وسلامة العقل، وسلامة الحواس والأعضاء. كما أن هناك شروطا كمالية منها: العلم والعدالة والكفاية.

وفي العهد الراشـدي غلبـت الـشورى إلا أن الخلافـة أصـبحت مـن ذوي أقربائهم.

وأهم مظاهر الخلافة:

١- البردة:

وهي بردة النبي (عليه الصلاة والسلام) التي خلعها على الشاعر كعب بـن زهير، لما رجع إلى النبي (عليه الصلاة والسلام) تائبا مستغفرا.

٢- الخاتم:

وقد اتخذه الخلفاء تشبها بالنبي (صلى الله عليه وسلم) لما أراد أن يكتـب إلى قيصر وكسرى يدعوهما إلى الإسلام.

٣- القضيب:

وهو عود كان يأخذه النبي (صلى الله عليه وسلم) بيده، توارثـه الخلفـاء أو قلدوه في حمله.

٤- الخطبة:

وهي الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة، وأصلها أن الخلفاء كانوا يتولون إمامة الصلاة بأنفسهم، فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبي (عليه السلام) والرضا على الصحابة، فلما فتحوا البلاد وبعثوا إليها العمال، صار الولاة يتولون إمامة الصلاة في ولايتهم.

٥- السكة:

وهي أن يضرب اسم الخليفة على النقود المتداولة بين الناس.

٦- الطراز (الملابس والثياب والرايات):

في زمن الخلفاء الراشدين كانت ثياب الخلفاء لا تتميز عن ملابس أقل رعاياهم شأنا. أما معاوية فقد لبس الحلل الفاخرة، مقلدا بها ملوك الأعاجم، وصار الخلفاء من بعده يبالغون في اقتناء أغلى الثياب وأنفسها.

أما الراية وألوانها، فلم يكن فيما نعلم لكل خليفة راية مخصوصة. وإنما كان

لكل أسرة لون معين، فالأمويون اتخذوا البياض شعارا، فيما اتخذ العباسيون السواد لذلك، وكان العلويون يتخذون الخضرة شعارا. وأما العثمانيون فقد اتخذوا اللون الأحمر لهذا الغرض.

آثار الحضارة العربية الإسلامية في الغرب ويقظة الوعي الذاتي الأوروبي:

لم يقتصر دور المسلمين على نقل الآثار الفكرية الإغريقية والفارسية والهندية والسريانية وغيرها إلى العربية حيث حفظوها من الضياع، فانتقلت إلى أوروبا سالمة واعتمدت عليها في يقظتها، بل إن المسلمين درسوا هذه الآثار الفكرية ونقدوها وأتموا نواقصها، وصححوا أخطاءها، وأضافوا إليها الكثير من الحقائق التي وصلوا إليها بتجاربهم، ولقد ترجم الأوروبيون كتب العرب والمسلمين الطبية والفلسفية، وقلدوهم في الصناعة، واقتبسوا منهم أنظمة إدارية واجتماعية، وقلدوهم في فن البناء والزخرفة واتبعوا منهجهم في كل مناحي الفكر، فكان دور الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الأوروبية في كل فنون الحياة وعلومها.

١- في المجال العلمي:

بدأ إطلاع أوروبا على الإنتاج العلمي للعرب والمسلمين بالترميات اللاتينية التي اعتمدت عليها الجامعات الناشئة خلال عدة قرون فترجمت موسوعات الطب العربي الإسلامي، وأصبحت مصدرا للطب الأوروبي حتى مطلع العصور الحديثة. وأهمها كتاب القانون لابن سينا، والحاوي للرازي. وقد ورد في وثائق جامعة لوفان في بلجيكا أن هذين الكتابين كانا المرجع الرئيسي لأساتذة هذه الجامعة الطبية حتى أوائل القرن السابع عشر. كما ترجم كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) لأبي القاسم الزهراوي (ت- ٤٢٧هـ) إلى اللاتينية في القرن الخامس عشر.

واقترنت بحوث العرب والمسلمين في الطب ببحوثهم في الكيمياء، فأفاد الأوربيون منهم كثيرا في هذا العلم المستحدث. وربما كانت فائدتهم من دروس العرب والمسلمين في الكيمياء أعظم مما أفادوهم من دروسهم الطبية، فالقلويات معروفة في مصطلحات الكيمياء الحديثة باسمها العربي، وماء

الحوامض وهو من أهم الحوامض المستخدمة في التجارب الكيمياوية لم يظهر وصفه في كتاب قبل جابر بن حيان. وهو صاحب الفضل فيما عرفه الأوربيون عن بلح التشاور وماء الذهب والبوتاس وزيت الزاج، وبعض السموم. وقد ترجم له كتاب «السبعين» وكتاب «تركيب الكيمياء» إلى اللغة اللاتينية في أوائل القرن الثاني عشر، وظلت كتبه متداولة في هذا العلم بين الأوربيين إلى أواخر القرن السابع عشر.

وكما نقلت كتب الرازي كذلك نقلت كتب جابر بن حيان. ومنها تلقى الأوربيون تقسيم المواد الكيماوية إلى نباتية وحيوانية ومعدنية، وكان تقسيم العرب للمواد المعدنية أدق تقسيم عرف في العصور الوسطى. ولعل التاريخ الأوروبي لم يتأثر بشيء من كشوف العرب والمسلمين في المعدنيات كما تأثر بكشف البارود واستخدمه في قذائف الحصار وأسلحة القتال. وتقديرا وإكراما للرازي فقد أطلقت جامعة برنستون الأمريكية اسمه على إحدى أجنحتها.

ولم يكن العرب والمسلمون في مجال الفيزياء وعلم البصريات بأقل أثرا في

الحضارة الأوروبية الحديثة، فقد قلب ابن الهيثم الأوضاع القديمة ووضع علم البصريات على أسس حديثة فهو يعد المؤسس الأول لعلم الضوء الحديث.

وفي الطبيعيات أخرج العرب والمسلمون الثقل النوعي لكثير من العناصر والجواهر النفيسة، ونقلوا رأي الإغريق في الجاذبية وتعليل الثقل النوعي. وقد مهدت هذه الأبحاث سبيل نيوتن إلى كشف قانون الجاذبية وتعليل الثقل على الأساس العلمي الحديث، وعن العرب أخذ الغرب أيضا طريقة تحضير الأدوية فغمر البلاد الغربية دفق من العقاقير العربية عن طريق البندقية وصقلية، وتدفقت معها كذلك كتب كثيرة في علم الأدوية وصلت حتى بلاد الراين فقلدها المقلدون وأفادوا منها.

٢- في مجال العلوم الإنسانية:

لقد تعدت أبحاث العرب والمسلمين مجال العلوم العلمية إلى البحث في أهمية الكون وفي تحليل النفس والعلاقات الاجتماعية واستنباط قوانين الطبيعة ونقلوا إلى أوروبا خلاصة الفكر الإنساني، كما أمدوه بدفق من معين الفكر

العربي الإسلامي، الأمر الذي جعل الحضارة العربية الإسلامية مركز الـصدارة في العالم فقد كان وجودهم نعمة للبشرية ولولاهم لتأخرت حضارة أوروبا عدة قرون

من الفلاسفة والباحثين في هذا المجال:

الفارابي وابن سينا وابن رشد وأبو حامد الغزالي.

٣- في مجال الآداب والفنون والحياة المعيشية:

لقد أقترن الأدب العربي بأسماء طائفة من عباقرة الشعر في أوروبا بأسرها خلال القرن الرابع عشر فما بعد، وثبتت الصلة بينهم وبين الثقافة العربية. ومن هؤلاء: بوكاشيو، دوانتي، وبترارك الإيطاليين، وشوسر الإنجليزي، وسرفانتس الأسباني، وإليهم يرجع الأمر البارز في تجديد الآداب القديمة في تلك البلاد.

ولقد تم تداول الشعر والبلاغة والعلم عن غير طريق رجال الدين.

ولقد كانت الصلة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية الحديثة لم تنقطع منذ القرن السابع عشر وحتى اليوم، ويكفي لإجمال الأثر الذي أبقاه الأدب العربي في آداب الأوروبيين أننا لا نجد أديبا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم خلا شعره أو نثره من بطل عربي، أو نادرة عربية، ومنهم شكسبير وأديسون وبايرون وشيلي من الإنجليز، وغوته وليسينغ وهاينة من الألمان، وفولتير ومونشيكو وروسو من الفرنسيين، وقد صرح لافونتين باقتدائه في أساطيره على لسان الحيوانات بكتاب كليلة ودمنة الذي عرفه الأوروبيون عن طريق العرب.

وقد تأثرت القصة الأوروبية في نشأتها بما كان عند العرب والمسلمين من فنون القصص في القرون الوسطى.

أما في جمال الرسم والنحت وصنع التماثيل فلقد اقتبس العرب فن البناء العربي ما وسعهم ذلك متفرقا في القصور والقلاع، فقد شاع في انجلترا في عهد الملكة إليزابيث وما بعده النقوش البارزة التي أطلقوا عليها اسم النقوش العربية (أرابيسك)، وبنوا قلاعهم بعد الحروب الصليبية على طراز يقارب

الطراز العربي في مضاعفة الجدران وإقامة البروج بينها وتخطيط الحصون، وإقامة الأبواب ذات الزوايا القائمة التي تحول دون استخدام الباب عند الوصول إليه.ولم يكن لبناء الكنائس في أوروبا عهد بها قبل الحروب الصليبية.

ولمصنوعات العرب والمسلمين أثر كبير أيضا بين الأوروبيين بحيث كانوا يقلدونهم دون أن يفهموا معناها. ومنها ما كان حروفا مكتوبة ينقلها الصياغ. وهم لا يدركون قراءتها لأنهم حرصوا على محاكاة الزخارف والمزركشات العربية كما رأوها على الأقمشة والمعادن والأخشاب المرصعة أو المنقوشة.

أما في مجال الموسيقى فهناك فرق شاسع في السلم المعتمد عند العرب وعند الأوربيين إلا أن الموسيقى العربي يعتز بما يسميه ربع المقام ويحسبه فرقا جوهريا بين أنغام الشرقيين وأنغام الغربيين، وقد اعتمد بعض الموسيقيين الغربيين أمثال هانس بارت ورمس كورساكوف في بعض أعمالهم على دراسة: ربع المقام هذا عدا الموسيقيين الذين أدخلوا الأنغام العربية في تقسيماتهم المسرحية وغير المسرحية، وإذا أضفنا إلى كل ذلك تدفق البضائع وبعض الصناعات من الشرق

إلى الغرب كصناعة الورق والصناعات العطرية والحريرية التي تركت أسماءها في الحضارة الأوروبية حتى اليوم. أدركنا مكانة العرب والمسلمين الحضارية، وما لهم من فضل ليس فقط على الحضارة الأوروبية بل على الحضارة العالمية.

٤- دور العرب في تكوين المعارف العلمية في أوروبا:

ومن أهم هذه المعارف:

١- **صناعة الصابون**، وكانوا يعملون منه صنفين، صنفا من الصودا، وصنفا آخر أبيض اللون من البوتاس.

٢- **السكر المصنوع من القصب** نقلوه إلى أوروبا.

٣- **تم إدخال الورق إلى أوروبا عن طريق العرب**، وازدهرت صناعته خصوصا في خراسان في عهد هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٨هـ) الذي أمر بكتابة المصاحف على هذا الورق بدلا من الورق.

٤- **الصناعات الكيميائية المختلفة**، في كثير من الصناعات القائمة على

الكيمياء مثل: استخراج الذهب بطريق الغسل، وقطروا الزئبق من الزنجبيـل، واستخلصوا العطـور بتقطـير الـورد، ووضـعوا أنـواع الحـبر المختلفـة: الحـبر العادي، والحبر السري، والحبر الذهبي، وأنتجوا مختلـف الألـوان والأصـباغ، ومهر العرب أيضا في صناعة الأحجار الكريمة المزيفة واللآلئ الصناعية.

الشطرنج وأصله من الهند ثم عرفته فارس وكذلك لعبة البولو التي كانـت الأصل في لعبة كرة القدم، وألعاب العيد، وقد مهر فيها العرب خاصة في العيد.

٥ – التأثير الفكري العربي في الفكر الأوروبي:

كان أبرز دور للعرب في تكوين الفكر العربي هو في العلم بمختلف فروعه: الطب، الطبيعة، الكيمياء والفلك، والتاريخ العربي والفلاحة.

أما في الرياضيات فقد كان للعرب الفضل الأكبر لأنهم هم الـذين أدخلـوا النظام العشري في العدد، إذ كان العرب يستعملون في العدد الحروف الأبجدية في العد. واخترع العرب طريقة لكتابة الأعداد، وهي التي انتشرت في المغـرب، ومنه انتقلت إلى أوروبا، ولا تزال تستعمل اليوم فيها فيما نسميها نحن الأرقـام

الأفرنجية. وقد أثر العرب في الأرصاد الفلكية إذ طبقوا حساب المثلثات عليها، واخترعوا وصنعوا آلات جديدة للرد مما أدى بهم إلى كثير من الاكتشافات، كما نبأ الفلكيون العرب بكسوف الشمس وخسوف القمر بدرجة من الدقة المتناهية أذهلت الناس، وأولوا القمر اهتماما خاصا؛ لأن السنة العربية سنة قمرية.

وبقيت دراسة الطب في أوروبا عيالا على العرب لأكثر من أربعة قرون. فبخلاف ما نقلوه عن اليونان اكتشفوا اكتشافات بالغة الأهمية منها الجرب الذي اكتشف جرثومته الطفيلية ابن زهر (ت- ٥٥٧هـ) وكانت مدارس الطب التي أنشئت في أوروبا تستخدم الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية كمدارس: نابولي، بولونيا، بادو، أورليان، اكسفورد، وكمبردج.

إن الحديث والبحث في الحضارة العربية الإسلامية في جميع مظاهرها واسع جدا لا يسعنا المقام هنا لذكره، فلقد كانت هذه الحضارة له أصل وهو الإسلام ومبادئه وأسسه وتأثرت بروافد عديدة من الحضارات الأخرى، ولم تكن هذه الحضارة مغلقة بل متفتحة فادت واستفادت، ونقلت الحضارة الإسلامية

الشعوب من حالتهم البدائية إلى حالة جديدة فتحت من خلالها الأفق الواسعة من العلم والمعرفة.

وإنني أرجو المعذرة بحيث أنني لم أستطع أن أتناول جوانب الحضارة العربية الإسلامية بشكل أفضل، ولكني هنا أحاول جاهدا أن ألخص تاريخ الحضارات البشرية، وإن تمكنت بمشيئة الله تعالى فسوف أعمل على إفراد بحث كامل مختص بالحضارة العربية الإسلامية بشكل موسع.





الباب السادس :

عصر النهضة الأوروبية ١٣٥٠ - ١٦٥٠ م



الفصل الأول

حركات الإصلاح الديني

مارتن لوثر:

ولد لوثر في عام ١٤٨٣ م في المانيا، وعاش حياة خشنة في ظل والديه ويبدو أن تكوين شبابه وعقيدتة الدينية قد بنيتا على حد صارم من التربية الحاثة على الدين والآداب سواء في البيت أم المدرسة.

درس لوثر اللاهوت والفلسفة أو تأثر برأي «أوكهام» وبعد (١٥١٢-١٥١٧م) حصوله على الماجستير في الآداب عام ١٥٠٥ م. قرر أن يصبح راهبا فكان ذلك في دير الرهبان الأوغسطينين. وعين أستاذا للاهوت في الجامعة عام ١٥٠٨ م. و خلال السنوات (١٥١٢ - ١٥١٧ م) تحولت أراؤه الدينية ببطء عن المذاهب الرسمية للكنيسة. ووجه اللوم إلى المبشرين بصكوك الغفران لإستغلالهم سذاجة الفقراء. و انتهى الأمر بأن مثل لوثر أمام الكردينال «كاجتيان» في «أوجسبوزح» بطلب من البابا «ليو العاشر» في روما حيث كان

الكردينال ضليعا في اللاهوت. حيث طالبه أن يغير أحكامه وأن يتعهـد بـأن لا يعكر صفو الكنيسة إلا أنه رفض ذلك لإعتدال البابا آنذاك كان سببا في انتظـار الإصلاح الديني. حيث تدخل البابا مرة أخرى وأصدر نشرة بابوية في التاسـع من نوفمبر «تشرين ثاني» عام ١٥١٨ م أنكر فيها كثيرا من المزاعم المتطرفة التي نسبت إلى صكوك الغفـران، فهـذه لا تمحـو الآثـام أو الـذنوب ولكنهـا تعفـي فحسب من العقوبات الدنيوية.

وصار أنصار «مارتن» في ألمانيا بإزدياد ولم ينجح البابا في إعـادة «لـوثر» إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، غير أن «لـوثر» أمـام إصرار البابـا قـدم تنـازلات منها: أن يلزم الـسكوت إذا التـزم خـصومه بـذلك وأن يكتـب رسـالة يطلـب خضوعه للبابا وأن يقـر علنـا بـصحة الـصلوات للقديـسين وبحقيقيـة المطهـر وبفائدة صكوك الغفران في الإعفاء من العقوبات الكنـسية وأن ينـصح النـاس بالولاء المسالم للكنيسة. ورفض «لوثر» المثول أمام البابا «ليو العـاشر» في رومـا وآثر البقاء في ألمانيا بين أنصاره ومؤيديه الذي كـان عـلى رأسـهم مفكـر حركـة الإصلاح الديني: «ميلانكتون»، وكذلك «كارلشتارت».

ساد شعور قومي خلال هذا الصراع لدى الألمان بالرغبة في الإستقلال عن روما والتخلص من سيطرتها، وكان زعيم هذا التوجه «هوتن» عام ١٥٢٠ م. واستمر «لوثر» في تحركاته العنيفة وأصدر عام ١٥٢٠ م ملاحظات عنيفة يقول فيها: «إذا كانت روما تؤمن وتعلم بمعرفة البابوات والكرادلة فإني أعلن بحرية في هذه الكتابات بأن المناهض للمسيحية الحقيقي يجلس في معبد الرب ويحكم في روما وأن مجلس تلك العشيرة الرومانية هو هيكل الشيطان.. وإذا استمر هياج أنصار روما على هذا النحو فلن يكون أمامنا من علاج سوى أن يتولى الأباطرة والملوك والأمراء تحيط بهم القوة والأسلحة، مهاجمة هذه الأوبئة في العالم وحسم الأمر بالسيف لا بالكلمات.. وإذا كنا نقضي على اللصوص بالمشانق ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف ونلقى بالهراطقة بالنار فلماذا لا نهاجم أيضا بالأسلحة أساتذة الدمار. هؤلاء، أعني هؤلاء الكرادلة وهؤلاء البابوات وكل هذه البالوعة من سدوم الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا حدود، ونغسل أيدينا في دمائهم.

وكردة فعل من البابا أصدر في عام ١٥٢٠ م نشرة أدان فيها واحدا وأربعين

بيانا لـ «لوثر»، وأمر بأن تحرق علنا مؤلفاته التي ظهرت فيها، وأنذر «لوثر» بأن يتراجع عن أخطائه وأن يعود إلى حظيرة الدين، وإذا رفض أن يأتي إلى روما في خلال ستين يوما ويسحب أقواله علنا فإنه سوف يبتر من عضوية العالم المسيحي بحرمانه من غفران الكنيسة. وسوف تتوقف العبادة في جميع الأماكن التي يقيم فيها، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها أو تسلمه إلى روما.

وأعلن لوثر بالمقابل انتهاء عهد التسامح بنشر أول كتاب من الكتيبات الثلاثة التي كونت برنامج الثورة الدينية. ووجه كتاباته إلى أشراف الأمة الألمانية المسيحين بشأن إصلاح طبقة رجال الدين، شمل نداؤه استغاثة بالإمبراطور «شارل الخامس». وهاجم «لوثر» «الجدران الثلاثة» التي شيدتها البابوية حول نفسها وهى: «التمييز بين رجال الأكليروس والعلمانيين، وحق البابا في أن يفسر الكتاب المقدس على هواه، وحقه المطلق في دعوة مجلس عام للكنيسة» حيث افترض أنه لكل مسيحي ينصب قسا بالتعميد، ومن ثم فإن على الحكام الزمنيين أن يمارسوا سلطاتهم دون عائق او اعتراض بغض النظر عما إذا كانوا يسيئون إلى

البابا أو الأسقف أو القس.. وثانيا وبما أن كل مسيحي يعد قسا فإن له الحق في أن يفسر الكتب المقدسة طبقا لما يراه. وثالثا يجب أن يكون الكتاب المقدس المرجع الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر، فالكتاب المقدس لا يقدم أية بينة على حق البابا المطلق أو دعوة أى مجلس. وانتقد بحدة الأموال التي تدفعها الكنيسة الألمانية إلى البابا في روما، ودعا إلى أن ينشىء رجال الدين الألمان كنيسة قومية. وكذلك دعا إلى أن يسمح للقساوسة بالزواج ويجب ألا تؤخذ عهود الرهبنة قبل سن الثلاثين، وأن تلغى التحاريم والحج وشعائر القداس على أرواح الموتى.

كان أعظم عمل قام به «لوثر» هو ترجمة الإنجيل إلى الألمانية ومع أنه قبل بعض الروايات المأثورة التي لا تقوم على ما جاء في الكتاب المقدس مثل تعميد الطفل. والراحة يوم الأحد، فإنه رفض أن يسلم بحق الكنيسة في أن تضيف إلى المسيحية عناصر لا تعتمد على ما جاء في الكتاب المقدس، وإنما تعتمد على عرفها وسلطتها مثل المظهر وصكوك الغفران وعبادة مريم والقديسين. ورأى «لوثر» أن العقل يتعارض مع الإيمان، وأدان «لوثر» الفلاسفة الكلاميين لأنهم

سلموا للعقل بكثير من الأمـور، ولأنهـم حـاولوا أن يثبتـوا العقائـد المـسيحية بالخضوع لمقتضى العقل ولأنهم حاولوا أن يوفقـوا بـين المـسيحية وبـين فلـسفة «أرسطو».

ومع كل ذلك فقد جعل «لوثر» الموعظة مركز شـعيرته الدينيـة، وأعلـن في الأيام الأولى لثورته بحق كل فرد في تفسير آيات الكتاب القدس لنفسه. واستن قانونه الخاص بصحة أسفار الكتاب المقدس.

لقد كانت ثورة «لوثر» موجهة ضد النظام الكاثوليكي وطقوسه أكثر منهـا ضد العقيدة الكاثوليكية فهو قد رفـض البابويـة والمجـالس الدينيـة والمراتـب الكهنوتية والإهتداء بأى شىء آخر للعقيدة غير الكتاب المقدس، ووصف البابا بأنه مناهض للمسيحية، ووجد أن الحماية تكون في رحاب الدولة.

كان مفهوم «الله» عند «لوثر» مفهوما يهوديا، ولقد آمن بأن الله أغـرق كـل البـشر تقريبـا في الطوفـان وأنـه أحـرق سـدوم، وأهلـك الأراضى والنـاس والإمبراطوريات بنفثة من غضبه وإشارة من يده. وأن قضية الدور الذى كانت

تقوم به «مريم» في الشفاعة في تلك القصة مختفية تماما. وأخذ بقضية الجنة والجحيم كقضية مسلم بها، وآمن بنهاية مبكرة للعالم. وتحدث عن الملائكة وقال إنها أرواح كريمة لا أجساد لها. وسلم تسليما كاملا بالمفهوم السائد في القرون الوسطى عن الشياطين التي تهيم في الأرض وتوسوس للناس وتغريهم بالإثم وتعرضهم للنحس وتمهد للإنسان طريقه إلى جهنم. وقبل السحر والعرافة على أنهما من الحقائق المسلم بها.

ومن هنا نرى أن «لوثر» في غمرة رد فعل القرون الوسطى ضد الكنيسة في عصر النهضة التي ارتدت إلى عصر الوثنية لم يعد إلى العقيدة الأوغسطية فحسب، ولكنه عاد إلى الإيمان بما لايصدق، وبدا له أن من الفضيلة أن يؤمن بالقدر لأنه كان بالنسبة للعقل أمرا لا يصدق، ومع ذلك فقد رأى بالمنطق العسير أنه إنما رفع إلى هذا الإعتقاد بعدم قابلية الأمر للتصديق.

لقد رفض «لوثر» التسليم بالتعريف الكهنوتي للكنيسة بأنها هي الأسقفية، وعرف بأنها جماعة المؤمنين بالله وبآلام المسيح تكفيرا عن ذنوب البشرية ولكنه

ردد العقيدة البابوية عندما كتب حيث قال: «إن كل الناس الذين ينشدون الوصول إلى الله ويعملون من أجل هذا الوصول بأية وسيلة أخرى غير التوسل بالمسيح يسيرون في ظلام دامس سادرين في الخطأ ولابد من أن يموتوا آخر الأمر ويضيعوا في آثامهم».

وكان «لوثر» ينظر إلى القرابين المقدسة على أنها حفلات يقيمها القساوسة للحصول على الغفران من الرب وهي لا تنطوي على قوى معجزة وفعاليتها تتوقف لا على أشكالها وصيغها ولكن على ايمان من يتلقاها. أما تثبيت العماد والزواج والرسالة الأسقفية للقساوسة والمسح المغالى فيه للمحتضر فهي ليست إلا طقوسا لم يرتبط بها أى وعد بعفو الله في الكتاب المقدس ويمكن للدين الجديد أن يستغنى عنها. أما العماد فهناك بينة عليه في مثال يوحنا المعمدان، ويمكن استبقاء الإعتراض السمعي بإعتباره من المقدسات على الرغم مما يحيط من شكوك بالأساس الذي يستند إليه في الكتاب المقدس.

ولقد انتقد «لوثر» الدولة انتقاده للكنيسة حيث آلمه تحريم بيع عهده الجديد

أو حيازته في المناطق التي تخضع لحكام من المحافظين فكتب في خريف عام ١٥٢٢ م رسالة عنوانها «عن السلطة الزمنية: إلى أى حد يجب أن تطاع». وبدأها بأسلوب رديء للغاية فأقر عقيدة القديس «بولس» عن الخضوع المدني والأصل الإلهي للدولة ومن الواضح أن هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة التي تقول بالحرية الكاملة للمسيحي.

وأوضح «لوثر» أنه على الرغم من أن المسيحيين المخلصين ليسوا في حاجة إلى قانون فإنهم يجب أن يطيعوه وأن يكونوا قدوة لغالبية الناس لأن نظرة الإنسان التي تجنح للإثم في غيبة أو هذا العالم المسيحي وكل ما يملكه الإنسان من متاع ملك للآخر، ولا يوجد شيء ملك لأحد فحسب.

وعلى الرغم من كل هذا كان «مارتن لوثر» محافظا بل ورجعيا في السياسة وأدين بمعنى أنه كان يريد أن يعود بالناس إلى المعتقدات والرسائل الأولى في القرون الوسطى. وكان يعد نفسه ممن يردون الأشياء إلى أصولها وأنه ليس مبتدعا واتفق في الرأى مع الكنيسة في القرون الوسطى في إدانة الربا إلا أنه

أضاف بطريقته المرحة أن الربا بدعة من عمل الشيطان وأسف لنمو التجارة الخارجية ووصف التجارة بأنها «مهنة مرذولة» واحتقر هؤلاء الذين يكسبون معاشهم بشراء السلعة بثمن رخيص وبيعها بثمن غال. ونده بالمحتكرين الذين كانوا يتآمرون لرفع الأسعار.

لقد روج «لوثر» لنهجه ورفض الإعتراف بالمحاكم الأسقفية والقانون الكنسي وأصبحت المحاكم المدنية في أوروبا اللوثرية هي المحاكم الوحيدة كما أصبحت السلطة الزمنية هي السلطة الشرعية الوحيدة. وعين الحكام الزمنيون موظفي الكنيسة وانتزعوا أملاكها وبدأوا في الإشراف على مدارسها ومبرات الأديرة. وظلت الكنيسة والدولة مستقلتين إحداهما عن الأخرى من الناحية النظرية، وإن أصبحت الكنيسة بالفعل خاضعة للدولة وهذا قدر للحركة اللوثرية التي كان يعتقد أنها الحياة بأسرها للاهوت أن تقدم، بلا قصد ورغم أنفها، ذلك التحول الشامل نحو الدنيوية الذي أصبح الموضوع الأساسي في الحياة العصرية.

جون كالفن ١٥٠٩ - ١٥٦٤ م:

ولد في نويون بفرنسا يوم ١٠ يوليو «تموز» عام ١٥٠٩ م تلك المدينة التي كانت مثالا من حكومة يسيطر عليها رجال الدين وكان أبوه يعمل سكرتيرا للأسقف، ووكيل أعمال في إدارة الكاتدراتية ووكيلا للمقاطعة يشرف على الأعمال المالية.

أرسل «جون كالفن» إلى كلية دي مارتن في جامعة باريس، وهناك تعلم كتابة اللاتينية ونقل بعد ذلك إلى كلية دي مونينجو حيث بقى حتى عام ١٥٢٨ م حيث حول إلى دراسة القانون وحصل في عام ١٥٣١ م على درجة البكالوريوس، وعاد إلى باريس وعكف على دراسة الأدب الكلامي حيث نشر في عام ١٥٣٢ م مقالا باللاتينية «لسينكا» ويبدو أن «كالفن» قد غادر باريس عام ١٥٣٤ م إلى «أنجوليم» ولعله بدأ هناك في كتابة مؤلفه Institutes ثم عاد سرا إلى باريس حيث التقى زعماء البروتستانت، ثم فر منها إلى بازل عام ١٥٣٦م حيث نشر هناك كتابه وباللغة اللاتينية بإسم «مبادىء الدين

المسيحي». والذى أعيد نشره بعد أن ترجمه «كالفن» إلى الفرنسية في عام ١٥٤١ م حيث حرم برلمان باريس تداوله وأحرقت نسخ منه علنا هناك. ومـن الجـدير ذكره أن «كالفن» استمر طوال حياته يعمل على إضافة فصول إلى هـذا الكتـاب وإعادة نشره وبلغت عدد صفحاته ١١١٨ في شكله النهائي.

ومما يستفاد من دراسة لاهوت «كالفن» تشابه بعض أفكاره بأفكار «لوثر» خاصة فيما يتعلق بالقدر لبني البشر، فلا سبيل لخلاص الناس بأعمالهم الحميـدة ولكن إرادة الله التي يتغمد فيها برحمته من يـشاء ويعفـو عمـن يـشاء. ويـسلم «كالفن» بأن حتمية القدر تتنافى مع العقل. وأن الله سـبحانه قـد عـرف مـصير الإنسان النهائي في المستقبل، قبل أن يخلقه لأنه شاء هذا وقرره.

وعلى هذا يرى «كالفن» أن لا محل للصلوات من أجل المـوتى، ومـع ذلـك فهو يدعو إلى الصلاة بتواضع وإيمان لأن الصلاة وتقبلهـا قـد سـبقا في حكمـه أيضا. ولم يكن «كالفن» يدعو إلى نبذ القداس لأن المسيح موجود فيه بروحـه لا بجسده. واعتبر الإعتقاد بأن المسيح موجود في بجسده نوع من الوثنية. كما رأى

أن استخدام الصور المنقوشة «للرب» تشجيع على عبادة الأوثان، ويجـب إزالـة كل الصور والتماثيل الدينية بل والصليب من الكنائس.

ويرى «كالفن» أن الدولة والكنيسة مقدستان، وقد خلقهما الله لكى يعمـلا في انسجام كالروح والجسد، لمجتمع مسيحي واحـد، وعـلى الكنيـسة أن تـضع القواعد التي تنظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبـادة والأخـلاق، وعـلى الدولة أن تدعم هذه القواعد، بإعتبارهـا ذراع الكنيـسة الطبيعـي. والحكومـة المثالية هي حكومة رجال الدين، ويرى أنه يجب الإعتراف بالكنيسة التي تـؤمن بالإصلاح الديني.

وتكمن عبقرية «كالفن» في تطوير آراء من سبقوه إلى نتـائج منطقيـة، والتعبـير عن هذه النتائج ببلاغة وبصياغة تضميناتها العمليـة بمـنهج يقـوم عـلى التـشريح الكهنوتي. وأخذ عن «لوثر» عقيدة التبرير أو الإختبـار بـالإيمان، ومـن «زونجـلى» أخذ التفسير الروحي للقربان المقدس، ومن «بـوسر»: الآراء المناهـضة لمـشيئة الله، بإعتبارها سببا لكل ما يحدث، والحاجـة إلى ورع قـوي وعمـل، بإعتبـاره إمتحانـا

وشاهدا على الإختيار، ووصلت معظم تلك العقائـد في صـيغة أخـف إلى الـتراث الكاثوليكي، وأضفى عليها «كالفن» أهميـة شـديدة، ولم يعبـأ بالعنـاصر المعوضـة المخففة في عقيدة القرون الوسطى.

كان «كالفن» أقـرب إلى القـرون الوسـطى مـن أى مفكـر بـين أوغـسطين ودانتي. ورفض رفضا باتا قبـول انـشغال علـماء الإنـسانيات بأفـضلية الـدنيا، وحول أفكار الناس من جديد إلى العالم الآخر، بـصورة كئيبـة أكثـر مـن قبـل، وأنكر الإصلاح الديني في مذهب «كالفن» من جديد.

كـان سـلوك «كـالفن» في الـسنوات الأولى مـن دعوتـه يتـسم بالإعتـدال والتواضع فكسب إلى صفة الجميع إلا أقلية ضئيلة، وعين ثمانية مـن مـساعدي القس للعمل تحت رئاسته لتقويم الخدمة الدينية في كنيـسة القـديس «بطـرس» وغيرها من كنائس المدينـة، فكـان يعمـل واعظـا ومـديرا وأسـتاذا للاهـوت، ومشرفا عـلى الكنـائس والمـدارس، ومستـشارا للمجـالس البلديـة، وضـابطا للأخلاق العامة، ومنظما للطقوس الدينية في الكنيسة، وعكف في غضون ذلـك

على إضافة فصول لكتابه «القوانين»، وكتب تعليقات على الكتاب المقدس.

وكان أول عمل قام به «كالفن» هـو إعـادة تنظـيم الكنيـسة، التـي تناولهـا الإصلاح وبذلك أتيح لرجال الدين أن يمارسوا سلطات أتاحت لهم أن ينظموا العبادات، فكان التغيب مع الإصرار عن حضور الـصلوات البروتـستانتية، أو الإستمرار في رفض تناول القربـان المقـدس مـن الجـرائم التـي يعاقـب عليهـا القانون، وكان المهرطقون يحكم عليهم بالإعدام، وكذلك مزاولة السحر.

كان السلوك الأخلاقى كالعقيدة يجب أن يلتزم به بعناية، ذلـك لأن حـسن السلوك هو الهدف من العقيدة الصحيحة. ولتنظيم سلوك الجماهـير أقـيم نظـام يعتمد على الزيارات المنزلية ويتلخص ذلك في أن أحد شيوخ الكنيسة أو غـيره، كان يزور سنويا كل بيت عين له في الحى، ويسأل السكان عن مراحـل حيـاتهم كلها. وامتد التنظيم إلى التعليم والمجتمع والحياة الإقتصادية. ورأى «كالفن» أن التقسيم الطبقي أمر طبيعي، وكان على كل شخص أن يتقبل وضعه في المجتمع، وأن يؤدي واجباته دون حسد لمن هو خير منه. والتزم مذهب «كالفن» بالعمـل

الشاق والرصانة والإجتهاد والإعتدال في النفقة، وأصبح اقتصاده قانونا دينيا ينبغي التعامل جيدا معه.



الفصل الثاني

المسيحية

٣.١ نيكولا دي كوزا «نيكولاس الكوزادي» (١٤٠١ - ١٤٦٠ م)

ولد في «كولس» قرب «تربير» في ألمانيا عام ١٤٠١ م، وجمع بين التضلع في القانون والتخصص في الدين في مدرسة «إخوان الحياة المشتركة في ديفنتر» تأثر بمذهب «أوكهام» الإسمي في بادو كما تأثر بمذهب الشك عند «ابن رشد» لبعض الوقت. كما تشرب التراث الأرثوذكسي، وكانت فيه كل العناصر التي تجعل منه أكمل مسيحي في عصره فأظهر أفضل وجه للمسيحية المنظمة.

لم يتخل «نيكولاس» عن نزعته الصوفيه وكتب مؤلفا كلاسيكيا في التصوف عنوانه: «رؤية الله» ورفض المذهب العقلي الكلامي الذي يبحث في اثبات علم اللاهوت بالعقل، وذهب إلى أن كل المعارف الإنسانية نسبية وغير ثابتة، وأعرض عن التنجيم، وحافظ على الفكرة العلمية وحث على القيام

بمزيد من التجربة ومزيد من المقاييس الدقيقة، وأشار إلى زمن سقوط الأجسام المختلفة من شتى الإرتفاعات ودرس أن الأرض «لا يمكن أن تكون ثابتة ولكنها تتحرك مثل غيرها من النجوم، فكل نجم يتحرك مهما بدا لنا ثابتا، وكل مدار فلكي دائري، والأرض ليست مركز العالم إلا كما تعد أى نقطة مركزا لعالم لا نهائي».

وفي عام ١٤٣٣ م ذهب «نيكولاس» إلى بازل ليقدم للمجلس الكنسي هناك عملا هو ثمرة لحظة مشهورة في تاريخ الفلسفة أطلق عليه اسم «الإئتلاف الكاثوليكي»، وكان الهدف العام الذي يرمي إليه هو أن يتوصل إلى اتفاق بين المجالس وبين البابوات. وقد صور الكنيسة وحدة عضوية لا تستطيع أن تؤدي وظيفتها بنجاح إلا من خلال التعاون الوثيق بين أجزائها وذلك في قياس محكم وتركيب متفق. ورأى أن مجلسا عاما فحسب هو الذي يمكن أن يمثل ويعبر ويوجد عناصر الكنيسة.

٣.٢ مرسيليو فتشينو «مرسيليوس البادوي» (ت - ١٣٤٣ م)

كان «مرسيليو» فيلسوفا ينادي بالفردية، درس الطب في الجامعة ولعله تأثر بـ «ابن رشد»، وعندما انتقل إلى باريس أصبح مديرا للجامعة وفي عام ١٣٢٤ م ألف مع «جون الجنداوني» أعظم رسالة أثرت على السياسة في العصور الوسطى وهي «المدافع عن السلام».

وقد برهن هذا الكتاب على أن السلام في أوروبا آنذاك يقوضه النزاع بين الدولة والكنيسة، وأنه يمكن استعادة السلام والحفاظ عليه بوضع الكنيسة بكل ممتلكاتها والعاملين بها تحت نفس السلطة الإمبراطورية أو الملكية. ومن الخطأ أن تقتني الكنيسة ممتلكات، إذ ليس في الكتاب المقدس ما يبرر هذا الإقتناء. (انظر ول ديورانت، ج٢٣، ص١٥١).

وجاء في الكتاب كذلك أن على الجماعة المسيحية أن تفوض في سلطاتها ممثليها من رجال الإكليروس وإن كان لا يجب أن تسلم لهم قيادتها. ويجب أن يكون هؤلاء مسؤولين أمام الشعب الذي يمثلونه، وأن إدعاء البابا أنه يستمد

سلطته من «بطرس» الرسول خطأ تاريخي إذ لم يكن «بطرس» أقوى سلطة من باقي الرسل ولم يكن لأساقفة روما في أوائل عهدهم في القرون الثلاثة الأولى سلطة تزيد عن سلطة الأساقفة في كثير من العواصم القديمة الأخرى.

وكان يرأس المجالس العامة الإمبراطور أو نوابه وليس البابا. وأي مجلس عام ينتخبه شعب العالم المسيحي يجب أن يفسر الكتب المقدسة ويعرف العقيدة الكاثوليكية ويختار الكرادلة وهولاء يجب عليهم أن يختاروا البابا.

ويجب على رجال الإكليروس بما فيهم البابا أن يخضعوا للقضاء المدني والقانون في جميع الأمور الدنيوية. ويجب أن تعين الدولة رجال الإكليروس ومنحهم مرتبات وتحدد عدد الكنائس والقسس وتستغني عن القسس كلما رأت أنهم غير جديرين بمناصبهم، وتراقب الهبات الكنسية والمدارس التابعة للكنيسة ودخلها وترفه عن الفقراء من فائض دخول الكنيسة. (انظر ول ديورانت، ج٢٣، ص١٥١).

ولقد كان «مرسيليوس» يدعو إلى أن يستبدل بسلطة الكنيسة سلطة

الشعب. غير أنه وبسبب النظام الإجتماعي ومن أجل سلامته الشخصية استبدل بسلطة الشعب سلطة الدولة. غير أنه لم يرفع من شأن الملوك إلى درجة يجعلهم فيها كل شيء وإن كان يطلع من وراء انتصار الدولة أن يرى ذلك اليوم الذي يمارس فيه الشعب سيادته الفعلية.

طبق «مرسيليوس» مبادىء مماثلة على الحكومة المدنية وإن كان قد أدخل عليها بعض التعديل غير أن «مرسيليوس» لم يكن بوسعه أن يدافع عن المساواة في التصويت بين جميع البالغين في أوروبا حيث كان من العسير أن تجد واحدا يستطيع القراءة بين كل عشرة، وحيث كانت المؤهلات صعبة والإنقسامات الطبيعية راسخة لا تتزعزع بمرور الزمن.

لقد رفض «مرسيليوس» الديموقراطية بشكلها الكامل حيث تتحدد فيها السياسة والتشريع بعدد الأنوف «مجموعة من الناس المعوزين». ولتصحيح هذا الفساد كان يريد من الأفراد أن تكون لهم سلطة سياسية مناسبة لمكانتهم في المجتمع، وإن لم يقل كيف ومن يحكم على هذا. وأفسح مكانا للملكية، ولكنه

أضاف أن «الحاكم الذي ينتخب هو أفضل بكثير من من الحكام الذين يـصلون إلى مناصبهم بالوراثة» فالملك يجب أن يكون نائبا وخادما للجمهـور وإذا أسـاء السلوك فإن من حق الجمهور أن يخلعه.

براسلوس (١٤٩٣ - ١٥٤١ م)

ولد «براسلوس» في عام ١٤٩٣ م في ألمانيا، ولما بلـغ الرابعـة عـشر قـصد «هايدلبرج» للدراسة. كان ينتقل من جامعة إلى أخـرى، فمـن «فرايبـورج» إلى «انجولشتات» إلى «كولونيا» إلى «توينجن» إلى «فبنا» إلى «وارنورت» وأخيرا إلى «فيرارا». وفي عام ١٥١٥ م التحق حلاقا صحيا في جيش شـارل الأول ملـك أسبانيا، دون أن يحصل على درجة جامعية.

عوض «براسلوس» عن افتقاره إلى الدرجة العلمية بإتخاذ ألقـاب مثـل: «أمير الفلسفة والطـب» و «دكتـور في فرعـي الطـب»: «أي طبيـب وجـراح» و «نـاشر الفلسفة»، وداوى جراح غروره بالثقة في دعاواه. كتب يقول: «سـيتبعني الجميـع، وستكون مملكة الطب مملكتي.. كل الجامعات وكل الكتاب القدامى مجتمعين أقـل

مواهب مني».

ولع «براسلوس» بالإشتراكية فكان يندد بالمال، وبالفائدة، وبالتجار، ويدعو للشيوعية في الأرض والتجارة، وللمساواة بين الناس في الأجور. وفي كتابه الأول «الحكمة العظمى» رفض اللاهوت وامتدح التجربة العلمية، وفي عام ١٥٥٧ م كان «براسلوس» في «ستراسبورج يمارس الجراحة ويحاضر في الحلاقين الصحيين، وكان تعليمه لهم مزيجا مهوشا من المعقول وغير المعقول، ومن السحر والطب، وقد رفض التنجيم ابتداء ثم سلم به[1].

بحث «براسلوس» بشوق عن حجر الفلاسفة أى عن صيغة عامة تفسر الكون. وكتب في سذاجة المصدق عن الأقزام الخرافية، وسلامندر الاسبستوس، والإرشادات، وهي علاج الأعضاء المريضة بعقاقير شبيهة بها لونا وشكلا، وكان يستخدم التعاويذ والتمائم السحرية علاجا.

أدخل «براسلوس» تحسينات جريئة على استخدام الكيمياء في الطب،

---

[1] انظر ول ديورانت، ج٢٧، ص١٦٣

والتمثيل الغذائي. وكان العلاج في أول العهد يعتمد في عقاقيره إلى حد كبير على عالم النبات والحيوان، أما «براسلوس» الفارق في كيميائه القديمة، فقد أكد ما للمواد غير العضوية من قدرات علاجية، وأشاع استعمال الصبغات والخلاصات الكيميائية. وكان أول من صنع صبغة الأفيون، وقد شجع استعمال الحمامات المعدنية، وشرح خواصها وآثارها المتنوعة.

وقد أشار «براسلوس» إلى استخدام جرعات باطنية من الزئبق دون الإستعمالات الظاهرة له وذلك لعلاج الزهري الذي أصبح ساحة احتدمت فيها المعركة بين العلاج النباتي والعلاج الكيميائي.

ومن الكتب التي ألفها في الطب: «العمل العجيب جدا» و «معارضة الطبيعة» و «الجراحة الكبرى».

ولاحظ «براسلوس» العوامل المهنية والجغرافية المؤثرة في المرض، ودرس السل الرئوي المتليف في المعدة، وأدخل تحسينات على فهم الصرع، وعزا الشلل واضطرابات النطق إلى اصابات الرأس. ورأى بإمكانه شفاء النقرس والتهاب

المفاصل وذلك إذا كان التشخيص على أنهما نتيجة لأحماض تكونها بقايا الطعام التي استقرت طويلا في القولون.

كان «براسلوس» قد صرح في شبابه ببعض التصرفات الدينية كقوله إن دلالة العماد رمزية لا أكثر، وأن تناول الأسرار المقدسة نافع للأطفال والمغفلين، عديم الفائدة للأذكياء، وأن الصلوات للقديسين مضيعة للوقت.

وفي أواخر سني حياته، راح ينتقل بين ربوع ألمانيا مهدودا من الفقر والهزيمة، وبعد أن اختار التحول الديني صام ووهب متاعه الباقي للفقراء، وكتب المقالات التعبدية، وفي عام ١٥٤٠ م قدم له أسقف «سالزبورج» الملجأ فقبل ذلك وكتب وصيته وترك نقوده القليلة لأقاربه وأدواته لحلاقي المدينة الصحيين، ثم توفي عام ١٥٤١ م.

كان «براسلوس» رجلا قهرته عبقريته، غنيا في الخبرة المنوعة والأحاسيس الذكية، ناقصا في تعليمه المدرسي نقصا أعجزه عن فصل العلم عن السحر، مفتقرا إلى ضبط النفس اللازم للسيطرة على حماسته المتأججة، حاد الخصومة

بحيث لم يستطع التأثير في جيله.

الفلسفة السياسية لـ «ميكافيلي» الأمير (١٤٦٩ - ١٥٢٧ م)

لقدكان «ميكافيلي»: من أهم فلاسفة السياسة الذين وضعوا أساس الدولة القومية الحديثة، ذلك أن ظهور الدولة القديمة وحلولها محل الدولة الدينية «في أوروبا» كان بداية البدايات لنشوء الحضارة الأوروبية الحديثة، ووضع أشهر كتبه في السياسة بعنوان «الأمير».

ولد «ميكافيلي» في فلورنسا عام ١٤٦٩ م ولعله درس التراث اللاتيني ولا سيما التاريخ، كما أنه كان مفتونا بـ «دانتي» و «بترارك» و «بوكاشيو»، قضى الشطر الأول من حياته (١٤٩٨ - ١٥١٢ م) دبلوماسيا توفده بلاده في سفارات متعددة إلى بلاط الملوك والأمراء، أما الشطر الثاني من حياته فقد قضاه محدد الإقامة في بيته. و لقد مكنه عمله من التعرف على أقوى رجالات عصره المشتغلين بالحكم والسياسة، الأمر الذي مكنه أن يبلور أفكاره في فن الحكم وعلم السياسة وكتب في هذا كتابه: «**الأمير**» عام ١٥١٣ م.

و"ميكافيلي» رأى أن الدولة في عصره لا تتحرك إلا للمصلحة، ولا تحترم اتفاقاتها إلا حين تعود عليها بالنفع، وكما وجد الدول كذلك وجد الأفراد، ففي زمنه اضمحلت فلورنسا وأخذت تعتمد في حمايتها على الجيوش الفرنسية فدعا إلى إنشاء جيش وطني من أبناء فلورنسا للدفاع عن دولتهم، وبعد أن طرد الجيش الفرنسي من ايطاليا عام ١٥١٢ م بقيت فلورنسا بغير حماية لوقوعها تحت رحمة الإسبان، فسقطت الجمهورية في فلورنسا وعاد إلى حكمها الأمراء المستبدون من «آل مديتشي». وهكذا عزل «ميكافيلي» من كافة المناصب التي كان يشغلها في ظل الجمهورية ونفي من مدينة فلورنسا وهو في سن الثالثة والأربعين، فعاش في بيته في الريف وهناك كتب كتابه «الأمير»، وكذلك كتابه «أحاديث لتيتوس ليفيوس» وهي أهم أعماله في علم السياسة.

من الواضح أن أعماله «كتاباته» في السياسة وضعها لترشد الأمير «لورتزو دي مديتشي الثاني» ليكون أميرا قويا ناجحا. الأمر الذي مكنه من العودة إلى الخدمة العامة في ظل آل مديتشي عام ١٥٢٦ م. غير أنه سرعان ما انهارت الإمارة المطلقة في فلورنسا وعادت إليها الجمهورية وطرد آل مديتشي من الحكم

وفقد «ميكافيلي» عمله من جديد وبعدها مات في العام الثاني ١٥٢٧ م.

لقد كان كتابه «الأمير» يعتبر بداية الطريق في الفكر السياسي الحديث بسبب واقعيته في الوصف والتحليل. ويرى «ميكافيلي» في كتابه أن على عـالم الـسياسة أن يضع نفسه مع الطبقات الشعبية ليفهم طبيعة الحكام، ومـع الطبقـة الحاكمـة ليفهم طبيعة الشعب. ومعنى هذا أن الحكام عاجزون عن الحكم عـلى أنفـسهم وأن الشعب أيضا عاجز عن الحكم عـلى نفـسه. والمقـصود بهـذا كلـه أن علـم السياسة أو علم الدولة لا يكون موضوعيا إلا إذا أسس عـلى رأي الـشعوب في حكامها وعلى رأي الحكام في شعوبهم.

وتحدث «ميكافيلي» في كتابه عن مشكلة الإنقلابات والثورات التي يسميها «الإمارات الجديدة». وعنده أن أول عقبة تواجهها أية إمارة جديدة عقبة طبيعية مؤداها أن الناس يتحمسون إلى تغيير أميرهم أملا في تحسين أحـوالهم، إلا أنهـم يكتشفون أن أحوالهم بعد ذلك تسوء لعدم قدرة الجديد على إرضائهم بالدرجة التي كانوا يأملون فيها. وذكر أنه كان هناك صراع بين الدولـة والكنيـسة الـذي

أفضى إلى فصل الدين عن الدولة.

ولقد تحدث «ميكافيلي» عن التوسع الإستعماري وعن حروب التحرير مثل: استيلاء «لويس الثاني عشر» ملك فرنسا على مدينة «ميلانو» وضمها إلى أملاكه بجهد ضئيل أو بمجرد استعراض العضلات.

ولقد وضع «ميكافيلي» بعض القوانين السياسية التي يراها لازمة لنجاح الفتوحات وحركات التوسع القومي بأسلوب أفضل من التوسع الفرنسي في إيطاليا. أي أنه وضع مبادىء علم الإستعمار حيث كانت أوروبا منذ فجر عصر النهضة تدخل تجربتها الكبرى في استعمار العالم منذ نشأة القوميات الحديثة فيها.

ومن القوانين التي وضعها «ميكافيلي» أن الضعفاء ينضمون أبدا إلى الفاتح القوي. وعلى هذا الفاتح إن أراد أن يديم سيطرته أن يحابي هؤلاء الضعفاء ولكن على الأمير أن يحذر من أن يشتد عود هؤلاء. كما أن على الأمير ألا يتخذ شركاء أو حلفاء أقوياء ليثبت قدمه أو يوسع ملكه.

لقد ركز «ميكافيلي» في كتابه على عبارة «الغاية تبرر الوسيلة» ولشرح هذه

العبارة فقد تحدث عن الأمراء الذين يصلون إلى إمارة دولهم بطرق مختلفة فإما بقوة الغير أو بطريق الحظ أو بطريق الإجراء والغدر. وهذه النماذج الثلاثة ذات صفة خاصة لأنها لا ترث السلطة فإذا وصل فرد من أبناء الشعب إلى السلطة تبدأ متاعبه منذ ذلك الحين. ومن الأمراء من يشتري الرئاسة بماله أوبالرشوة أو ليكون صنيعة من يهبها له. ومثل هؤلاء الحكام كمثل الأمراء الذين عينهم «دارا» ملك الفرس عندما غزا اليونان فولاهم على زبونيا وعلى جزر بحر إيجه. ومثل هؤلاء أيضا مثل الأمراء الذين اشتروا جنودهم بالرشاوي ليضعوهم على رأس الدولة.

فقد كان في عيوبه بأنه فصل السياسة عن الأخلاق - وفي هذا كلام - فهو واضع نظرية أن «الغاية تبرر الوسيلة». ومع ذلك فنماذج الإمارة الأخرى التي يقدمها تلقى بصيصا من النور على عقليته ومنطقه المتجرد البارد في النظر إلى الأمور. فهو يعطينا مثلا على «أجانوكليس الصقلي» الذي وصل إلى سدة الحكم في صقليا لا بفضل مساعدة الغير أو بتدخل الحظ مثل سيزار بورجيا ولكن بمحض قوته الذاتية ومواهبه الشخصية، ثم استطاع أن يحرر وطنه من

القرطاجيين. فهذا نموذج آخر لأمير اغتصب الحكم بجهده وجهاده وهو يستحق الثناء لأنه حرر وطنه، غير أنه وكما يقول «ميكافيلي» يوصف بالفضيلة. وعلى الرغم من أن كل بطولات أجانوكليس تزكيه - حسب رأي «ميكافيلي» - لأن يعد بين القادة العظام.

ويتابع «ميكافيلي» في الإتجاه نفسه على مثال آخر هو «ليفروتو» الذي أصبح أمير «فيرمو» بالوحشية والخديعة. غير أن أمد الحكم لم يدم له أكثر من عام على الرغم من أنه جاء بنفس الطريقة التي جاء بها «أجانوكليس» الصقلي.

لقد وضع «ميكافيلي» مقياسا موضوعيا للتمييز بين أمر مغتصب وآخر من نفس النوع. فالأمير المغتصب الذي ينجز كل ما يحتاج إليه من جرائم في أجل قصير وبطريقة ناجحة يمكن أن يجعل رعيته تعيش في أمن بعد ذلك، هذا الأمير يمكن أن يكتب له البقاء، وأن يتحول شره إلى خير. أما الأمير الذي يبتلى في تردد بسبب خوفه أو لسوء المشورة، فهو يحمل دائما السكين في يده وهو يجدد دائما جرائمه فلا يعرف طعم الأمان، وهو معرض للإطاحة به في أي وقت.

إن فصل السياسة عن الأخلاق في تشريع «ميكافيلي» شيء مألوف في كل العصور يعرفه بالفطرة كل طامع في الملك أو في الرئاسة دون حاجة إلى تقنين أو تلقين، ولا سيما إذا كان الساعي إلى السلطة من عامة الناس لم يرث منها شيئا بقربه منها غير مواهبه واستعداداته الشخصية.

ويرى «ميكافيلي» في كتابه «الأمير» أن الناس تخاف من الأقوياء وتزدري الضعفاء، وهذا أمر مناقض للتعاليم المسيحسة تماما. وهذا - في أوروبا كان يمثل قمة الفصل بين السياسة والأخلاق، لا بل بين الدين والدولة. وهذه النظرة قد أججت لدى الأوروبيين حب الحرية والإستقلال وروح الوطنية والقومية وحب السيادة على النفس والدنيا بدلا من التركيز على طلب الآخرة بالأخلاق الدينية. كما أججت هذه الفلسفة الدنيوية الشوق إلى حقوق الإنسان بدلا من طلب الفناء في حقوق الله. وقد جسد الأوروبيون هذه الروح الجديدة بالروح «الفاوستية» التي بدأت في وجهها البناء بتحرير الإنسان وانتهت في وجهها المدمر بتأليه الإنسان.

ذكر «ميكافيلي» أيضا صفة الـصدق أو الإخـلاص أو الوفـاء في «الأمـير» وينفي أنها لازمة لزوما مطلقا. فليس المهـم - في نظـر «ميكـافيلي» - أن يكـون الأمير على هذه الصفات، ولكن المهم أن يبدو كذلك أمام الناظرين. ويدلل على رأيه هذا بأن البابا اسكندر السادس كان أعظم أستاذ في الكذب وأعظم فاسـق عرفه التاريخ، ومع ذلك فقد كان يوهم الناس بأنه ينبوع الفضيلة.

في خاتمة كتابه يبرر «ميكافيلي» سبب واقعيته التي انتهجها في كتابه، بأنه كان يحلم بتحرير وطنه وتوحيده بقوة أمير جديد قـوي يغتـصب الـسلطة في الـبلاد بقوة الأسد ودهاء الثعلب، ويطرد الأعداء الأجانب من إيطاليا، والوسيلة هـي الحرب والسبيل هو بناء جيش وطني مـن أبنـاء الـبلاد، والإيطـاليون في نظـره شجعان أكفياء ولكن تنقصهم القيادة الفذة. وهذا هو الأمير المنتظر.

النقد الفكري...............:

بطرس راموس (١٥١٦-١٥٧٢ م)

ولد قرب مدينة «كالفن» في اقليم بيكاردي في فرنسا عام ١٥١٦ م، التحـق

عام ١٥٢٨ م في كلية نافار للآداب في باريس. وأمضى حياته في نقد فلسفة أرسطو، واتخذ ذلك موضوعا لرسالته لدرجة الأستاذية ليثبت أمام كل من تحدوه أن «كل ما قاله أرسطو باطل»، وبالفعل منح «راموس» درجة الأستاذية على رسالته تلك.

اشتغل «راموس» بالتدريس، ومزج في محاضراته الفلسفة وأدب اليونان والرومان. وفي عام ١٥٤٣ م أصدر «راموس» كتابين أحدهما بعنوان (Aristotlicae Animadressiones) وفيه شن هجوما مباشرا على فكر أرسطو، أما الكتاب الآخر فكان عن أقسام المنطق حيث قدم فيه نسقا جديدا محل محل القديم، فأعاد تعريف المنطق بإعتباره فنا حديثا، وجمع بين المنطق والأدب والخطابة في طريقة اقناع فنية واحدة. وما أن نشر الكتابان حتى عقدت محاكمة لـ «راموس» بتهمة عدائه للدين، وصدر الحكم ضده بأمر ملكي حيث منع من المحاضرة أو النشر أو المزيد من مهاجمة أرسطو.

عاد «راموس» بعد فترة إلى المحاضرة في كلية آتي ماريا، ولكنه اقتصر في

محاضراته على البلاغة والرياضيات. وفي عام ١٥٤٥ م أصبح «راموس» المدير المساعد لكلية بريل. ولما تولى «هنري الثاني عشر» العرش بعد «فرانسوا الأول» ألغى الحكم الصادر على «راموس» وتركه «حر اللسان والقلم». وبعد عام عينه في كرسي بالكلية حيث أعفي من اشراف الجامعة.

خصص «راموس» الكثير من وقته وجهده لإصلاح الطرق التربوية مستعينا بالبلاغة «الأدب آنذاك» ولعله أراد بذلك تنشيط الفلسفة بالشعر وبث انسانية نابضة بالحياة في المناهج التربوية. واستطاع «راموس» أن يطبق المنطق على اللغة، وفي نطق الحروف الهجائية استطاع أن يدخل في الأبجدية الفرنسية حرفي j , v ليحلا محل الحرفين الساكنين I , u. ثم شجع تقرير المنح الدراسية للفقراء الطلبة، وندد بالرسوم الباهظة التي تتقاضاها الجامعات عن التخرج، وناضل في الوقت نفسه لرفع رواتب المدرسين.

وفي عام ١٥٥٥ م نشر «راموس» كتابه Dialectique، وهو أول كتاب في المنطق بالفرنسية، وفيه أن الإقناع يكون بالجدل والمنطق، وكذلك فيه الدفاع عن

العقل. كان «رامـوس» عـدوا للنزعـة التقليديـة. وقـد رأى في العقـل المـرجح الوحيد الذي يحتكم إليه، وأن العقل سيلغ بـالعلوم جميعهـا مرتبـة تقـرب مـن الكمال في قرن واحد لو أطلق له العنان. فقد كتب يقول: «كان شغلي الشاغل أن أزيح من طريق الآداب الحرة.. كل العقبات والمعوقات الفكرية، وأن أعيد هذا الطريـق وأقومـه، لا تيـسيرا للتفكـير فحـسب، بـل لممارسـة الآداب الحـرة واستخدامها».

وعلى الرغم من إعلان «راموس» اتباع المذهب البروتستانتي في عام ١٥٦١ م. وإقدام بعض تلامذته لتمزيق الصور الدينية المعلقة في كنيسة كلية بريل عـام ١٥٦٢ م وصدور قانون حكومي يقضي بمنع من لم يكن كاثوليكيا من التدريس في الجامعات أو الكليـات الملكيـة، إلا أن الملكـة كـاترين واصـلت دفـع راتبـه وضاعفته، فأصبح حرا في أن يتفرغ للدرس والتأليف. وفي عام ١٥٧٢ م اقتحم رجـلان مـسلحان كليـة بريـل وصـعدوا إلى الطـابق الخـامس حيـث مكتـب «راموس» فقتلاه.

وبهذا فاز اعداؤه عليه، وعادت الفلسفة الكلامية «فلسفة أرسطو» التي حاربها ونكست الفلسفة الفرنسية رأسها حتى جاء «ديكارت».

النهضة العملية (الفلك) :

لقد أسهم ثلاثة علماء في نهضة الفلك إذ أنهم وضعوا أساس علم الفلك الحديث وأنقذوا الإنسانية من خرافات القدماء حول تكوين الكون الغريب فيما يسمى بالمجموعة الشمسية. أول هؤلاء العلماء بولنديا يدعى «كوبرنيكوس» (١٤٧٣ - ١٥٤٣ م) وهو الذي اكتشف الحركة المزدوجة للكواكب حول نفسها وحول الشمس. وكان ثانيهم ألمانيا يدعى «كيلر» (١٥٧١ - ١٦٣٠ م) وهو الذي اكتشف أن مدارات الكواكب حول الشمس بيضاوية ووضع بدايات قانون الجاذبية الذي بنى «نيوتن» عليه أهم نظرياته. أما أوسعهم صيتا وأكثرهم شهرة فهو العالم الإيطالي «جاليليو» (١٥٦٤ - ١٦٤٢ م) الذي اكتشف قانون تذبذب الأجسام وقانون الأجسام الساقطة ووضع أسس قانون القصور الذاتي واكتشف البقع الشمسية وقوانين المد والجزر واكتشف بعض

التوابع غير المعروفة للقدماء واخترع التليسكوب والميكروسكوب وقضى حياته يدافع عن نظرية «كوبرنيكوس» في دوران الأرض حول الشمس ولقي في ذلك عنتا شديدا أمام محاكم التفتيش.

ولد «جاليليو» في بيزا عام ١٥٦٤ م، وكان ينتمي إلى عائلة مرموقة، فكان منهم الوزير في القرن الرابع عشر، وكان منهم الطبيب الشهير في القرن الخامس عشر، كان أبوه موسيقيا بارعا في العزف على العود ضليعا في نظريات الموسيقى وفي الرياضيات وفي الآداب اليونانية واللاتينية.

بدأ «جاليليو» يدرس مبادىء الرياضيات سرا دون علم أبيه عام ١٥٨٣ م. وسطعت موهبة «جاليليو» في الرياضيات إلى درجة أذهلت معلمه، كما درس الفيزياء على يد أستاذ آخر.

وفي عام ١٥٨٣ م اكتشف «جاليليو» نظرية تساوي الزمن في ذبذبات البندول وطبق «جاليليو» نظرية التساوي الزمني في الذبذبات الصغيرة على ضربات النبض وعلى ضربات القلب. وفي عام ١٥٨٦ م اخترع «جاليليو»

الميزان الهيدروستاتيكي لتحديد الوزن النوعي للأجسام وكتب في ذلك بحثا اسمه «الميزان» نشر بعد موته. وفي عام ١٥٨٦ - ١٥٨٧ م كتب «جاليليو» كتابا عن مركز الثقل في الأجسام ولم ينشره إلا في عام ١٦٣٨ م.

قضى «جاليليو» في جامعة بيزا ثلاث سنوات أستاذا للرياضيات كان خلالها يعلم هندسة «اقليديس» وفلك «بطليموس» القائمين على الأرض هي مركز الكون. ويبدو أن فترة جامعة بيزا هذه كانت بداية قبول «جاليليو» لثورة «كوبرنيكوس» في علم الفلك وبداية الديناميكا الجديدة التي وضع «جاليليو» أساسها. ولما انتقل إلى جامعة «بادو» شاع عنه أنه كان يعلم فلك بطليموس علنا ويدافع سرا عن فلك «كوبرنيكوس».

لم يؤلف جاليليو في فترة وجوده في جامعة بادو كتبا ذات بال، غير أنه اكتشف بعض قوانين الميكانيكا الهامة مثل قوانين تزايد سرعة الأجسام الساقطة تزايدا طبيعيا.

أنشأ جاليليو في منزله ورشة يصنع فيها الموازين والمقاييس والعدسات

والتلسكوبات ويجمع الأدوات المغناطيسية واخترع مسطرة حاسبة كان يسميها «البرجل الهندسي الحربي»، وقد شاع استعمالها في حساب اللوغريتمات، واخترع مقياسا للحرارة يتأثر بالحرارة والضغط الجوي. وفي عام ١٦٠٩ م صنع نموذجا لتليسكوبه المشهور[1] .

ولقد اخترع جاليليو التليسكوب وقد سبقه إلى ذلك آخرون.

لقد كان جاليليو يعد من اخترع التليسكوب الشكل الذي هو فيه لوظيفته التي صنعها من أجلها، أما الآخرون فكانت دراستهم تنصب على العدسات. فقد كان كبلر وجيوفاني باتيستا قد توصلا في ١٥٨٩م، و١٥٩٣م، ١٦٠٤م وكانا من المختصين في البصريات، إلى دراسة طبيعة العدسات، غير أن دراستهما وقفت عند الحد النظري.

صنع جاليليو التليسكوب ونسب اختراعه لنفسه وقدمه لجمهورية البندقية في ٢٥ أغسطس/ آب عام ١٦٠٩م فأثار فيها حماسة عظيمة. وكان أول من

---

[1] انظر لويس عوض، ص ٢٧٩

استخدم التليسكوب في رصد الكواكب ونجوم السماء.

كان من بعض النتائج التي أعلنها جاليليو نتيجة دراسته النجوم في منظاره عام ١٦١٠م أن سطح القمر شبيه بسطح الأرض وفيه جبال أعلى بكثير من جبال الأرض. كذلك اكتشف ان نهر المجرة يبدو: «كمجموعة مكدسة من النجوم الصغيرة»، كما اكتشف أن كوكب «جوبتر» و«المشترى» له ثلاثة أقمار تابعة له، ثم اكتشف أن عدد هذه الأقمار أربعة وليس ثلاثة، وقد أطلق جاليليو عليها اسم «أقمار مديتشي» أو «كوكبة مديتشي». وفي آخر يناير/ كانون ثاني عام ١٦١٠م طبع جاليليو نتائج أبحاثه في كتيب صغير باللاتينية في البندقية، أردفه في ١٢ مارس/ آذار عام ١٦١٠ م بكتابه اللاتيني الشهير «رسول النجوم».

ومن اكتشافات جاليليو كذلك بعض البقع الشمسية التي تحدث عنها شاعر الرومان الأعظم «فرجيل» في ديوانه «أغاني الفلاحين». كما اكتشف أن الكوكب سارتون/ زحل مكون من ثلاثة نجوم، كما اكتشف أن منازل كوكب الزهرة تشبه تماما منازل القمر.

لقد كان على جاليليو أن يقنع علماء روما باكتشافاته، فسافر إلى هناك في أول إبريل/ نيسان من عام ١٦١١م، حيث استقبله العديد من الكرادلة بحفاوة بالغة، ثم استقبله البابا بولس الخامس. وأدخل جاليليو عضوا في أكاديمية «لينفشي». واستقبل الآباء الجزويت في الفاتيكان «وكانوا من أوسع رجال الدين معرفة بالعلوم والرياضيات» جاليليو بحفاوة بالغة - ابتداء - وأيدوا بعض اكتشافاته وكانوا متحفظين على غالبيتها. وكان هؤلاء من أشد الطوائف محافظة على العقيدة الكاثوليكية التقليدية، وكانوا يخشون أن يزعزع العلم الحديث عقيدتهم. وكان زعيمهم الكاردينال «بللارمين» رئيس محكمة التفتيش.

قضى جاليليو عشرين عاما يدعو لنظرية كوبر نكيس عرف فيها مرارة الهزيمة عام ١٦٢٢م، ومثل أمام محكمة التفتيش في السجن في عام ١٦٢٣م. وكان جاليليو يعرف النتائج الخطيرة المترتبة على نظرية كوبر نكيس في الفلك حيث يؤدي ذلك إلى زعزعة العقيدة الدينية. ولكنه في الوقت ذاته كان يدرك خطورة الكنيسة لو وقفت حائلا في طريق العلم الحديث. لذلك قامت دعوته

على أن نظرية كوبر نكيس لا تتعارض مع العقيدة الدينية، وكان مهتما بإقناع كبار رجال الدين بالكوبرنيكية لكي يحصل على تأييد الكنيسة.

وفي عام ١٦١٥م سافر جاليليو إلى روما ليشرح قضيته بنفسه أمام كرادلة الفاتيكان وأمام البابا. غير أن مراكز القوى المحافظة داخل الفاتيكان أدت إلى إصدار قرار تحريم نظرية كوبرنكيس. ولم يرد في القرار ذكر لأعمال جاليليو غير أنها أصبحت ضمنا محرمة. وفي ٢٥ فبراير/ شباط عام ١٦١٦م. كلف البابا بول الخامس الكاردينال «بيللارمين» باستدعاء جاليلو وإخطاره التخلي عن النظريات التي أداتها الفاتيكان وأن يمتنع عن تعلم أو تعليم هذه النظريات. ففعل ذلك ووافق جاليليو على هذا. واستمر الصراع بين جاليليو والكنيسة معتدلا حينا وصاخبا حينا آخر وكان يرافق ذلك اختراعات واكتشافات علمية من قبل جاليليو، إلى أن أصدر جاليليو كتابه «حوار بين النظامين العظيمين». «البطلمي، والكوبرنيكي» في ٢١ فبراير / شباط عام ١٦٣٢م. وفي هذا الحوار تشترك ثلاث شخصيات منها اثنان حقيقيان هما نبيل من فلورنسا يدعى فيلليو سالفياتي (١٥٨٣-١٦١٤) كان جاليليو قد أهدى إليه كتابه «رسائل شمسية».

ونبيل من النبدقية يدعى ساجريدو (١٥٧١ - ١٦٢٠). أما الشخصية الثالثة فهي وهمية اسمها سمبليتشيو بمعنى «الساذج» وهو نموذج للفكر الأرسطوطاليسي المتحجر ويدور الحوار بينهم أربعة أيام في قصر ساجريدو[1].

وعلى أثر نشر الكتاب استدعى جاليليو إلى روما في ٢٠ يناير/ كانون ثاني عام ١٦٣٣م بحجة سؤاله عنه وكأن الأمر ينطوي كذلك على مؤامرة حبكت عليه استغلالا لمحضر ٢٥ فبراير/ شباط عام ١٦١٦م. واتهام جاليليو بخرق نصوصه. وفي ٢٢ يونيو/ حزيران عام ١٦٣٣م وفي القاعة الكبرى في دير الدومنيكان في سانتا ماريا قرأ على جاليليو الحكم: وهو يتضمن مصادرة كتاب «حوار النظامين العظيمين» والحكم بالسجن على مؤلفه رهن رغبة البابا، كما حكم عليه أن يقرأ مرة كل أسبوع مزامير التوبة السبعة لمدة ثلاث شهور، واحتفظ البابا لنفسه بحق تخفيف الحكم أو تعديله أو إلغائه عليه». وبمجرد صدور هذا الحكم خفف على الفور إلى تحديد إقامته في حديقة «تربنيتيه دي

[1] انظر لويس عوض، ص ٢٩٠-٢٩٣

مون». وفي ٣٠ يونيو/ حزيران وافق البابا على أن تحدد إقامته في توسكانيا قريبا من ابنتيه الراهبتين. وقضى جاليليو السنوات التسع الأخيرة من حياته في عزلة نسبية عاكفا على بحوثه العلمية النظرية بعد أن تخلى تماما عن كل محاولة لتنوير الناس وزيادة وعيهم بالفلك الجديد، حتى توفي في ٨ يناير/ كانون ثاني عام ١٦٤٢م بعد أن أصيب بالعمى في أواخر عمره.

منذ كان عصر النهضة الأوروبية عصر انفجار ثقافي فكري وعلمي غير معالم الحياة في أوروبا ومقاييسها ومبادئها وكان نتاجة حركات الثقافية والفكرية والعلمية بعد مدى ثلاثة قرون على مساحة أوروبا كلها. مما أدى إلى تغييرات جذرية مهمة وهي:

- ظهور اللغات والآداب الحديثة

- ظهور حركات الاستقلال والوحدة القومية.

- ظهور الكنائس القومية وانسلاخها من الكنيسة الجامعة «الكاثوليكية» وتقلص السلطة بالبابوية.

- ظهور فكرة الحق الطبيعي وحلولها محل فكرة الحق الإلهي.

- زوال مظاهر النظام الاقطاعي نتيجة لحركات الوحدة القومية وظهور الملكية المطلقة ثم الملكية المقيدة ثم الديمقراطيات الحديثة.

- الإيمان بعظمة الإنسان وأنه سيد مصيره وأن علوم وفنون وآداب وفلسفات الإنسان قيمة في ذاتها لا تغني عنها علوم الدين.

- اكتشاف أمريكا عام ١٤٢٩م وغيرها من بقاع العالم المجهول وبداية عصر الاستعمار الاستيطاني.

- ظهور حركات الإصلاح الديني والسياسي.

- العمل العجيب جدا

- الجراحة الكبرى

- معارضة الطبيعة



الباب السابع:

الحضارة العصرية الحديثة



التطور التدريجي للعلم:

لقد اعتمد العلماء والمفكرون الغربيون في العصور الوسطى، على مبادئ ارسطوطاليس، ويتبعون طرقا في البحث والدرس عتيقة بالية تكبل التفكير الحر وتقضي على كل محاولة في الابتكار والاختراع.

وحينما سقطت القسطنطينية في يد العثمانين ١٤٥٣م هاجر فريق من العلماء البيزنطين إلى إيطاليا وإلى ما جاورها من البلاد الأوروبية وأخذوا ينشرون علوم اليونان والرومان وأدبهم الرفيع وطرق تفكيرهم ومبادئ ثقافتهم، فتزلزلت العقيدة في صحة ما كان قد نقل إلى الغربيين من علماء اليونان والرومان وأدبائهم وفلاسفتهم. وتضاعف ذلك الشك حيث اخترعت الطباعة وتمكن العلماء من قراءة الكتب القديمة بلغاتها الأصلية، إذ لاحظوا أن كثيرا من المبادئ والآراء - التي كانت شائعة بينهم كحقائق ثابتة قالها حكماء اليونان وعلماؤهم قد شوهت حين تم نقلها إلى اللاتينية وفقدت الشئ الكثير من جمالها وصحتها.

لذلك كله رأى العلماء وسائر المفكرين أن يعيدوا النظر في التراث الثقافي

القديم كله، على أن يتبعوا في تلك الإعادة طريقة الدرس والتمحيص، تعززها الاختبارات والتجارب العلمية.

وفي فجر القرن السادس عشر ظهر في بولندا الكاهن كوبرنيكس وهو الذي قرر بأن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس، كما كان يدعي العالم اليوناني بطليموس. ومنذ ذلك التاريخ تمسك العلماء واشتد أزرهم بنظريتهم القائلة بوجوب الالتجاء إلى التجربة والاختبار حين الدرس والبحث العلمي.

وفي هذه الفترة ازدهرت العلوم والرياضيات، والطبيعيات والفلك، وبرع في ذلك علماء عالميون منهم، ديكارت وبسكال الفرنسيان وجاليليو وتوربيشبللي الأيطاليان، وكلبر وليبتر الألمانيان وبيكون ونيوتن الانكليزيان وهوبجنس الهولندي وهؤلاء كلهم ظهروا وبرزوا خلال القرن السابع عشر.

الفصل الأول

الفكر التجريبي وأهم أعلامه

جون لوك ١٦٣٢ - ١٧٠٤م

ولد ونشأ وترعرع في انجلترا. وفي اكسفورد درس الفلسفة وعلوما أخرى، وحصل على درجة الماجستير في عام ١٦٥٨م. عمل لمدة عامين ١٦٧٣ - ١٦٧٥م سكرتيرا لمجلس التجارة والزراعة. ولما اعتلى «جيمس الثاني» عرش انجلترا لجأ لوك إلى هولنده وذلك عام ١٦٨٣م. وهناك كتب (بحث في العقل الإنساني)، والمسودات الأولى لأبحاثه في التعليم والتسامح الديني، وعندما اعتلى «وليم الثالث» عشر انجلترا عاد لوك إليها، وتقلد هناك عدة مناصب رسمية.

ومن أهم مؤلفاته كتاب (الحكم الديني).

اسحق نيوتن ١٦٤٢ - ١٧٢٧م

ولد في مزرعة صغيرة في مقاطعة لنكولن (في الولايات المتحدة الأمريكيـة) في ديسمبر/ كانون أول ١٦٤٢ أي في نفس العام الذي مـات بـه جـاليليو. وفي المدرسة لم يكن نيوتن تلميذا نابها، بل على العكس من ذلـك وجـاء في التقـارير التي كتبت عنه آنذاك أنه خامل وغير ملفت للنظر، وأنه يهمل الدراسات المقررة ويقبل على الموضوعات التي تستهويه، ويقضي الوقت الكثـير عـلى المخترعـات الميكانيكية كالمزاول، والسواقي، والساعات البيتية الصنع. ثم أخرج نيوتن مـن المدرسة ليساعد أمه في المزرعة، غير أنه هناك أهمـل عملـه كـذلك وعـاد ليقـرأ الكتب ويحل المسائل الرياضية فأعيد إلى المدرسة. ثم تخرج مـن كـامبردج بعـد حصوله على الدرجة الجامعية الأولى، وبعدها انتخب زميلا في الكلية، وخـص باهتمامه الرياضيات، والبصريات، والفلك والتنجيم.

ولقد قام نيوتن آنذاك بكثير من التجارب لا سيما في الكيمياء وكـان هدفـه تحويل المعادن، ومن أشهر كتبـه في الكيميـاء (المبـادئ) ووضـع نيـوتن قواعـد

للطريقة والبحث العلميين، ورفض القواعد التي وضعها ديكارت في (مقالة) كمبادئ قبلية تستنتج منها كل الحقائق الكبرى بالاستدلال.

ومن أهم أسباب شهرة اسحق نيوتن أمرين هما: حساب التفاضل، والجاذبية، بدأ عمله في حساب التفاضل عام ١٦٦٢م. بإيجاد مماس ونصف قطر الانحناء عند أي نقطة على منحنى. ولم يسم طريقته حساب التفاضل بل حساب الفروق المستمرة.

وفي الفيزياء عكف نيوتن ابتداء على استكشاف سر الضوء فبدأ تجاربه في ذلك عام ١٦٦٦م. وتوصل إلى الضوء الأبيض أو ضوء الشمس ليس بسيطا أو متجانسا، بل هو مركب من الأحمر، والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والبني والبنفسجي. هذا، وقد جمع نيوتن مناقشاته حول الضوء في كتاب (البصريات في عام ١٧٠٤م).

ولم تكن فكرة الجاذبية بين النجوم جديدة قط على نيوتن؛ فقد ذهب بعض فلكيي القرن الخامس عشر، إلى أن السموات تؤثر في الأرض بقوة تشبه تأثير

المغنطيس في الحديد، وما دامت الأرض تنجذب بالتساوي من جميع الاتجاهات فإنها تبقى معلقة في مجموع هذه القوة. إلى غير ذلك من النظريات عن الجاذبية التي عرفها كثير من العلماء قبل نيوتن. إلا أن نيوتن وبفضل تقدم العلماء في الرياضيات توصل إلى قانون الجاذبية، الذي مفاده أن الأجسام تنجذب نحو بعضها بعضا بقوة تتناسب طرديا مع (حاصل ضرب كتلتيهما وعكسيا مع مربع المسافة بينهما).

لقد جوبهت نظرية نيوتن بنقد شديد من قبل العلماء، إضافة إلى الاعتراضات الدينية عليها في انجلتره. وعلى ذلك حول نيوتن أن يهدئ من ثائرة نقاده فأكد أنه لا يفترض قوة تعمل عن بعد خلال القضاء الفارغ، وأنه يعتقد بوجود ناقل متخلل، ورغم أنه لم يحاول وصفه. وقصر تفسيراته الميكانيكية على العالم المادي ورأى في ذلك العالم أدلة على وجود الله سبحانه، لأن كل آلة تتطلب مصدرا لحركتها. ولابد أن يكون هذا المصدر هو (الله) سبحانه. ثم أن في النظام الشمسي شذوذات في المسلك يصححها الله تعالى دوريا، كلما ظهرت. ولكي يفسح المجال لهذه التدخلات الخارقة، نزل عن مبدأ

عدم فناء الطاقة وافترض أن آلة العالم تفقد بعض طاقتها بمضي الوقت، وستفقدها كلها إن لم يتدخل الله سبحانه ليرد لها قوتها.

لقد كان نيوتن رجلا مستغرقا بشكل واضح في النظرية الرياضية والصوفية، ذهنه مزيج جمع بين ميكانيكا جاليليو وقوانين كبلر وبين لاهوت بومي. وهو مع هذا كله كان ذا مقدرة عملية وفطرة سليمة. وقد اكتشف في عام ١٧٠٠م آله السدس، ويبدو أنه شرف المناصب الخطيرة التي بادرت الدولة بتعيينه فيها. وقد عين عام ١٦٩٩م مديرا لدار سك النقود، حيث بقى في هذا المنصب ٢٨ عاما وشغل هذا المنصب على نحو من الرضاء العام.

لقد كرمت الدولة اسحق نيوتن بوصفه أعظم العلماء الأحياء، وقد انتخب رئيسا للجمعية الملكية عام ١٧٠٣م وظل ينتخب سنويا بعد ذلك حتى وفاته. هذا وقد مات اسحق نيوتن عام ١٧٢٧م عن عمر يناهز الخامسة والثمانين ودفن في كنبسة وستمنستر.



الفصل الثاني

عصر التنوير والروح الإنسانية والحركة العقلانية

الحركة العقلانية:

والمقصود هنا بالحركة العقلانية هو حركة الفلاسفة الذين يسعون إلى نظرة عقلانية إلى أصل الكون وطبيعته ومغزاه ودلالته ومصيره، والحياة أو الإنسان.

ولقد كان الجد الذي شاع بين الطبقات المفكرة في نصف القرن الذي سبق الثورة الفرنسية، لم يكن مجرد صراع بين الدين والفلسفة. بل كان بالدرجة الأولى صراعا بين الفلاسفة والمذهب الكاثوليكي المسيحي، كما وجد في فرنسا آنذاك، ولعل السبب في ذلك وقوف تلك الديانة على ذلك المذهب. بعد ذلك أصبحت الفلسفة قوة اجتماعية انتقلت من المدارس إلى المجتمع والحكومة، وأسهمت في الصراع بين الدول. ولما كانت كل أوروبا المتعلمة تتطلع إلى فرنسا لمعرفة آخر النظريات والآراء. فإن مؤلفات الفلاسفة الفرنسيين وصلت إلى انجلترا وإيطاليا والبرتغال وألمانيا والسويد وروسيا. وأصبح الفلاسفة بعد

اختراع الطباعة أقدر على التحدث إلى جماهير أكبر عددا وأكثر استعدادا من ذي قبل.

ولقد اعترف الفلاسفة بتلك الفترة بضعف العقـل، وأدركـوا تمامـا أن مـن الميسور تضليله بأي منطق فاسد أو تفسير خاطئ للخبرة.

وبما أن باريس كانت في القرن الثامن عشر عاصمة الفكـر في أوروبـا. فـإن حركة التنوير أصبحت حركة واسـعة النطـاق مـن حركـة النهـضة الأوروبيـة وحركة الإصلاح الـديني. والحـق أن حركـة التنـوير هـذه بـدت وكأنهـا ذروة الحركات السابقة. وكانت النهضة قـد ذهبـت إلى مـا وراء المـسيحية لتكتـشف الذهن الوثني، كما أن الإصلاح الديني كان قد كسر قيود السيادة الذهبية، وعلى الرغم منه تقريبا أطلق العنان لعمل العقل، وباتت مقدمتا العصر الحديث هاتان تكمل الواحدة الأخرى، وأصبح في مقدور الإنسان في نهايـة المطـاف أن يحـرر نفسه من معتقدات العـصور الوسـطى ومـن أسـاطير الـشرق، كـما أصـبح في مقدوره أن يهز كتفيه استخفافا باللاهوت المربك المرعب، وأن يقف على قدميـه

حرا طليقا؛ حرا في أن يشك، وفي أن يحقق ويدقق، حرا في أن يفكر ويجمع ألوان المعرفة وينشرها.

مفاهيم أخرى (المساواة والحرية والتاريخ والتقدم)

لقد أخذت فكرة التقدم تسيطر على الفكر الأوروبي بصورة واضحة خلال القرن الثامن عشر، ذلك القرن الذي بدا الناس متفائلين بمستقبل الإنسان، وهناك درجة معقولة من الاتفاق بين أهل الفكر، على أن الإنسانية تتقدم في ميدان واحد على الأقل، وهو ميدان العلوم الطبيعية والرياضيات من فيزياء وكيمياء وهندسة وحساب وما إلى ذلك. ثم في ميدان التطبيق العملي لقواعد العلم المكتشفة. وقبل نهاية ذلك القرن، وكان هناك اقتناع عام بحتمية التقدم في ميدان الاقتصاد والحضارة والتنظيم الاجتماعي والفن الأدب، بل في الطبيعة الإنسانية والشكل البيولوجي. ولكن القرن الثامن عشر انتهى بانفجار الثورة الفرنسية التي مهد لها الفلاسفة وخاض معاركها الخطباء وجنى ثمارها البورجوازيون، حيث بدا عند انتهائها عصرهم الذهبي الذي تم على يد «كارل

ماركس» و«انجلز» و«لاسال» و«لينين» و«لوكسمبرج» و«ستالين» و«مـارقس توانج».

لقد كانت الغالبية العظمى، من فلاسفة التقدم من أبنـاء الطبقـة الوسـطى الذين نادوا بالحرية والمساواة، غير أن نداءهم هذا لم يكن يخلو مـن تحامـل عـلى النبلاء وكبار رجال الكنسية والدين جملـة. ولم تتـسع المـساواة عنـدهم للطبقـة الدنيا في السلم الاجتماعي، حيث كانت هذه هي الثغرة التي دخل منهـا رجـال الفكر الاشتراكي. وعندما نتأمل كتابات الفلاسفة في عصر التنوير نلاحظ أنهـا في كلامها عن التاريخ تنصرف بوضوح عن التاريخ السياسي والكنسي وتتجـه نحو التاريخ الحضاري. فتركز الاهتمام على الإنسان العادي وتبحث عن أحواله ومعاشه ومستواه. وكان أهل الفكر ينظـرون إلى مـا كـان يكتـب مـن تـواريخ تقليدية بأنها لا قيمة لها لخلوها من الناحية الحضارية.

لقد كان مفكرو النـصف الثـاني مـن القـرن الـسابع عـشر أكثـر إحـساسا بالتحسن المطرد في أحوال الـبلاد والعبـاد مثـل «برنـارد بوفييـه دي فونتينـل»

وشارل بيرو (١٦٢٨ - ١٧٠٣)م وبدأ مصطلح التقدم يدخل قاموس التاريخ والحضارة وصرنا نجد مقالات الكتاب مثل «روبير جاك تورجو» (١٧٢٧ - ١٧٨١)م تشير إلى أن التاريخ يسير في خط متصل لا تنقطع حلقاته، وأن التقدم ينتج عن تراكم ثمرات التجارب العملية الصغيرة، وأن التقدم تزداد سرعته، كلما نمت الحضارة وتعقدت صورها واقتربت من النضج.

وقد قام الموسوعيون «مجموعة من العلماء الفرنسيين» في القرن الثامن عشر بإنشاء مجموعة فرنسية «دائرة معارف فرنسية» وكان هذا حدثا هاما في التاريخ؛ ذلك أن الذين قاموا بتحقيق مشروعها كانوا من أبناء الجيل الجديد من المثقفين الفرنسيين الذين آمنوا بالفكر والحرية والتقدم من أمثال: روسو، وفولتير، وفول بونيه، وتورجو، ودوكلو، ودي بروس، وسان لامبير، وموريللليه، ونكر، وكنيه وغيرهم.

لقد أحدثت هذه الموسوعة تغييرا في المفاهيم المتوارثة في أكثر من ميدان من ميادين المعرفة. لأن المشرفين على تحريرها، وكل الذين كتبوا موادها كانوا من

المتفائلين الذين نفضوا أيديهم من الماضي واشتركوا معا في صنع رؤية جديدة، لمستقبل الإنسان قائمة على العقل والحرية والعلم. ولهذا وقفت الدولة والكنيسة منها موقف العدو، وصودر الكثير من أجزائها قبل صدوره، وفرضت الحكومة الملكية الفرنسية رقابة شديدة على كل من كتب فيها. لقد كانت الأقلام التي كتبت موادها هي نفسها الأقلام التي مهدت للثورة الفرنسية. هذا وقد صدرت بعض موادها عن فكر ملحد، ولكن البعض الآخر صدر عن عقل مؤمن بالله سبحانه وتعالى، ولكن ذلك الإيمان لم يكن نابعا عندهم من الكتاب المقدس، بل ارتكز على ما تبنوه من كمال الكون وإحكام صنعة الله فيه. وهذا تغير واضح في الفكر له قدره وأهميته.

كانت نهضة الفكر العلمي هي القوة التي حركت التاريخ والحضارة ودفعتها إلى السير في طريق مستقيم يتجه إلى الأمام، ولما لم يكن من سبيل إلى القيام بتجارب على حياة البشر، عكف الفلاسفة على التاريخ يدرسونه ويستخرجون الأحكام. والنظريات من تجارب الأمم، ولم تكن لديهم معرفة كافية فيما يتصل بتاريخ اليونان والرومان. وكان تاريخ مصر القديم وتاريخ

السومريين، والآشوريين والبابليين والفرس آنذاك، أشبه بأنفاق مظلمة، أما تاريخ المسلمين فكان كتابا مغلقا حتى نشطت حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر. صحيح أن حركة الاستشراق بدأت قبل هذا الوقت.

ولقد قطعت الحضارة المادية الغربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر شوطا جعل أهله يشعرون أنهم بلغوا قمة التقدم، وأنهم شيدوا حضارة فاقت كل ما عرفه هذا الكوكب من قبل. فساد أهل الغرب الأوروبي الدنيا بالسلاح والتكنولوجية وبالعلم والفن، وأغرقت صناعاتهم الدنيا، وقطعت سفنهم المحيطات، وصبت خيرات الدنيا في بلادهم وصنعت وأعيدت إلى البلاد النامية لتباع بأثمان عالية.

وظهرت عملية استنزاف حقيقية حيث تحولت آسيا وأفريقيا إلى مزارع ومجالات للاستغلال لأهل الغرب، واستولت أمريكا على ما تريده من أراضي المكسيك واحتكرت كل نشاط أهل أمريكا الوسطى والجنوبية.

ولقد اكتشف العلماء أن مصطلح التقدم لا يمكن أن يطلق على مسيرة دولة

من الدول بصورة عامة، ذلك أن حياة الأمم تتكون من تيارات شـتى: بـشري، واجتماعي، وأخلاقي، واقتصادي.. إلخ. وقد يكون هناك تقدم في ناحية وتعثـر في أخرى. غير أن ناحية من نواحي البشر - وهي الناحية الاجتماعية ثبـت أنهـا تسير في تقدم مضطرد، فالمجتمع المعاصر أحسن نظاما وأوفر عادلة مـن مجتمـع القرن الماضي، وهكذا. ومن هنا فقد رأى بعض المؤرخين أن هنا موضعا مأمونا يمكن أن تطبق عليه نظرية داروين في التطـور، ونـشأ مـا يـسمى بالداروينيـة الاجتماعية.



الفصل الثالث

النظرة المستقبلية للحضارة

لقد كانت الاستعراضات التي لاحظناها في سير المجتمعات في الحضارة توقظ فينا حسا تقييميا جديدا نحو ازدهار المجتمعات، وثراء أفرادها، وهي تشير إلى ضرورة التخطيط الاجتماعي لملاقاة الانحراف الذي يمكن أن يحدث من جراء طفرة الثراء في البلاد المنفتحة حديثا على الآلة. هي توقظ وتؤكد بإصرار إلى أن علم الإنسان حديثا وفن التخطيط الاجتماعي من قبل مؤسسة الدولة، لم يعد يسمح بأن يبقى المجتمع مستسلما للصيرورة الغبية التي يقوده إليها التاريخ قسرا، مجاراة الغرائز والنوازع الساذجة في النفس الإنسانية.

إن الثروة حينما تكون هدفا رئيسا للفرد، تكون قاتلة لدوافع البناء في الإنسان. إذ عندئذ تتحكم بدافع الإبداع والسلوك وتمتلك قواعد الأخلاق، ولن تصبح فوق الإنسان وقيمه بكميات أشيائها وبكامل أرقامها في المدخول

والمصروف. فتصبح بدل وسيلة للبناء ومساعدا للسير إلى الأمام ربطا يشد إلى الخمول ويدفع إلى الانحلال. ولم تعتمد المجتمعات التاريخية له العقل العلمي الجديد الذي يجب أن يرعى بحذر جميع ظواهر التحلل في المجتمعات. كما أن الثراء الفردي كان فيها جميعا المثل الأعلى لكل الأفراد. لكن مع تخطيط المستقبل لم يبق هناك مجال لاستعمال وسائط التطور السابقة في المجتمعات التي بلغ فيها الوعي إلى تلاقي الثورات. أو في أخرى التي اجتازت هذه المرحلة بالدماء.فقد كان التاريخ بتجربته مع الدولة مراقبا للأشخاص الذين تلتقي مصالحهم فيتعاونون لتكوين دولة ذات سلطة، يتحكمون بها وفق رغباتهم، وبها يحمون أطماعهم بالثراء. أما الآن بعد الوعي الإنساني، فأصبحت الدولة بقدراتها على التخطيط هي التي توحد وتوجه رغبات الجماعة التي ترعاها. فتكون بوعي سابق حركة التاريخ، وتضع التنبؤات عن طريق التنظيم الاقتصادي، ليس لما يمكن ان ينتج من ريع لرساميل أو موظفة أو مشاريع إنشائية تحمل البلاد إلى الازدهار.

ويتعاطف ويتعاون أفراده، فيصعد في الحضارة من حضارة الفؤوس

وحجارة الصوان إلى عصر غزو الكواكب. وبانعدامها تنعدم حضارة المجتمع مهما كانت مظاهرها من الثراء والرفاه. ومجالات علم الاجتماع المستقبلي المعاصر هو دراسة كيفية تلافي سقوط المجتمع سقوطا سهلا بمثل هذا الانحلال الساذج. فقد أصبح بإمكان الدولة المعاصرة أن تقي الاتجاه العام في المجتمع للتحكم بتوجيهه صوب المتانة والقوة.

ولقد كانت قوة الدفع التي نقلت أوروبا من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، اتجاه واحد يتمثل في توكيد معنى الإنسان الفرد. وقد تم ذلك في عدة قرون، استطاع التطور خلالها أن يحمل في مضامينه تقاليد وأعرافا وسلوكا خاصا متميزا بتحرره، ابتداء من اللباس والأزياء، ومواعيد وجبات الطعام وأيام العمل والراحة، والتعامل مع أجهزة السلطة، حتى حفلات الرقص وحرة التقبل والرفض للأفكار.

لقد كانت شعوب أوروبا الغربية بحركة التمرد على العالم القديم، وبنت بحماسها العالم الحديث، قد بلغت القمة وتجاوزتها إلى المنحدر الآخر، ومثال

ذلك على الحركة الفرنسية الثورية في أواخر القرن الثامن عشر، لم تكن مجرد حركة إصلاح، كالحركات التطورية المألوفة في التاريخ، بل شكلت الانفجار الأكبر لما تم تجميعه منذ ا القرن الثالث عشر، وما كان يطلب من هذا الانفجار العظيم هو أن ينتقل الإنسان الأوروبي إلى عالم أكثر قدرة على الثبات أمام سير الزمن، وأشد قابلة لمواءمة متطلبات التقدم الآلي العظيم الذي حدث بعد ذلك. ولكن الإصلاحات التي جاءت عنها الأنظمة التي حددت وضع الإنسان في المجتمع، والأفكار التي فسرت خلالها وجود الإنسان في العالم لم تكن ثورية انقلابية تستحق الدماء التي بذلت في سبيلها والخراب الذي عم أوروبا من نتائجها وهكذا عم الفشل وانتشر التخاذل والهدم بين أولئك الذين تحمسوا لها. وقد بدأ البحث بعدها عن غايات أصلح يعبر الإنسان عن إنسانيته ويحي قيم حريته، ويجسد في مثلها حنينه.

إن بدء الخراب للروح الحضارية ابتدأت مع النمو الاقتصادي لدول أوروبا التي ازدهرت فيها هذه الروح. فهذه الدول لم يرسخ بناؤها الاقتصادي على أسس ذاتية، رغم أن وجهة الحضارة بأكملها كانت تقوم على وعي الذات

واكتشاف الإمكانات الشخصية الإنسانية للاعتماد عليها. اعتمدت الدول مستعمرات خارجية تجني منها رفاهها، فاستعمرت أغلب البلاد الأخرى المختلفة في آسيا وأفريقيا. وقد استعملت أنظمتها وأجهزتها الحضارية الآلية والأدبية لجني أكبر فائدة ممكنة من هذه البلاد، وقدر للروح الحضارية أن تعم بهذه الطريقة على الشعوب المختلفة. فنشطت بينها نزعة وعي الذات، وابتدأ عندها التقييم لمعنى الإنسان وإمكاناته يتبع نفس الخط الذي اتبعته شعوب أوروبا من قبل، وهكذا راح الوعي يتقدم مع تقدم وسائل المستعمرين لاستغلال ثروات الطبيعة في بلاد المستعمرات، ومع هذا الوعي نشأت المقاومة لمنع الاستغلال وبدأت المطالبة بالحرية والاستقلال.

ولقد اختلفت بهذا المنهج الحضارة الأوروبية عن الحضارات الدينية السابقة لها، كالإسلام والمسيحية. إذ بينما كانت الشعوب المتدينة ترسل المبشرين وتشعر بالراحة النفسية عندما ينجح هؤلاء بكسب الأنصار والأتباع للدين، نجد هذه الشعوب مع الحضارة تعاني المرارة من الضرائب الباهظة في سبيل التلويح للشعوب بالدين الجديد «دين الحرية»، ومنعها بقوة السلاح من أخذه

والمباشرة بطقوسه وما التجربة الفرنسية في الهند الصينية والجزائر إلا نمـوذج في هذه المعاناة الإنسانية التي مر بها الـشعب الفرنـسي وهـو الـشعب العريـق في الطقوس الإنسانية المعاصرة.

إن العوامل التي قادت أمريكا إلى الازدهار هي غير العوامل التي تماثلها في أوروبا. فالمجتمع في أمريكا ليس مجتمعا تاريخيا، يعاين من سيطرة التقاليد، كـما أنه لا يملك المجال الصالح للعصبة القومية. وليس فيه سـلطة للغيبيـات فهـو بذلك دون سلطان تاريخي، وأي تقييم للإنسان فيه إنما يأتي مـن خـلال الفـرد، ووفق مخطط المنطق الإنساني وقد بلغ انسجامه مع المنطق الحضري شـأنا بعيـدا برفضه التشبه بالاستعمار الأوروبي، وبانطلاقه تحرير العبيد زمن الرئيس إبراهام لنكولن في القرن الماضي.

لقد كانت هذه الحركة هامة في أساس الحضارة، حيث تكون أمريكا بها قـد سبقت جميع الشعوب في سيرها إلى الفردية العالمية، التـي سيـصلها كـل إنـسان عندما يرسخ فيه المنطق العلمي، ويكتمل وعيه النزوعي. وقد توفرت الظروف

لهذه التجربة حتى الآن. وأهم هذه الظروف كان ثراء القادة واستطراد الازدهار وحاجة العالم الخارجي للإنتاج الأمريكي وهذا ما أبقى على الحماس الفردي. وقد استعيض عن القيم التقليدية لكل حضارة، بالحركة الرأسمالية المتحركة بنشاط في داخل المجتمع مما يجعل للرقم سلطة إنسانية عظمى، لها القدرة على الإثارة والدفع، كأية سلطة ميتافيزيقية مثالية.

أما التجربة الروسية مع الشيوعية فيبدو أنها أفادت كثيرا من فشل الثورة الفرنسية، فتلافت الأخطاء التنظيمية لما بعد الثورة واغتنمت الحماس الجماهيري الثوري لترسيخ موقف إنساني جديد، أكثر استنادا إلى منطق العلم مع الإصلاحات الوقتية المرتجلة التي تلت ذلك. وهكذا لم تهدأ عواطف الشعب، حتى وجدت أنها ملزمة بموقف جديد دفعت بدله دماء وتضحيات كثيرة. ومن الجدير ملاحظته أن الأخطاء والصراعات الاجتماعية من دينية وقومية حدثت في أوروبا الغربية منذ عصر النهضة حتى عصر لينين، كانت عظة لقادة الشيوعية، واستطاعوا أن يتلافوها بهذه الظفرة العقائدية الانقلابية، التي حولت مجتمعا تاريخيا عريقا بتقاليده ودينه إلى مجتمع يقفز قفزة واسعة ليسبق

مركب التقدم.

وصارت العقيدة المادية الماركسية التي تعمتد العقل والمنطق التجريبي، ملتقى للعناصر العقلية التي تبحث عن هدفية بطريق العقل، غير أن هذه العقيدة لا يمكن تصنيفها على أنها النظام الأمثل لعموم الشعوب. والسؤال المطروح والذي صارت إجابته قاب قوسين أو أدنى يتمثل في: هل سينجح هذا النظام في مماشاة الحرية الفردية الذي تكرس الجهد الإنساني لأجلها منذ عصر النهضة؟ وهل يمكن للفرد أن يبقى على حماسته لحريته وحقوقه في النظام الجماعي المقرر بسلطة حتمية من قبل الدولة؟

قد استنزفت الحضارة الغربية طاقة شعوبها. غير أن هذا لا يعني أن المنطق الحضاري الحديث قد أفلس وفشل ويمكن العدول عنه فقد أصبح ملكا للعالم أجمع وما التجارب التي تمكنها أن تحدث من جديد إلا استطرادا عليه واستمرارا لتجاربه في التعبير عن وعي الذات الإنسانية في الفرد. وما قلق التاريخ إلا قلقا وترقبا وانتظارا لأمة تكون ذات مواءمة نفسية لتسلم مشعل الإنارة والانطلاق بوحدة وحزم إلى الأمام.

خلاصة

نجد أن الحضارة الإنسانية الحديثة تطورت نتيجة للبحث والتقصي عن أهداف جديدة للإنسانية ولقد صارعت هذه البحوث وانحازت مع التحرر من المفهوم القديم للإنسانية المتعلق بالكون وأين أسسوا وأسهموا في تقدم الحضارة الإنسانية والدعوة إلى التمرد بين رجال الدين والتحرر كان يدعو إلى الخير للبشرية والخلاص.

وجد أن الحضارة الحديثة عند اندماج الإنسان ووعيه للطبيعة وإدراكه وحسه لجميع ما حوله بعد الاكتشافات الهائلة التي حصلت في الفيزياء والنظريات النسبية والتقدم التكنولوجي الهائل.



قائمة المراجع

١. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية- الطبعة الثامنة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

٢. أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة في التراث الإسلامي: دراسات تأصيلية، القاهرة: دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م .

٣. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمي للحضارة الإسلامية ومكانته في تاريخ العلم والحضارة، القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م .

٤. أحمد محمد عوف، صناع الحضارة العلمية في الإسلام، سلسلة العلم والحياة، رقم ٨٧ و٨٨، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م، جزءان .

٥. أحمد محمود الساداتي وأرمنيوس فامبري، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، ترجمة أحمد محود الساداتي، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م .

٦. أندريه ريمون، االقاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع .

٧. أنور عبد العليم، ابن ماجد الملاح، سلسلة أعلام العرب، العدد ٦٣، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م .

٨. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير (٢): العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، بيروت:دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م .

٩. خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م .
دائرة المعارف الإسلامية، الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م ٣ جزء .

١٠. رشدي راشد (إشراف)، موسوعة تاريخ العلوم العربية، سلسلة تاريخ العلوم العربية (٣)، بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية مؤسسة عبد الحميد شومان،١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م،٣ أجزاء .

١١. سامي حداد، مآثر العرب في العلوم الطبية، بيروت: مطبعة الريحاني، ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م .

١٢. سليمان عبد الغني مالكي، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في

بغداد، الرياض: مطابع دار الهلال للأوفست، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م .

١٣. سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث من أجل بحث رؤيوي معاصر

١٤. شارك مصطفى، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧ م، جزءان .

١٥. شحاتة عيسى إبراهيم، القاهرة: تاريخها، نشأتها، امتدادها منذ تاريخها البعيد حتى الوقت الحاضر، القاهرة: دار الهلال، د.ت .

١٦. شعبان عبد العزيز خليفة، الكتب والمكتبات في العصور الوسطى، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م .

١٧. شوقي عطا الله الجمل المغرب الغربي الكبير (١): من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر (ليبيا- تونس- الجزائر- المغرب الأقصى) القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

١٨. علي عبد الله الدفاع، روائع الحضارة العربية والإسلامية في العلوم، الرياض: دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م .

١٩. فاطمة محجوب، الموسوعة الذهبية، القاهرة: دار الغد العربي، د.ت .

٢٠. كارلو نللينو، علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى، القاهرة: الجامعة المصرية، ١٣٢٨ هـ/ ١٩١١ م .

٢١. محفوظ علي عزام، نظرية التطور عند مفكري الإسلام: دراسة مقارنة، القاهرة: دار الهداية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م .

٢٢. نقولا زيادة، إفريقيات: دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب والنشر، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م .

٢٣. يحيى شامي، علم الفلك: صفحات من التراث العلمي العربي والإسلامي، بيروت: دار الفكر العربي، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م .

٢٤. يسري الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، الإسكندرية، ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م.

فهرس المحتويات